

البحث اللغوي

عند

إخوان الضفء

وكتبه أبو السعود السعدي



البحث اللغوي

عند

إخوان الصفاء

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
رقم التسجيل	١٩٩١
رقم الترخيص	١٩٩١

مركز الدراسات والبحوث

Organization of the Alexan-
dria (O.A.L.)
المنظمة لدراسة اللغة العربية
بجامعة الإسكندرية

الطبعة الاولى

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

مطبعة الأفنان

٧ شارع الجزيرة بداران شبرا - مصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِقَدَرِهِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين ورحمة
الله للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين •

ويعمد •••

فهذه صفحات متواضعة ، تناولت فيها الجهود اللغوية التي سجلها
اخوان الصفا في تراثهم المطبوع والمداول بيننا الآن •

وكثير من مؤرخي البحث العلمي — وخاصة في الغرب — يهملون
دور العرب والمسلمين ، ويتناسون حلقة من أهم حلقات البحث العلمي
في اللغة ، فلا تكاد نراهم يذكرون في كتاباتهم الا الهند واليونان ومن
ورثهم كالرومان ، وكأن العالم لم يشهد بين حضاراته الا هذه
الحضارات القديمة المنهارة ، وكأن حضارة الاسلام لم تقدم في هذا
الميدان ما لم يشهد له العالم نظيرا ، بشهادة الواقع الواضح في خزانات
الكتب ودورها في كل أنحاء العالم •

والاهتمام بالتراث يعني كشفه وتقويمه والأخذ بما يفيد ، وهذا
ما حاولته في تراث اخوان الصفا • فقد نقبت عما يتصل باللغة ، سواء
كان موضوعها عاما أو خاصا باللغة العربية ، فقد نثروا أفكارهم اللغوية
في ثنايا فصول رسائلهم ولم يلتزموا بوحدة الموضوع منتهجين ما يعرف
هناك العلماء بأسلوب الاستطراد ، وعلى الباحث أن ينقر عما يريد هو أن
يفتح عما يقصد •

وقد أسفر التنقيح والتفتيش في النصوص المتناثرة عن جمع عدد من المسائل والقضايا اللغوية العامة والخاصة باللغة العربية وتيسيراً لحرسها والنظر فيها أدرجتها في بابين : يختص أولهما بالقضايا اللغوية العامة ، وثانيهما بالقضايا الخاصة باللغة العربية *

وقد مهدت لهما بتمهيد تناولت فيه سبب اختيان الفلاسفة بصفة عامة واخوان الصفا بصفة خاصة للكشف عن أرائهم اللغوية * كما القيت الضوء فيه — بإيجاز — على جماعة اخوان الصفا ورسائلهم بعامة ، ثم حددت الرسائل التي يظهر فيها فكرهم اللغوي بخاصة * كما أشرت الى المصادر التي استقى منها الاخوان فكرهم * ثم ختمت التمهيد بحصر القضايا الرئيسية التي أمكن استنباطها *

أما الباب الأول فقد اشتمل على سبعة فصول تتناوله القضايا اللغوية العامة وهي اللغة والفكر والعلاقة بينهما ، ونشأة اللغة بشقيها المنطوق والمكتوب ، وتطور اللغة وأسبابه ومظاهره ، والصوت العام : أنواعه ونشأته ومراحله ، والصوت اللغوي : مفهومه ، ومستويات نطقه ، ومراحله بدءاً بانتاجه وانتهاءً بإدراكه ، والاكساب اللغوي وطرقه ومستوياته وعوامله وأسباب تفاوت الناس فيه وأفضلية الانبساط على ما سواه بقدرته على اكتساب اللغة وتعلمها * ثم أنهيت الباب بالفصل الأخير الذي يتناول ماهية كل من اللفظ والمعنى ، وأهمية كل منهما *

أما الباب الثاني فقد اشتمل على خمسة فصول تناولت القضايا العربية ، وهي : أفضلية العربية ، أصلها وتطورها ، أصواتها (عدها ومخارجها وعيوبها) ، وألفبائها (ترتيبها وعددها وميزتها) ، الخط العربي (مصدره ، صورته ، معايير جودته ، دوائج تجويده) ، ثم

٥

أنهيت الباب بالفصل الخامس الذى يتناول من قضايا اللفظ والمعنى :
الاشتراك اللفظى والترادف والتباين والتوافق والاشتقاق ، والقلب
، والتبديل ، ثم بلاغة الكلام .
ثم أنهيت هذا الكتاب بخاتمة اشتملت على خلاصة البحث ونتائجه .
وبعد : فان كنت قد أصبت فالخير قصدت ، وان كنت أخطأت
فحسبى أننى حاولت وأخلصت .

وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب ..

د . أبو السعود أحمد الفخرانى

القاهرة فى

غرة ربيع الثانى ١٤١١ هـ

٢٠/١٠/١٩٩٠م

بين يدي الموضوع

ما أكثر اللغويين الذين عنوا بالدراسات اللغوية من نواحيها المتعددة : الأصوات والصرف والنحو والدلالة ، وما أكثر المصنفات اللغوية التي ترخر بها المكتبة العربية في مختلف مستويات البحث اللغوي .

ولكن هل ترك البحث في اللغة للغويين وحدهم ؟

كلا ، لقد رأينا علماء التجويد القرآني يقننون أداء القرآن الكريم وينشئون قسما خاصا بصوتياته وتجويده ، وقد انتفعوا بمعارف اللغويين الأوائل من أمثال الخليل بن أحمد وتلميذه سييويه .

وترى أفكارا لغوية متناثرة في كتب الفقه والعروض والأدب والفلسفة والموسيقى وغيرها لم تجمع بعد جمعا وافيا ولم تدرس دراسة علمية منظمة في ضوء المناهج العربية والمناهج الحديثة .

ورأينا من يدعو الى النظر في كتب التراث لجمع ودراسة تلك الأفكار ، وقد امتد بصره الى قطاع الأدب فوقع نظره على زعيم البيان العربي أبي عثمان بن بحر الجاحظ ، ووضع أيدينا على تصور هذا الزعيم للجانب الصوتي والإدائي للغة (١) .

ورأينا من امتد بصره الى المحدثين والفقهاء والأصوليين ذوي

(١) انظر ٥٥٠٠ عبد الله ربيع محمود : الملامح الادائية عند الجاحظ

في البيان والتبيين .

الطبعة الاولى ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

٨

الاهتمام بعلوم اللسان وقد اشتهروا بغير اللغة ، ويحسول جميع معارفهم اللغوية في مصنفات مستقلة (٢) .

من هنا كان اتجاهى الى غير من اشتهروا بغير اللغة في دنيا العلوم والمعارف للتعرف على ما اثاروه وطرقوه من قضايا اللغة وجمع ذلك ودراسته في ضوء المناهج العربية والحديثة .

ومن هؤلاء المهتمين بعلوم اللسان والمشتهرين بغير اللغة الفلاسفة ، وقد اتجهت الى حكماء القرون الأولى للهجرة واخترت من بينهم اخوان الصفاء وخلان الوفاء .

ومن حق القارىء أن يتساءل عن سبب اختيار الفلاسفة بصفة عامة واخوان الصفاء بصفة خاصة ؟

أما عن سبب اختيار الفلاسفة فانه يرجع الى أن هناك بحوثاً عديدة اشترك في بحثها اللغويون والفلاسفة ، ومن تلك البحوث علاقة اللغة بالفكر ، والدلالة ، وعلاقتها بالألفاظ ، ونشأة الكلام الانساني وغير ذلك .

ولذا نرى بعض اللغويين والفلاسفة القدماء قد ربطوا بين اللغة والمنطق « ولبت المنطق يغزو ببحوثه بعض مناطق اللغات » كما ظر اللغوى يقتحم ببحوثه بعض نواحي اللغة « (٣) .

(٢) انظر : د . رشاد سالم : الاصوليون والنظريات اللغوية . رسالة دكتوراه من مكتبة اللغة العربية بالقاهرة ، د . عبد الوهاب ربيع محمود : النحو الشارد في تشارق الانوار للقاضى عياض . مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية ص ٧٧٩ - ٨١٨ العدد السادس ١٤٠٦ م ١٤٨٩ م .

(٣) انظر د . ابراهيم انيس : من اسرار اللغة ص ١٣٣ الطبعة السادسة ١٩٧٨ م .

أما عن سبب اختيار اخوان الصفا فانه يرجع الى عدة أمور ،
منها :

١ - أن تراث الاخوان - كما قيل - كنز فكري ثمين ، فمعظم
المذنبين جالوا في مجال تاريخنا وفلسفتنا الاسلامية مجتمعين على أن
بمسائل الاخوان هي أغزر مادة فلسفية وأقوم حجة عقلية ، وأثمن
تحفة فكرية ، بل رؤى أن رسائلهم تمثل الرقى العقلى والتطور
الفكرى ، وتعتبر من أقدم المصادر في الفلسفة الاسلامية للتعبير
عن الثقافة الواسعة ، وأغنى موسوعة بالعلوم والآداب (٤) *

٢ - أن الاخوان عاشوا في فترة تعدد من أخصب الفترات في
تاريخ الفكر العلمى واللغوى في العالم العربى والاسلامى الذى
كان يمثل وقتئذ العالم المتحضر .

٣ - أن مشاهير الفلاسفة العرب من أمثال الفارابى (٢٥٩ -
٣٣٩ هـ) وأبى حيان التوحيدى (٣١٠ - ٤١٤ هـ) ، وابن سينا
(٤٢٨ هـ) ، وأبى حامد الغزالى ، حجة الاسلام (٤٥٠ - ٥٠٧ هـ)
قد تأثروا باخوان الصفا في بعض آرائهم (٥) *
٤ - أن بعض من تعرضوا لفكر هؤلاء الاخوان - في القديم

(٤) انظر : عارف تامر - مقدمة تحقيق لرسالة جامعة الجامعة
لاخوان الصفا ص ٥ - ٦ . دار النشر الجامعيين ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م ،
د . نورى جعفر : آراء ومواقف تربوية ونفسية صائبة فى التراث العربى
الاسلامى ص ١٨ وما بعدها . وزارة الثقافة والاعلام العراقية ١٩٨٢
- سلسلة دراسات « ٣٣٤ » .

(٥) انظر : حسنى احمد السيد حماد : الحضارة العربية ص ٦٦
- ٦٧ وزارة الثقافة ١٩٦٧ م ، د . محمد فريد حجاب : الفلسفة السياسية
عند اخوان الصفا ص ٤٦ . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢ م .

والحديث - وقفوا على غايتهم الظاهرة والباطنة وحلّلوا أفكارهم وأهدافهم السياسية والدينية ، وطعنوهم في دينهم (٦) ، ولم يتعرضوا لفكرهم اللغوي فيما أعلم .

والتراث الموجود بيننا المنسوب الى الاخوان ويحمل اسمهم وأفكارهم يحتوى على أفكار لغوية عديدة - وكثير منها يتصل بلغة القرآن الكريم - تظهر لكل من تصفحه ، لذا فإِنَّه من الواجب على المهتمين باللغة أن يوقفوا على هذه الأفكار ، ويحقّقوا الحق منها ، ويبطلوا الباطل ، ويظهروا الغث من السمين . وهذا ما حاولت - جاهداً - صناعته .

٥ - أن المكتبة العربية تخلو من بحث مثل هذا ، ياقى الضوء على الفكر اللغوي لهؤلاء الاخوان ، على الرغم من احتوائها كثيراً من المؤلفات العربية وغيرها التى تبرز فكرهم فى المجال الفكرى غير اللغوى .

فمن هم اخوان الصفا ؟ وما الفترة التى عاشوا فيها ؟

لقد أطلقت جماعة اخوان الصفا على نفسها - كما تشير الى ذلك رسائلهم - اسم : « اخوان الصفا وخلصان الوفا وأهل العدل وأبناء الحمد » (٧) . وكانت هذه الجماعة قد تألفت - كما يقول

(٦) انظر ابو حيان التوحيدى : الامتاع والمؤانسة ج ٢/٤ - ٢٣٣ تصحيح وشرح أحمد أمين ، وأحمد الزين . ط القاهرة ١٩٤٢ م ، ص ٠٠٥ .
 جبور عبد النور : اخوان الصفا ص ١٥ - ٣٤ . سلسلة نوايغ الفكر العربى (رقم ٢٧) . ط ٤ دار المعارف ١٩٨٣ م .
 (٧) انظر رسائل اخوان الصفا ٢١/١ ط بيروت .

أبو حيان التوحيدى - بالعشرة وتصافت بالصداقة ، واجتمعت على
القدس والطهارة والنصيحة (٨) .

وقد تضاربت الآراء تضارباً شديداً حول تحديد العصر الذى
ظهر فيه الاخوان ، فنرى كثيراً من العلماء يميل الى أن ظهورهم فى
القرن الرابع الهجرى « العاشر الميلادى » ونرى البعض يميل الى أن
ظهورهم فى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث الهجريين . وأن
رسائلهم بدى* فى تحريرها منذئذ ، ولهم تأخذ شكلها واسمها حتى أوائل
القرن الرابع الهجرى (٩) .

وتبع هذا التضارب تضارب فى تحديد أشخاصهم ، ومن أيد
ظهور الاخوان ورسائلهم على مراحل رأى أن جماعتهم ضمت معظم
الذين قيل انهم كانوا أعضاء فى الجماعة ، أو أسسوها فى وضع
رسائلها ، ومن هؤلاء : عبد الله بن المبارك (ت ١٨٢ هـ) ، وعبد الله بن
محمد بن اسماعيل (ت ٢١٢ هـ) ، وأحمد بن عبد الله (ت ٢٢٩ هـ) ،
وعبد الله بن سعيد بن الحسين (ت بعد ٢٤٠ هـ) وزيد بن رفاعه
وجماعتهم التى ذكرها أبو حيان التوحيدى ، من أمثال أبو سليمان
محمد بن معشر البستى المقدس ، وأبى الحسن على بن هارون.
الزنجاني ، وأبى أحمد المهرجاني ، وأبى الحسن العونى وغيرهم (١٠) .

(٨) النظر : الامتاع والمؤانسة ٥/٢ .

(٩) النظر : د. جبور عبد النور ص ٥ ، وعارف تامر : حقيقة
اخوان الصفا ص ٧ - ٨ ط بيروت ١٩٥٧ ، د. على سامى النشار : نشأة
الفكر الفلسفى فى الاسلام ٣٩١/٢ - ١٣٩٨ ط دار المعارف ، د. محمد
قوريد حجاب .

(١٠) الفلسفة السياسية عند اخوان الصفا ٣٣ - ٥٤ .

انظر أبو حسان التوحيدى : الامتاع والمؤانسة ٤/٢ - ٥ ، وحاجى
خليفة : كشف الظنون ٩٠٢/١ القاهرة ١٩٤١ ، د. محمد قوريد حجاب
- الفلسفة السياسية عند اخوان الصفا ٦٣ - ٧٩ .

أما عن تعدد الاخوان اخفاء أسمائهم عن عامة الناس فيقول أحد
من كتب عنهم :

« ولعل اخوان الصفا تعدد اخفائهم عن عامة الناس حرصا على
حياتهم المهددة من ملوك ذلك العصر الذين عانسوا خلاله ، ومبالغة في
كتمان هدف رغبتوا ألا يصل الطالب الى معرفته بسهولة ، وزهدا في
شهرة كانوا يعتقدون أنها زائلة ، وطمعا في ثواب أملوا نيله » (١١) •

وقد عاش اخوان الصفا — على ما يقولون — في البصرة ، وكان
لهم فرع في بغداد ، وقيل كانت بداية نشأتهم كحركة سرية بمدينة
« سلمية » بالشام ، ثم أسسوا فروعا لهم في مختلف البلاد ، اذ أن
رسائلهم لا تكاد تخلو احداها من عبارة « وجهيخ اخواننا حيث كانوا
في البلاد » (١٢) •

وفي تلك الفترة وفي هذه المواطن كان أعظم علماء العربية وأرقى
المفكرين فيها •

وقد ضمن الاخوان فكرهم في اثنتين وخمسين رسالة (١٣) ،
ورسالة جامعة (١٤) اشتملت على حقائق هذه الرسائل بأسرها ، ثم

(١١) انظر : عارف تامر : مقدمة تحقيق رسالة جامعة الجامعة
للاخوان الصفا ص ٥ •

(١٢) انظر : عارف تامر : حقيقة اخوان الصفا ص ١٠ - ١١ ،
وبطرس البستاني : مقدمة رسائل اخوان الصفا ٥/١ ، د. محمد
فريد حجاب : الفلسفة السياسية عند اخوان الصفا ٥٥ - ٦٢ •
(١٣) طبعت عدة طبعات : في ليبزج ١٨٨٣ م ، وبومباي ١٣٠٣ هـ ،
ومصر ١٣٠٦ هـ ، وبيروت ١٩٥٧ م •

(١٤) حققها جميل صليبي ونسبها خطا للحكيم المجريطي ، وطبعت
في جزاين • ط. المجمع العلمي العربي ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م •

جامعة الجامعة (١٥) أو (زبدة اخوان الصفا) التي تعتبر فهرست الرسائل جميعها و خلاصتها .

ونجد الرسائل الاثنتين والخمسين مقسومة الى أربعة أقسام :
الرياضي التعليمي ، والجسماني الطبيعي ، والنفسي العقلي ،
والناموس الالهي ، وتلك الرسائل هي كالتالي :

● الرسائل الرياضية التعليمية والفلسفية :

- ١ — العدد .
- ٢ — الهندسة .
- ٣ — النجوم والأفلاك .
- ٤ — الجغرافيا .
- ٥ — الموسيقى .
- ٦ — النسبة العددية والهندسية في تهذيب النفس واصلاح الأخلاق .
- ٧ — الصنائع العلمية النظرية .
- ٨ — الصنائع العملية والمهنية .
- ٩ — الأخلاق وأسباب اختلافها وبيان عللها .
- ١٠ — الألفاظ الستة التي يستعملها الفلاسفة في المنطق وفي أقوالهم .

(١٥) حققها عارف تامر ، وطبعت في جزء واحد ، ط دار النشر
لجامعيين ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩ م .

- ١١ - المقولات العشر (الألفاظ العشرة التي كل واحد منها
الاسم الجنس من الموجودات كلها) *
- ١٢ - العبارات وأداء المعانى على حقها والابانة عنها *
- ١٣ - القياس *
- ١٤ - البرهان *

● الرسائل الجسمائية الطبيعية :

- ١٥ - الهيولى والصورة *
- ١٦ - السماء والعالم *
- ١٧ - الكون والفساد *
- ١٨ - الآثار العلوية (حوادث الجو وتغيرات الهواء) *
- ١٩ - المعادن *
- ٢٠ - الطبيعة *
- ٢١ - النبات *
- ٢٢ - الحيوان *
- ٢٣ - الجسد *
- ٢٤ - الحاس والمحسوس *
- ٢٥ - مسقط النطفة *
- ٢٦ - الانسان عالم صغير *

٢٧ — كيفية نشوء الأنفس الجزئية في الأجساد البشرية الطبيعية •

٢٨ — طاقة الانسان في المعارف •

٢٩ — ماهية الموت والحياة •

٣٠ — ماهية المذات والآلام الجسمانية والروحانية •

٣١ — علل اختلاف اللغات ورسوم الخطوط والعبارات •

● الرسائل النفسية العقلية :

٣٢ — مبادئ الموجودات العقلية على رأى الفيثاغوريين •

٣٣ — مبادئ الموجودات العقلية على رأى اخوان الصفا •

٣٤ — العالم انسان كبير •

٣٥ — العقل والمعقول •

٣٦ — الأكوال (الطبائع) والأدوار واختلاف القرون والأعصار

٣٧ — ماهية العشق •

٣٨ — ماهية البحث والصور والنشور والقيمة والحساب ،
وكيفية المعراج •

٣٩ — كمية أجناس الحركات •

٤٠ — العلل والمعلولات •

٤١ — الحدود والرسوم •

● الرسائل الناموسية الإلاهية والشرعية الدينية :

- ٤٢ — الآراء والمذاهب في الديانات الشرعية الناموسية والفلسفة •
- ٤٣ — ماهية الطريق الى الله •
- ٤٤ — بيان اعتقاد اخوان الصفا ومذاهب الربانيين الإلاهيين •
- ٤٥ — كيفية عشرة اخوان الصفا •
- ٤٦ — ماهية الايمان وخصال المؤمنين المحققين •
- ٤٧ — ماهية الناموس الإلاهى والوضع الشرعى وشرائط النبوة •
- ٤٨ — كيفية الدعوة الى الله بصفوة الأخوة •
- ٤٩ — كيفية أفعال الروحانيين والجن والملائكة المقربين والمردة والشياطين •
- ٥٠ — كمية أنواع السياسات وكيفيتهما ومراتب المسوسين وصفات الدبرين لها فى العالم •
- ٥١ — كيفية نضد العالم بأسره وفى مراتب الموجودات ونظام الكائنات •
- ٥٢ — ماهية السحر والعزائم •

وتتمثل تلك الرسائل موسوعة غنية بالعلوم والمعارف ، ولما كان هدفنا من بحثنا هو الكشف عن المسائل اللغوية — ونميز الغث منها

عن السمين - وعدم الخوض في غيرها من المسائل والأفكار البعيدة عن اللغة ، فقد أمكن استخلاص فلسفة الاخوان اللغوية من خلال تسع عشرة رسالة من مجموع تلك الرسائل : منها سبع رسائل في القسم الرياضى وهى العدد (١) والهندسة (٢) والموسيقى (٣) ، والنسبة العددية والهندسية في تهذيب النفس واصلاح الأخلاق (٤) ، والأخلاق (٥) ، ورسالتان في المنطق (٦) .

ومنها ثمان رسائل في القسم الجسمانى الطبيعى وهى : الكون والفساد (٧) ، والآثار العلوية (٨) : والحيوان (٩) وتركيب الجسد (١٠) ، والحاس والمحسوس (١١) ، والانسان عالم صغير (١٢) ، وطاقمة الانسان في المعارف (١٣) ، وعلل اختلاف اللغات (١٤) . ومنها ثلاث رسائل في القسم النفسى العقلى ، وهى : العقل

-
- (١) انظر رسائل اخوان الصفا ح ٤٨/١ - ٧٧ .
 - (٢) نفس المرجع السابق ح ٧٨/٥١ - ١١٣ .
 - (٣) نفس المرجع السابق ح ١٨٣/١ - ١٥٤١ .
 - (٤) نفس المرجع السابق ح ٢٤٢/١ - ٢٥٧ .
 - (٥) نفس المرجع السابق ح ٢٩٦/١ - ٣٨٩ .
 - (٦) نفس المرجع السابق ح ٣٩٠/١ - ٤٠٣ ، ٤١٤ - ٤١٩ .
 - (٧) نفس المرجع السابق ح ٥٢/٢ - ٦١ .
 - (٨) نفس المرجع السابق ح ٦٢/٢ - ٨٦ .
 - (٩) نفس المرجع السابق ح ١٧٨/٢ - ٣٧٧ .
 - (١٠) نفس المرجع السابق ح ٣٧٨/٢ - ٣٩٥ .
 - (١١) نفس المرجع السابق ح ٣٩٦/٢ - ٤١٦ .
 - (١٢) نفس المرجع السابق ح ٤٥٦/٢ - ٤٧٩ .
 - (١٣) نفس المرجع السابق ح ١٨/٣ - ٣٣ .
 - (١٤) نفس المرجع السابق ح ٨٤/٣ - ١٧٧ .
- (٢ - اخوان الصفا)

والمعقول (١٥) ، وكمية أجناس الحركات (١٦) ، والعقل والمطلولات (١٧) .
ومنها رسالة واحدة في القسم الناموسى الإلهى ، وهى الآراء
والديانات (١٨) .

وقد استقى اخوان الصفا أفكارهم التى بثوها في تلك الرسائل
من أربعة مصادر رئيسية هى (١٩) :

١. — كتب الفلاسفة والحكماء من الرياضيات والطبيعيات .
٢. — الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء مثل التوراة والانجيل
والفرقان وغيرهما كما يقولون .
٣. — الكتب الطبيعية « وهى صور أشكال الموجودات بما هى
عليه الآن من تركيب الأفلak ، وأقسام البروج ، وحركات الكواكب
ومقادير أجرامها ، وتصارييف الزمان ، واستحالة الكائنات من المعادن
والحيوان والنبات ، وأصناف المصنوعات على أيدي البشر » .
٤. — العلوم الباطنية (علم الأعداد والحروف ، أو علم الغير)
المعروف لدى الفرق الباطنية ، وهى التى يسميها الاخوان « الكتب
الإلهية التى لا يمسه الا المطهرون الملائكة التى هى بأيدي سفره ،
كرام برره » .

أما القضايا اللغوية الرئيسية التى أمكن تكوينها من خلال

-
- (١٥) نفس المرجع السابق ج ٣/٢٣١ - ٢٤٨
 - (١٦) نفس المرجع السابق ج ٣/٣٢١ - ٣٤٣
 - (١٧) نفس المرجع السابق ج ٣/٣٤٤ - ٣٨٣
 - (١٨) نفس المرجع السابق ج ٣/٤٠١ - ٥٠٤
 - (١٩) نفس المرجع السابق ج ٤/٤٢ - ٤٣

النصوص المتفرقة المبعثرة في الرسائل والسالفة الذكر فيمكن اجمالها في نوعين رئيسيين :

الأول : قضايا لغوية عامة ، تدخل في نطاق علم اللغة بمفهومها العام .

الثاني : قضايا لغوية خاصة ، تدخل في نطاق علم اللغة العربية . وينطوي تحت النوع العام القضايا الآتية :

- ١ - اللغة والفكر وعلاقة كل منهما بالآخر .
- ٢ - نشأة اللغة بشقيها المنطوق والمكتوب .
- ٣ - تطور اللغة ، وأسبابه ومظاهره .
- ٤ - الصوت العام . أنواعه ونشأته ومراحلته .
- ٥ - الصوت اللغوي . مستويات نطقه ومراحلته .
- ٦ - اكتساب اللغة .
- ٧ - اللفظ والمعنى .

وينطوي تحت النوع الخاص باللغة العربية القضايا الآتية :

- ١ - أفضلية اللغة العربية .
- ٢ - أصواتها .
- ٣ - الخط العربي .
- ٤ - من قضايا اللفظ والمعنى في اللغة العربية :

(الاشتراك اللفظي والترادف والتباين والتواطؤ والاشتقاق والتقلب والتبديل وبلاغة الكلام) .

وفيما يلي تفصيل هذه القضايا وتوضيح رأى الاخوان فيها في ضوء الدراسات العربية والحديثة .

الباب الأول

القضايا اللغوية العامة

الفصل الأول

اللفظة والفكر

لقد جذب هذا الموضوع كثيرا من العلماء في القديم والحديث إلى الوقوف أمامه ومحاولة التعرف على صلة اللفظة بالفكر ، ولقد أخذوا الفلاسفة والمنطقة على عاتقهم — منذ أقدم العصور — توضيح العلاقة بينهما ، وهو موضوع لما يفرغ المحدثون من الخوض فيه إلى الآن .

ولقد طرق الاخوان هذا الموضوع ورأوا أن اللفظة ذات شقين :

شق عقلي وشق لفظي ، والأول هو الفكر أو « النطق الفكري » ، والآخر هو الكلام أو « النطق اللفظي » ، يقول الاخوان موضحين الفرق بين الشقين :

« اعلم يا أخي — أيديك الله وإيانا بروح منه — أن المنطق مشتق من نطق ينطق نطقا ، والنطق فعل من أفعال النفس الانسانية ، وهذا الفعل نوعان : فكري ولفظي ، فالنطق اللفظي هو أمر جسماني محسوس ، والنطق الفكري أمر روحاني معقول ، وذلك أن النطق اللفظي إنما هو أصوات مسموعة لها هجاء ، وهي تظهر من اللسان الذي هو عضو من الجسد وتمر إلى المسامع من الآذان التي هي أعضاء من أجساد آخر ، وأن النظر في هذا المنطق والبحث عنه والكلام

على كيفية تصاريفه وما يدل عليه من المعانى يسمى علم المنطق اللغوى،
وأما المنطق الفكرى الذى هو أمر روحانى معقول فهو تصور النفس
معانى الأشياء فى ذاتها ، ورؤيتها لرسوم المحسوسات فى جوهرها
وتمييزها لها فى فكرتها ، وبهذا المنطق يحدد الانسان فيقال انه حى.
ناطق (١) مائت ، فنطق الانسان وحياته من قبل النفس وموته من
قبل الجسد ، لأن اسم الانسان انما هو واقع على النفس والجسد
جميعا ، واعلم أن النظر فى هذا المنطق والبحث عنه ومعرفة كيفية
ادراك النفس معانى الموجودات فى ذاتها بطريق الحواس ، وكيفية
انفداح المعانى فى فكرها من جهة العقل الذى يسمى الوعى والالهام ،
وعبارتها عنها بالفاظ بأى لغة كانت يسمى علم المنطق الفلسفى « (٢) ».

ولا يهمنا الآن أن نظهر ونناقش ما اشتمل عليه النص من العناصر
التي تشترك فى عملية الاتصال أو التواصل اللغوى ، والتي تنال
اهتماما كبيرا فى هذه الآونة من علماء اللغة والنفس ، فسوف نتعرض
لها فى الفصل الخاص بالصوت اللغوى ، ولكن الذى أحب أن أبرزه أن
الكلام — كما يظهر من النص — ادراك عقلى قائم فى النفس أولا ثم
يتحول الى أصوات محسوسة حيث تتم عملية تبادل بين المتكلم
باللسان والسامع بالأذن .

فباللغة من هذه الزاوية التي طرقها الاخوان تعبير ومعبر عنه ،
وهذا هو ما تصوره ابن جنى حين عرف اللغة بأنها أصوات يعبر بها
كل قوم عن أغراضهم « (٣) » وهو تعريف اشتمل — على ايجازه

(١) أى مفكر .

(٢) انظر رسائل اخوان الصفا ج ١/٣٩١ - ٣٩٢ .

(٣) انظر : الخصائص ج ١/٣٣ تحقيق الشيخ محمد على النجار .

الطبعة الثانية . بيروت .

ودقته — على أهم العناصر التي يحتاج الانسان اليها في تصور اللغة (٤) *

ولا يختلف هذا التصور كذلك عن تصور عدد من اللغويين المحدثين في الغرب ، هنري البريطاني « هنري سويت » يعرف اللغة بأنها : « التعبير عن الأفكار بواسطة الأصوات الكلامية المؤتلفة في كلمات » *

والأمريكي « ادوارد سايبير » يعرف اللغة بأنها « وسيلة إنسانية خالصة لتوصيل الأفكار والانفعالات والرغبات عن طريق نظام من الرموز التي تصدر بطريقة ارادية » (٥) *

فليست اللغة الا أداة لحمل الأفكار وقالبها ووسيلة لنقلها ، وليست مجرد أصوات مجموعة أو حروفا مكتوبة ، ولذا يقول الإخوان :

« فاللغات انما هي سمات والات على المعاني التي في أفكار النفوس وضعت بين الناس ليعبر كل انسان عما في نفسه من المعاني لغيره من الناس عند الخطاب والسؤال » (٦) *

وقد أكد اخوان الصفا حاجة الفكر الى التعبير في فصل عنوانه « حاجة الانسان الى المنطق » قالوا فيه :

(٤) النظر : د. عبد الله ربيع ، د. عبد العزيز علام : في فقه اللغة
اللسانية ص ٢٥ . الطبعة الاولى ١٣٩٦ هـ . - ١٩٧٦ م ، د. عبد الغفار
حلال : اللغة العربية : خصائصها وسماتها ص ٦ الطبعة الاولى ١٣٩٩ هـ .
- ١٩٧٦ م .

(٥) انظر : د. عبد الله ربيع ، د. عبد العزيز علام : في فقه
اللسانية ص ٢٦ .

(٦) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١ / ٣٩٨ .

« واعلم أيها الأخ أنه لو أمكن الناس أن يفهم بعضهم من بعض المعانى التى فى أفكار نفوسهم من غير عبارة اللسان لما احتاجوا الى الأقاويل التى هى أصوات مسموعة ، لأن فى استماعها واستفهامها كلفة على النفوس من تعليم اللغات وتقويم اللسان والافصح والبيان، ولكن لما كانت نفس كل واحد من البشر مغمورة فى الجسد مغطاة بظلمات الجسد حتى لا ترى واحدة منها الأخرى الا الهياكل الظاهرة التى هى الأجساد الطويلة العريضة العميقة، ولا يدري ما عندك واحدة منها من العلوم الا ما عبر كل انسان عما فى نفسه لغيره من أبناء جنسه، ولا يمكنه ذلك الا بأدوات وآلات مثل اللسان والشفيتين واستنشاق الهواء وبها شاكلها من الشرائط التى يحتاج الانسان اليها فى افهامه غيره من العلوم واستفهامه منه ، فمن أجل هذا احتيج الى المنطق اللفظي وتعليمه والنظر فى شرائطه التى يطول الخطاب فيها » (٧) •

وفى قولهم :

وهكذا نرى أن الاخوان لا يفصلون بشكل عام بين التعبير عن المعبر عنه ، أو اللغة عن الفكر ، وأن تلك اللغة هى أداة الفكر التى توضحه وتبين عنه ، ومن ثم شكل منهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به •

ولا يهمنى الان أن نبرز الفروق الدقيقة التى رآها الاخوان بين الأفكار والمعانى والأفكار ، فسوف تظهر ذلك فى الفصل الذى خصصناه للفظ والمعنى ورغم أن موضوع الصلة بين اللغة والفكر لا يزال موضوع نزاع بين علماء اللغة والنفس والمناطق والاجتماع وغيرهم ، ولا يزال من أشد المباحث تعقيدا الى الان شائنا نرى أن الاتجاه الذى أبرزه اخوان الصفا على النحو السالف الذكر هو الاتجاه الأكثر شيوعا وقبولا لدى العلماء المحدثين والمعاصرين •

(٧) انظر المرجع السابق ج ٢/٤٠٢ •

فالفكر ترتبط باللغة ارتباطا وثيقا ، والعلاقة بينهما علاقة متبادلة من حيث التأثير والتأثر ، فكل منهما يؤثر في الآخر ويتأثر به ، ولا نستطيع أن نتكلم بما لا نقدر أن نفكر فيه ، ولا نستطيع أن نفكر بعيدا عن قدرتنا اللغوية (٨) •

وبها هو العالم السويسرى « دى سوسير » يرى أنه « بدون اللغة تعد الفكرة شيئا غامضا وسحابة مجهولة ، لا وجود لما يسبق الأفكار ، ولا شيء واضح قبل ظهور اللغة » (٩) •

ويشبه الفكرة والصوت بصحيفة من الورق : « الفكرة وجه الورقة ، والصوت خلفها ، لا يستطيع المرء قطع وجه الورقة من غير أن يقطع خلفها في نفس الوقت • نفس الشيء فى اللغة فان المرء لا يستطيع فصل الصوت عن الفكرة ولا الفكرة عن الصوت ، يمكن عمل القسمة فقط بشكل تجريدى ، والنتيجة ستكون اما نفسية خالصة أو صوتية خالصة » (١٠) •

ان الفكر — وهو ذلك السر البشرى المتسامى المتطلع الى الكمال والى التجريد — يتأثر باللغة ويؤثر فيها آخذا بيدها فى رحلته الطويلة يعينها ما استطاع على أن تتم معه الرحلة حتى نهايتها (١١) •

(٨) انظر : د. جمعة سيد يوسف : سيكلوجية اللغة والمرضى العقل ص ١٥٥ — سلسلة عالم المعرفة ، العدد ١٤٥ ، ط الكويت •

(٩) انظر : فصول فى علم اللغة العام ص ١٩٥ • ترجمة د. احمد نعيم الكراعين ، ط الاسكندرية ١٩٨٥ م •

(١٠) انظر : المرجع السابق ١٩٧ •

(١١) وقد أورد د. حسن ظاظا بعض الامثلة للفاظ رقعها الفكر من طنية الحسن — على حد تعبيره — الى آفاق التجريد الفلسفى فى مراحل

وهناك اتجاهات أخرى حديثة خرجت عن هذا الاتجاه المشهور ، ولها أنصار يؤمنون بها في المدارس الفلسفية والنفسية والاجتماعية ، ويعتبر بعضها أكثر تطرعا ، ويمكن — من خلال المصادر المتاحة — أن أحصر أهمها في خمسة اتجاهات :

الاتجاه الأول :

أما الاتجاه الأول فيؤمن أصحابه بالربط الوثيق بين اللغة والفكر ، باعتباره أن اللغة هي المظهر الخارجي الذي يقدم الفكر من خلاله ، ويرون أن ما يدور بخلد الإنسان وإن كان من الممكن التعبير عنه بأكثر من وسيلة كالرسم بالألوان أو بالموسيقى إلا أن اللغة هي أكثر الأدوات شيوعا في التعبير عن الأفكار ، لكن أصحاب هذا الاتجاه يرون أن التفكير يؤثر في اللغة حيث سبق عليها (١٢) ، زاعمين أن هذه مسألة تقع في تجربة كل واحد منا ، فحين يكون لدى الشخص فكرة يتحسس التعبير عنها نراه يخلع عليها — على التعاقب — ألفاظا

=

تطور هي بلاشك من صنع العقل البشري مثل : المروءة ، والروح والدين ، والعقيدة والعقل ، والادب ، والشرف ، والجنبة ، وجهنم والمعروف ، والمنكر ، والنفس ويقول عن النفس :

« أصلها من مادة النفس ، أي استنشاق الهواء شهيقا وزفيرا » ومن ذلك استعملت النفس بمعنى الكائن المحتوى على سر الحياة ، لأنه يتنفس ، ثم سميت المرأة التي وضعت حملها نفساء ، لأنه خرجت من بطنها نفس أخرى حية » .

وقال : « كل ذلك تطور مع احتياجات الفكر للتعبير ، ولم ينزل وحيا من السماء على بنى آدم دفعة واحدة » . انظر : اللسان والإنسان ، ٨٨ - ٩٤ ، ط دار المعارف ١٩٧١ م .

(١٢) انظر : د . جمعة سيد يوسف : سيكلوجية اللغة ص ١٥٩ .

غير ملائمة ولا مرضية فيطرح كل لفظ منها واحدا بعد الآخر الى أن،
يعثر آخر المطاف على اللفظ الذي يخيّل له أنه مطابق للفكرة « (١٣) » .

ويفسر بعضهم تقدم الفكر على اللغة وصدارته عليها بتقدم
الرتبة أو الحيثية لا تقدم الزمان أو الوجود في الأعيان ، ويؤكد تلك
الصدارة بقدرة الإنسان على التعبير عما في نفسه بلغات عديدة غير لغة
الكلام « (١٤) » .

الاتجاه الثاني :

أما الاتجاه الثاني فيؤمن أصحابه بالربط بين اللغة والفكر ،
ولكن يرون أن اللغة أكثر تأثيرا في التفكير، إذ النسق اللغوي ليس أداة
لإعادة إنتاج الأفكار المنطوقة ، وإنما هو المشكل للأفكار ، وهو المبرمج
والموجه للنشاط العقلي للفرد ولتحليل الانطباعات وصياغة وحدات
التفكير ، وهذه الصياغة للأفكار ليست عملية مستقلة وإنما هي جزء
من النحو ، وتختلف من لغة الى أخرى (١٥) .

وإذا كان أصحاب هذين الاتجاهين يؤيدون فكرة الربط بين اللغة
والفكر ، فإنهم بعدوا عن الاتجاه المشهور حين رأوا أن أحدهما سابق
على الآخر ، وأدثر تأثيرا فيه ، وهذا مردود اذن اللغة والفكر ظاهرتان
متعاصرتان ، وبينهما علاقة معينة لا علاقة سابقة ولاحق ، فليس الفكر

-
- (١٣) انظر : د. عثمان أمين : في اللغة والفكر ص ٣٢ ط معهد
البحوث والدراسات العربية ١٩٦٧ م .
(١٤) انظر : المرجع السابق ص ٣٣ .
(١٥) انظر : د. جمعة سيد يوسف : سيكلوجية اللغة ص ١٥٢ ،
وكندراتوف : الاصوات والاشارات ص ٦٧ - ٧١ ترجمة شوقي جلال
ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٢ م .

قبل الكلام ولا خارج عن الكلام ، انما الفكر في الكلام ، وقد انطوى كل منهما في الآخر ، والكلام ليس خارج الفكر ، بمعنى أن الكلام لا يصوغ الفكر فقط بل انه يشكله بقدر ما يصوغه » (١٦) •

فالفكر والكلمة جسم واحد ، لا يحصل فكر بدون أن تحدث لغة ، ولا تحدث لغة لا تكون ذاتها فكرا (١٧) •

الاتجاه الثالث :

أما الاتجاه الثالث فقد مزج أصحابه بين اللغة والفكر مزجا تاما ، ووجد بينهما ، إذ « التفكير عبارة عن تناول الكلمات في الذهن ، أو هي عبارة عن عادات حركية في الحنجرة ، أو هو حديث داخلي يظهر في الحركات قبل الصوتية لأعضاء الكلام ، أي أن التفكير كلام قصوى » (١٨) •

فنحن عندما نفكر نتكلم فعلا على الرغم من أن الكلام لا يكون مسموعا (١٩) •

وقد أيد أصحاب هذا الاتجاه وجهة نظرهم بعمل أبحاث تجريبية انفتحوا منها على ما زعموا — الى أن عملية التفكير تكون مصحوبة فعلا ببعض حركات اللسان وأجزاء أخرى من الجهاز الكلامي (٢٠) •

-
- (١٦) انظر د. عثمان أمين : في اللغة والفكر ص ٣٧ — ٣٩ •
 (١٧) انظر : كمال يوسف الحاج : في فلسفة اللغة ص ٢٤ ص بيروت ١٩٦٧ م •
 (١٨) انظر : د. جمعة سيد يوسف : سيكولوجية اللغة ص ١٤٤ •
 (٢٠، ١٩) انظر : د. سيد غنيم : اللغة والفكر عند الطفل : مجلة عالم الفكر المجلد ٢ « العدد الاول ص ١١٠ •

ومن مؤيدى فكرة المزج بين اللغة والفكر في عالمنا العربى المعاصر الدكتور زكى نجيب محمود (٢١) : فقد رأى « أن اللغة التى يضع فيها الفكر فكره لينقله الى سواء هى هى الفكر نفسه » ويرفض الاتجاه المألوف بين الناس فى نظره حين قال : « فالمألوف بين الناس أن ينظروا الى العبارة اللغوية نظرتهم الى وعاء يملأ بما يملأ به ، أو يترك شبه فارغ من مادة تملؤه ، أى أن المألوف بيننا هو النظر الى العبارة اللغوية المعنية نظرة تجعلها شيئا آخر غير المعنى الذى جاءت لتؤديه ، لكن اللفتة الجديدة التى نلفت الأنظار اليها — تمهيدا للوضوح الفكرى الذى نبتغيه — هى أن العبارة اللغوية هى نفسها الفكرة ، اذا غابت غابت معها الفكرة ، واذا اضطرب نظمها اضطرب مع معناها »

وقد رأى أن الامام عبد القاهر الجرجانى كان مدركا لهذه اللفتة حيث قال الدكتور زكى : « وليس هذا القول جديدا كل الجدة حتى على أبناء اللغة العربية والفكر العربى ، فقد كانت النتيجة التى انتهى اليها عبد القاهر الجرجانى من بحثه عن أسرار البلاغة — وتذكر أن هدفه من بحثه كان آخر الأمر كشفه عن بلاغة القرآن الكريم ما سرها ؟ — أقول ان النتيجة النهائية التى انتهى اليها عبد القاهر الجرجانى من كتابيه « أسرار البلاغة ، واعجاز القرآن » هى أن السر كامن فى الطريقة التى ترتب بها مفردات الجملة ، وهكذا تتكون الحال كذلك أو سألنا : ما سر الوضوح فى عالم الفكر ؟ كان الجواب : انه فى الطريقة التى تساق بها الكلمات » .

(٢١) انظر : حصاد السنين : مقال رقم « ١١ » ، بعنوان : رؤية

واضحة « ٣ » ، جريدة الاهرام — العدد « ٣٧٣٢ » ، السنة ١١٤

١٣٣٠ هـ — ٢٠ جمادى الاولى ١٤١٠ هـ — ديسمبر ١٩٨١ م .

ونظرا للمزج بين اللغة والفكر في نظر الدكتور زكي فقد رأى أن غموض اللغة يعنى غموض الفكر وقصور الابداع الفكرى ، والعكس بالعكس ، وألقى باللوم على العامة والخاصة من أبناء العربية في عصرنا الحديث حين عقم تفكيرهم فامتنع ابداعهم ولجأوا الى الأخذ عن الأسلاف مرة وعن الغرب الحديث مرة أخرى وذلك حين أهملوا لاهتمام الفصحى واستخدموها بالطريقة التى تدور على ألسنة الناس في أحاديثهم الجارية فأوقعتهم في « سقطات عقلية لا ينقذهم منها الا التدقيق في استخدامهم للغة » كلما كان موضوع الحديث من الجدية والأهمية والخطورة بحيث يستوجب أن تكون الفكرة المنقولة والمصولة في أصلاّب التفكير اللغوى الذى ينقلها فكرة واضحة الدلالة في المرحلة الزمانية والرقمية المكانيّة التى استخدمت فيها •

وقد ضرب أمثلة من تاريخ الفكر تبين كيف كان الانتقال بالفكر من عصر الى عصر يليه ويتقدم عليه مشروطا بنظرة جديدة الى اللغة لتجعلها منارة حقّة ووضوح ، وذلك حين تساءل : « لماذا اشتملت الخطوة العلمية الأولى في مسيرة الفكر الاسلامى على العناية باللغة عناية أريد بها أن يقام البحث فيها على أسس علمية دقيقة ؟ كان ذلك لأن كتابا كريما قد نزل بدين الاسلام ، ولابد أن تقام على ذلك الكتاب الكريم حضارة اسلامية وثقافة اسلامية وذلك يستوجب أن يحيط المسلم بلغة احاطة العلم الدقيق الواضح لكى يتاح له فهم الكتاب الكريم فهما يعول على صحته • ثم لماذا حين أرادت أوروبا أن تنهض من ظلام عصورها الوسطى قام فيها رجالان يرفعان للناس لواء اللغة الواضحة وهما ديكارت في فرنسا ، وفراييس في إنجلترا • ونسأل للمرة الثالثة لماذا كان من أوائل ما صنعه رجال الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر أن أقامت مجمعا للبحوث

العلمية جعلت أحد أقسامه مختصا بما أسموه للمرة الأولى في تاريخ المصطلح الأوروبي « أيديولوجيا » ، لكنهم قصدوا به معناه الحرفي ، وهو « علم الأفكار » وكان علم الأفكار عندهم يهتم أول ما يهتم بدراسة اللغة دراسة تهدي إلى طريقة استخدامها على دقة ووضوح كلما اقتضى الموقف فكرا واضحا ودقيقا » .

الاتجاه الرابع :

أما الاتجاه الرابع فعلى النقيض من الاتجاه السابق ، إذ يفصل أصحابه بين اللغة والتفكير (٢٢) ، ويرى بعضهم أن الكلام تعبير خارجي لفكرة أو ثوب لها . ويرى بعضهم أن التفكير محصور من كل المكونات الحسية بما فيها الكلمات ، ويتصورون العلاقة بين الفكرة والكلمة علاقة خارجية بحتة ، ويدرسون خصائص التفكير مستقلا ، ثم خصائص الكلام معزولا عن التفكير ، ثم يتصورون وجود علاقة بين هذا وذاك على أنها ارتباط آلي خارجي لعمليتين مختلفتين (٢٣) . ويرى بعضهم أن هناك توازيا بين التفكير واللغة ، ولا ينبغي أن تؤخذ العلاقة بينهما على أنها علاقة سببية ، فقد تصاغ اللغة أو تشكل من خلال الظروف البيئية والنظم الاجتماعية وأساليب التفكير السائدة ، وهذا لا يمنع من التأثير في التفكير رغم أنه لا يمكن القول أن دراسة اللغة في حد ذاتها يمكن أن تعين الخاصية العامة للتفكير لدى مستخدميها . ويرى بعضهم أن اللغة والتفكير مرتبطان تماما بالطفولة ، ولكن مع الارتقاء يصبح تفكير الراشدين متحررا من اللغة بطريقة ما ، فهناك فرق بين فكر الراشد وفكر الطفل، ففكر الأول فكر مكيف للمجتمع

(٢٢) انظر : د . حسن ظاظا : اللسان والانسان ص ٧٢ ، ٨٦ .

(٢٣) انظر : د . جمعة سيده يوسف : سيكلوجية اللغة ص ١٤٩

وان كان بمفرده ، وفكر الآخر فكر مركزي الذات وان كان **ف**
جماعة (٢٤) •

وهكذا تتباعد الاتجاهات وتختلف الآراء ، ويحتد الخلاف —
ولا يزال — بين العلماء وبخاصة علماء النفس ، وكل مدرسة تعالج
المشكلة من زاويتها الخاصة ، سواء على مستوى علم نفس الطفل ،
أو علم النفس الاجتماعي أو علم النفس التربوي ، وان دارت جهودهم
حول نقطة مركزية أساسية وهي تفسير السلوك الانساني في ضوء
النظريات التي يتوصل اليها العلماء من دراستهم للسلوك العام الذي
يدخل السلوك اللغوي في تكوينه •

وقد ظهرت — منذ القدم — صناعات تهتم بالتعبير أو الإفصاح
والعبارات ، وأخرى تهتم بالمعبر عنه أو الفكر ، على أن الصناعات
الفكرية لا تستغنى عن الصناعة اللفظية ولا تفهم دونها نظر لارتباطهما
على نحو ما قدمنا •

ويوقفنا الاخوان على جانب من تلك الصناعات حين قالوا :

« وأما علوم المنطق فهي نوعان : لغوي وفلسفي ، فاللغوي مثل
صناعة النحو ، والأصل المنطق عليه بين أهلها هو معرفتهم بالأسماء
والأفعال والحروف واعرابها من الرفع والنصب والخفض ، ومثل
صناعة الخطب التي الأصل فيها هو معرفة السجع والفصاحة وضرب
الأمثال والتشبيهات ، ومثل صناعة الشعر التي الأصل فيها معرفة
المقاييس والأسباب والأوتاد والحروف المتحركات والسواكن • فأما

(٢٤) انظر د. سيد غنيم : اللغة والفكر عند الطفل • عالم الفكر ،
المجلد ٢ ، العدد الاول ص ١١١ - ١١٤ ، د. جمعة سيف
يوسف : سيكلوجية اللغة ص ١٤٤ - ١٥٠ •

النظر في شروعاتها ومعرفتها المنزخحات منها والعويص وعللها فهم فيها متفاوتوا الدرجات بحسب نفوسهم وطول دربتهم وحوام رياضتهم .
وهكذا أيضا المنطق الحنفي هو فنون ثنتي ، منه صناعة البرهان ، ومنه صناعة الجدل ، ومنه صناعة السفسطائيين ، يعنى المغالطين .
فأما صناعة البرهان فإن الاصل المتفق عليه بين أهلها هو معرفتهم بمعانى الستة الفاظ (٢٥) التى فى ايساغوجى [كتاب التكميات لعور فوريوس البيروني] ، والعشرة (٢٦) التى فى كتاب قاطيغورياس . [كتاب المغولات لأرسطو] ، والعشرين كلمة (٢٧) التى فى باريميانيش . « كتاب العبارة لأرسطو » ، والسبعة (٢٨) التى فى أنولوطيقا « كتاب القياس لأرسطو » . فأما ما يتفرع من فنون المعانى وما يعرض فيها من غرائب المباحث فبحر عميق قد تاه فيه أفهام كثير من الناظرين فيها ، وتحيرت عقول كثير من الباحثين عنها لدقة المعانى لهذه الصناعة ، وعجيب أصولها ، وكثرة شروعاتها ، وبعد مرامى أهلها ، لأن من هذه

(٢٥) منها ثلاثة دالات على الصفات « المعانى » وهى الفصل والخاصة والعرض ، وثلاثة دالات على الموصوفات « الاعيان » وهى الشخص والنوع والجنس . انظر رسائل اخوان الصفا ج / .
(٢٦) وتلك الالفاظ التى تتضمن معانى الموجودات كلها - كما ذكر الفلاسفة - هى : الجوهر والكم والكيف والمضاف والالين ومتى والنسبة « الوضع » والملكة ويفعل وينفعل ويسمى بالحكماء والمناطق المغولات العشر . راجع : رسائل اخوان الصفا ج . ٤٠٤ / ١ - ٤١٣ .
(٢٧) وهى معرفة تلك الالفاظ السالفة الذكر وماتدل عليه من المعانى عند التركيب حتى تصدر كلمات وقضايا ويكون منها الصديق والكذب . راجع المرجع السابق ج ٤١٤ / ١ - ٤١٩ .
(٢٨) وهى معرفة كيفية ترتيب تلك الالفاظ السابقة مرة أخرى حتى يكون منها مقدمات ونتائج . راجع المرجع السابق ج ٤٢٠ / ١ - ٤٢٨ .
(٢٩) ٣ - اخوان الصفا

للصناعة تعرف أداب الفلسفة ، وأدب الحكم ، وميزان العقل ،
ومقاييس الحقائق التى تسمى البرهان » (٢٩) •

ويؤكد الأخوان حاجة المشتغل بتلك الصناعات الفكرية من برهان
وجدل وبرهان وسفسطة الى علوم اللغة من نحو وعروض وغير ذلك
حين قالوا :

« ولا يقرب على المتعلمين فهم علم المنطق الفلسفى ، ولا يسهل
تأمله على الناظرين دون معرفة علم المنطق اللغوى » (٣٠) •

واذا كان المتعلمون والمشتغلون بالصناعات الفكرية فى حاجة تنديدة
الى علوم اللغة بعامه فان حاجتهم الى علم النحو — بخاصة — أشد ،
كما ذكر الاخوان (٣١) •

ووصلت العلاقة بين الصناعتين : الفكرية واللفظية مدى بعيدا فى
عقول فلاسفة اليونان قديما ، فقد صاغ أرسطو ومن لحا نحوه قضايا
علم المنطق ومسائلة على نهج لعوى شبيه بكلام الناس ، اعتقادا منهم
أن أساليب اللغة ليست الا وسيلة للتعبير عما يدور فى الأذهان ، ومثل
الفكر الانسانى قبل النطق بهضمونه مثل الصورة الشمسية قبل
تحميمضها ، فاذا نولجت بقدر خاص من الأحماض اتضحت معالمها
وتكتشف خطوطها وملامحها • وهكذا شأن التعابير اللفظية مع العمليات
للذهنية لا يكاد يعدو مهمة التوضيح وإبراز المعالم والملامح للأذن
الانسانية » (٣٢) •

(٢٩) انظر المرجع السابق ج ٣ / ٤٣٦ - ٤٣٧

راجع النص المذكور فى صور هذا الفصل •

(٣٠) انظر المرجع السابق ج ١ / ٣٩٢ •

(٣١) انظر المرجع السابق ج ١ / ٤١٤ - ٤١٥ •

(٣٢) انظر د. ابراهيم أبس من اسرار اللغة ١٣٢ وما بعدها •

فهل يصلح المنطق أساساً للدراسة اللغوية ؟ وهل يمكن صياغ
اللغات في قوالب منطقيه مثل ما فعل فلاسفة اليونان بلغتهم قديماً ؟
وهل النحو ينبغي أن يطابق المنطق ؟ وما موقف الدراسة الحديثة من
هذه التساؤلات ؟ وما موقف العربية وعلماؤها من ذلك ؟

ان القول الفصل يحتاج الى بحث خاص ، وللمتعجل أن يرجع
إلى بعض ما كتب عن هذا الموضوع (٣٢) *

د. محمود السعران ، علم اللغة : مقدمة للقارئ العربي ٧٩ وما بعده ١٥٥
ط دار المعارف ١٩٦٢ م ، د. عبد الرحمن بدوي الصلة بين المنطقي
واللغة مجلة عالم الفكر المجلد ٥
(٣٣) العدد الاول ص ٦٥ - ٩٠ ، وكتابة : المنطق الصوري
والرياضي *

الفصل الثاني

نشأة اللغة

تعد نشأة اللغة قضية من القضايا اللغوية التي نالت أكبر حظ من اهتمام العلماء في القديم والحديث ، ولم يكن الاهتمام بها مقصورا على اللغويين ، وإنما شاركهم أيضا الفلاسفة وعلماء الاجتماع والكلام والمفسرون .

وعلى الرغم من تضافر جهود العلماء طيلة العصور المختلفة ، فإن أمر هذه القضية لم تقل فيه بعد التامة التي يبتغى بها منهج البحث ، وذلك أنه لم يقل رأى إلا تعقبه آخر يبطأه ، ووصل الأمر بهذه القضية الى وجوب اغلاق البحث فيها ، حيث قرر أعضاء الجمعية اللغوية (بباريس) عدم مناقشة هذا الموضوع في جلساتها ، وهو مانية عليه شر من قبلهم — فريق من علماء العربية ، ومنهم ابن السبكي حيث « قال في رفع الحاجب : الصحيح عندي أنه لا فائدة لهذه المسألة ، وهو ما صححه ابن الأثير وغيره » (١) .

وقد كان اخوان الصفا من بين الفلاسفة الذين استهواهم الخوض في هذا الموضوع ، فقد عقدوا فصلين في رسائلهم بعنوان « فصل في معرفة بداية الحروف » ، « فصل في معرفة أصل الصوت » . تناولوا فيهما نشأة اللغة بشقيها المنطوق والمكتوب .

(١) انظر : السيوطي : المزهري في علوم اللغة والنوعها ج ١/٢٦

تحقيق محمد احمد جاد المولى واخرين ط عيسى البابي الحلبي .

أولاً : نشأة اللغة المنطوقة :

أما عن نشأة اللغة المنطوقة فنراهم يقولون :

« اعلم أن الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام الذي هو أبو البشر ومبدؤه ، جعله ناطقا متكلما فصيحاً مميّزاً بالقوة الناطقة والروح الشريفة والقوة العاقلة القدسية ، وجعل صورته أحسن الصور ، وشكله أفضل الأشكال ، وطبيعته أصفى الطبائع الأرضية ، ومزاجه أعدل المزجة مما هو خارج عنه ، وجعله سيد الحيوانات كلها ، ومليكا عليها ، وأميراً ورئيساً فيها ، وملكه أياها ، وألزمها طاعته ، والسجود لها طوعاً وكرهاً ، فلما قال الله تعالى للملائكة « انى جاعل فى الأرض خليفة » ، فلما جعله بهذا المثل فليس من الحكمة أن يكون صامتا كالجهاد ، ولا سكوتا كالحيوان الذى لا ينطق ، بل قائما ، متكلما ، معلما ، مهيما ، عاقلا ، حكيما ، لأنه سبحانه وتعالى نبخ فيه من روح قدسه وآيده بكلمته وعاءه الأسماء كلها ، وصفات الأنبياء كلها ، وجعل له العقل العاقل لها والمحيط بمعرفتها ، وأخرج سائر الموجودات من المعادن والنبات والحيوان إليه ، ليديرها ويسوقه إليه منافعها ، ويذلها على ما يكون به صلاحها وببقاؤها وتزايدها ونماؤها وسلامتها من الآفات ، ويضع كل شئ منها فى موضعه ويوفيه نسطه من حفظ النظام وبلوغ النتمام ، وجمع له هذه الأشياء كلها صغيرها وكبيرها ، جليلها وحقيقها فى تسع علامات بأشكال مختلفة مسماة بأسماء قد جمعت أسماء جميع الموجودات ، وانعقدت بها المعانى كلها ، كما اجتمعت أجزاء الحساب كلها والأعداد بأسرها فى التسعة الأعداد التى من واحد الى تسعة ، وكذلك وجودها فى العالم العلوى على هذه النسبة ، وهذه الحروف هى التى علمها الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام ، وهى التى يستعملها أهل الهند على هذه الصفة (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠) »

وقد كان بهذه الحروف يعرف أسماء الأشياء كلها وصفاتها على ما هي عليه وبه موجودة من أشكالها وهيئاتها ، ولم يزل كذلك الى أن كثر أولاده وتكلم بالسريانية .. » (٢) •

ولما كثر أولاد آدم « تولى تعليمهم وتأديبهم وتهذيبهم ، وعلمهم كيفية الحرث والزرع وازدواج الذكور والاناث ، وعمروا العالم وعابثوا الحيوانات وما تضعه بعضها ببعض ، وما يطلب من منافعها ، فاقترحوا بها في أعمالهم ، وأيد الله تعالى آدم عليه السلام بوحيه والهامة لما تاب عليه بما يكون له به صلاح ، ولذريته فلاح ، وأقام على ذلك مدة ما أراد الله تعالى : ثم نقله الى رحمته وخلفه من خلفه في ذريته وأولاده ، ولم يزل الأمر كذلك وبنو آدم مع والدهم يتكلمون بالسريانية ، وقال بعضهم بالنبطية ، ويشهم بعضهم عن بعض المعاني وما قصدوا وأرادوا ، ووصفوا كل شيء بصفته إلا أنها لم تكن الحروف مجتمعة بعضها الى بعض ولا مؤلفة بالكتابة ، وانما كان آدم ، عليه السلام ، يعلمهم تلك الأسماء تلقينا وتعريفا ، كما يعلم الأشياء ويعرف من لا علم له بالكتابة والهاء ، ولذلك يقال لمن لا يكتب أمي ، وكان الخلق يحفظون تلك الأسماء والصفات عن السلف ... » (٣) •

والأخوان يبرهن — كما هو واضح من النصين — أن الله تعالى هو الذي ألهم آدم اللغة ولقنه أياها ، ومصدرهم في هذا قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » (٤) حيث يدل ظاهر الآية على أن اللغة هبة من الله •

(٢) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣ / ١٤١ - ١٤٢ •

(٣) نفس المرجع السابق ج ٣ / ١١٣ •

(٤) الآية ٣١ / البقرة •

ثم نراهم يزعمون أن الحروف الهندية (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩) هي التي عرف بها آدم أسماء الأشياء وصفاتها إلى أن تكلم بالسريانية أو القبطية ، بل يزعمون أن الحروف الهندية هي التي أخرجت مع آدم عليه السلام من الجنة (٥) ، في حين تذكر بعض المصادر العربية أن الله تعالى علم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات العربية والفارسية والسريانية والعبرانية والرومية وغير ذلك من سائر اللغات ، فكان آدم وولده يتكلمون بها إلى أن تفرق ولده في الدنيا ، وعلق كل واحد منهم بلغة من تلك اللغات فغلبت عليه واضمحلت عنه ما سواها لبعدهم عنها (٦) وتذكر بعض المصادر أيضا أن لغة العرب هي أول اللغات التي ألهمها الله آدم ، وكل لغة سواها حدثت بعدها إما توقيفا أو اصطلاحا ، مستدلة بأن القرآن كلام الله وهو عربي ، وهو دليل على أن لغة العرب أسبق اللغات وجودا (٧) ، وتذكر بعض المصادر أيضا أن اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة عربي إلى أن بعد العهد و طال حرف وصار سريانيا ، وكان يشاكل اللسان العربي إلا أنه محرف . وتذكر بعض المصادر أن لغة آدم في الجنة كانت العربية ، فلما عصى سلبه الله العربية فتكلم بالسريانية ، فلما تاب رد الله عليه العربية (٨) .

وبسواء أصبح هذا أم ذاك فإن مذهب الالوام هذا في نشأة اللغة لم يسلم به علماء كثيرون ، إذ نرى بعضهم يدل على أن الإنسان هو مصدر اللغة وهو واضعها وصانعها ووصل إليها بالاصطلاح والمواضعة،

(٥) انظر رسائل اخوان الصفا ج ٣ / ١٤٨

(٦) انظر : ابن جنى : الخصائص ج ١ / ٤١ ، والسيوطي : المزهري

ج ١ / ١١ .

(٧) انظر : السيوطي : المزهري ج ١ / ٢٨

(٨) انظر : المرجع السابق ج ٢ / ٣٠

ونرى بعضهم يدلل على أن الإنسان هو صانع اللغة ووصل إليها بالمحاكاة والتقليد لكل ما وقع على سمعه من أصوات الطبيعة والحيوانات والطيور والأحداث ، ونرى بعضهم يدلل على أن الإنسان الأول خلق مزودا بغريزة صار بوساطتها قادرا على التعبير عن الحركات النفسية والمنوية ... الى غير ذلك من الآراء والمذاهب (٩) *

ومن الخطأ الاصرار على رأى بعينه والتعصب له ، اذ لا يستبعد أن تكون اللغة بأشكالها المعقدة قد نشأت وتكونت عن تلك الروافد المتعددة والنفذيات المختلفة *

وحين رأى الاخوان أن الله خلق آدم وجعله ناطقا متكلما فصيحاً مميّزا بالقوة الناطقة والروح الشريفة والقوة العاقلة ، وجعل صورته أحسن الصور وشكله أفضل الأشكال ، وجعله سيد الحيوانات كلها ، ومليكا عليها ، أقول حين رأى الاخوان هذا منذ أكثر من ألف سنة كأنهم يريدون على أصحاب تلك النظرية الحديثة الخاصة بتطور الكائنات الحية جسمانيا وفكريا وعقليا ، حيث يزعمون أن الإنسان لا يعدو أن يكون

(٩) راجع ابن حنى : الخصائص ج٢ / ٤٠ - ٤٧ ، وابن فارس (٣٩٥هـ) : الصحاح ص ٦ - ٩ تحقيق السيد احمد صقر . طبعة عيسى البابي الحلبي ، السيوطي : المزهج ج١ / ٨ - ٣٠ ، د. عبد الله ربيع ، د. عبد العزيز علام : في فقه اللغة ص ٣٨ - ٥٥ ، د. عبد الغفار حلال : اللغة العربية اسمائها وخصائصها ص ١٧ - ٣٩ ، د. اتيقن فاخر . دراسات لغوية في الصحاح والخصائص والمزهج ص ٢٢ - ٣٦ الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م د. ابراهيم انيس : دلالة الألفاظ ص ١٣ - ٣٧ الطبعة الثالثة ١٩٧٦ م ، ماريو باي : لغات البشر : اصولها وطبيعتها وتطورها وتطورها ص ١٧ - ٢٠ ترجمة : د. صلاح العربي . نشر الجامعة الأمريكية بالقاهرة . نوفمبر ١٩٧٠ م

..تطورا ليرقى الأجنادس من الحيوان ، وأن لغة هذا الإنسان بدأت في صورة شهقات وتأوهات صدرت عنه بشكل غزوي لتعبر عن فرح أو دهشة أو غضب أو ألم ونحو ذلك من انفعالات قوية . وهم بذلك يربطون بين النشأة اللغوية للإنسان وبين تلك الأصوات الغريزية والانفعالية ، وجعلها الأساس الأول الذي منه استمدت اللغة الانسانية نشأتها .

وقد فأت على هؤلاء المنادين بهذه النظرية أن تلك الأصوات أصوات فجائية منعزلة عن الكلام الذي يصدر عن المرء بصورة ارادية، فليست تصدر عن المرء الا حين يعييه القول أو يأبى الكلام ، بالإضافة الى أنها تشتمل على عناصر صوتية لا تكاد تسمع في لغات البشر (١٠) .

ويعين رأى الاخوان أن الله خلق آدم وجعله ناطقا متكلما فصيحاً مميّزا بالثروة الناطقة « وليس من الحكمة أن يكون صامتاً كالجماد ، ولا سبوتا كالحيوان الذى لا ينطق ، بل قائماً متكلماً مفهما عاقلاً حكيماً ، لأنه سبحانه وتعالى نفخ فيه من روحه وأيده بكلمته » ، أقول حين رأى الاخوان هذا كأنهم يردون على تلك النظريات الحديثة التى تفترض أن الإنسان الأول ظل صامتاً فترة من الزمن قبل أن تنشأ لغته ثم نطق بأصوات كأصوات لغتنا وأدت عضلات نطقه وظيفتها أداءاً كاملاً (١١) .

واذا كان الاخوان أن اللغة نشأت وحيا والهاما فانهم يرون — مع ذلك — أن للكواكب والأفلاك أثرها في تلك النشأة ، اذ يقولون :

« ألهم الله تعالى عطرده صاحب المنطق النطق ، ونطقت حواء وعلم الله آدم الأسماء كلها ، فصار يعرفها ويلقى على كل جنس وشكل ونوع

(١٠) انظر : د. ابراهيم انيس : دلالة الالفاظ ص ٢٣ .

(١١) انظر المرجع السابق ص ٢٠ — ٢٧

وشخص من النبات والمعادن والحيوان وجميع المراتيات الأسماء والصفات » (١٢) •

وهذه الرؤية نابعة من اعتقادهم في الكواكب وإيمانهم بتأثيرها في كل الكائنات التي دون فلك القمر ، وسوف يتضح لنا بطلان هذا الاعتقاد في الفصل القادم ان شاء الله •

ثانيا : اللغة المكتوبة :

لقد تحدث الاخوان عن نشأتها ، وأصل خطوطها ، ومقاييس جودتها ، وفضائلها :

(١) أما عن نشأة اللغة المكتوبة فقد تعرض لها الاخوان حين قالوا :

« وتشكل الفلك بشكل أوجب التغير والاستحالة بعد مضي آدم عليه السلام ، ولم يكن يكتب في زمانه كتابات أو يخط بقلم ، وإنما كان تلقين بالفاظ وكلام يحفظ لقلّة العدد ، ولأنه ما كان في الأرض من العالم الانساني أكثر من بيت واحد ، والكلام شيئا يحتاجون اليه فقط ، ولم يكن لهم حديث فيما مضى ولا حاجة بهم اليه ولا بغية من آثار من كان قبلهم في كتاب ولا طومار (١٣) ، ولأن كلام الملائكة لا يكتب في الأجسام الطبيعية ، وإنما هيولاها (١٤) الجواهر النفسانية ، وكما أن الناس في

(١٢) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣ / ١١٢

(١٣) أى صحيفة • انظر : ابن منظور : لسان العرب « طبر » •

(١٤) الهيولى بضم مخففة أو مشددة هو كل جوهر قابل للصورة •

انظر رسائل اخوان الصفا ج ٢ / ٦ ، أو بعبارة أخرى هو مادة ليس لها شكل ولاصورة معينة قابلة للتشكيل والتصوير في شتى الصور ، وهي التي صنع الله تعالى منها اجزاء العالم المادية كما يرى القدماء • انظر المعجم الوسيط ج ٢ / ١٠٠٤ (هال) • الطبعة الثانية • دار المعارف • ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م •

هذا الوقت لا يحتاج الرجل منهم هو وأهل بيته أن يكتب جميع ما يحتاجون اليه ولا أن يثبتوا جميع ما في بيوتهم من كتاب يذكرون فيه كل ما عندهم من مأكول ومشروب وما ينتفع به ، وإنما حاجتهم الى علم أسماء ذلك ، فهم يعلمون ذلك أولادهم حتى يعرفوه وينشأوا عليه بأى لفظ كان . ثم ذهب السلف وبقي الخلف ، ونهروا في الأقاليم وتقطعوا في الأرض وذهبوا في الأطراف ، فأوجبت الحكمة الالهية والعناية الربانية تقييد تلك الأسماء والألفاظ والحروف بصناعة الكتابة ، ولولا ذلك لبعد من الخلف ما كان يستعمل السالف من التي كانت حاجتهم اليها ، ولما كان اللسان يحيل بينهم وبين ما يحتاجون اليه من ذلك بالكذب ، وكانوا لا يعلمون أخبار من كان معهم في الأرض اذا غابوا عنهم بالمكان ، لأن الرسول لا يمكنه حفظ جميع ما في قلب مرسله ، فلما كان ذلك كذلك أظهر الله تعالى صناعة الكتابة فزادوا فيها وعرفوها ومهروا فيها وألفوها واعتادوها ، وبعث الله فيهم من الأنبياء عليهم السلام ، وأقام فيهم من الحكماء من أظهر فيهم الصنائع ، وكثرت بينهم الصنائع والمتعلمون والعلماء والأستاذون ، وعمرت الأرض وانتقلت أخبار بعضهم الى بعض *** » (١٥) .

وهكذا يرى الاخوان أنه لم يكن في عهد آدم ما يدعو الى تسجيل اللغة وكتابتها ولم تكن هناك حاجة الى ذلك لقلة عداد أبنائه ، ولم تكن لهم بغية من آثار من كان قبلهم في كتاب ولا صحيفة ، « وكان آدم يحفظ أسماء الحروف ويتكلم باللفظ وينطق بالاعنى ويدل عليه ولم يخط بيده بقلم ما شاء الله ، بقى على ذلك الى أن أظهر الله تعالى صناعة الكتابة في الوقت الذي قدره والزمان الذي يسره ، والخلق لا تدري »

بصناعة الكتابة لطفاً منه بخلقه ورأفة بعباده » (١٦) ، وكان أولاد آدم يعلمون أبناءهم أسماء ما يأكلون وما يشربون وما ينفعون به عن طريق نقلين اللفاظ وحفظ الكلام .

وإذا كان الاخوان يرون أن الكتابة لم تعرف في عهد آدم فإن بعض المصادر الغربية تذكر أن آدم هو أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها ، قبل موته بثلاثمائة سنة ، كتبها في طين وطبخه ، فلما أصاب الأرض العرق وجد كل قوم كتاباً فكتبوه ، فأصاب لسماعيل عليه السلام الكتاب العربي (١٧) .

ويذكر الاخوان أسباب كتابة اللغة وتسجيلها ، ويمكن حصرها في ثلاثة :

١ - حاجة بنى آدم الى ذلك بعد كثرتهم في الأرض وتفرقتهم فيها وذهابهم في أطرافها ، فأوجبت الحكمة الالهية تسجيل اللغة بالكتابة حتى تتواصل الأجيال ، السابق منها باللاحق ، « ولولا ذلك لبعد من الخلف ما كان يستعمل السلف من الذى كانت حاجتهم اليها » ، وحتى يتواصل أبناء الجيل الواحد في أرض الله الواسعة ، وينتقل أخبار بعضهم الى بعض « وكانوا لا يعلمون أخبار من كان معهم في الأرض إذا غابوا عنهم بالمكان ، لأن الرسول لا يمكنه حفظ جميع ما في قلب مرسله » ، ومن ثم يتطرق النسيان الى ذاكرته ، أو الكذب على لسانه .

وهذا العامل له ما يؤيده في الدراسة الحديثة ، إذ الانسان « قضى قروناً متطاولة يأكل ويشرب ويلبس وينام ويتكلم ولكنه لا يكتب ،

(١٦) انظر المرجع السابق ج ٣ / ١٥١

(١٧) انظر : ابن فارس الصحاح ص ١١ ، والسيوطي : الزهر

ج ٢ / ٣٤١ .

فما لبث أن تكاثر وتآلف واتسعت علاقاته وعكف على الأسفار التماساً للرزق حتى اضطر إلى الكتابة لمخابرة جاره أو تدوين حوادث أمسه أو تقييد ملاحظاته وآثاره « (١٨) » .

٢ - قصر اللغة المنطوقة، وعدم دوامها، «لأن الأصوات لا تمكث في الهواء زماناً طويلاً إلا ريثماً تأخذ المسامع حظها من الطنين، ثم تضمحل تلك الأصوات من الهواء الحامل لها المؤدى إلى المسامع» (١٩)، «ولما كانت الأصوات لا تمكث في الهواء إلا ريثماً تأخذ الأسماع حظها ثم تضمحل اقتضت الحكمة الإلاهية والعناية الربانية، واحتالت الطبيعة بأن قيدت تلك الألفاظ بصناعة الكتابة» (٢٠) .

وإذا صرفنا النظر عما يثار الآن في الدراسة الفيزيائية الصوتية من أن الذبذبات الصوتية لا تفنى أو أن الحسوت لا يضمحل، فإن اللغة المكتوبة تميزت عن اللغة المنطوقة فترة طويلة من الزمن إلى بداية القرن الحالى بامكان انتقالها من مكان إلى آخر وعبر مسافات بعيدة، وبثباتها حيث لا تتعرض للتغيير المستمر الذى يصيب اللغة المنطوقة وهن ثم أمكن تسجيلها ونقلها عبر أجيال متعاقبة من البشر .

وقد تضاعفت هاتان الميزتان للغة المكتوبة حين ابتكرت وانتشرت الأجهزة التى سجلت الأصوات ونقلتها من مكان إلى آخر عبر مسافات بعيدة، مكال الاسطوانات، والمسجلات الصوتية، والهاتف (التليفون)، والبرق (التلغراف)، والمذياع (الراديو)، والتلفاز (التليفزيون)،

(١٨) انظر جرجى زيدان : الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية ص ١٦٠
مراجعة وتعليق مرجع د. مراد كامل . ط دار الهلال
(١٩) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١ / ٢٠١
(٢٠) انظر : المرجع السابق ج ٢ / ٤٧٢

والأفلام الناطقة ، وهو الأمر الذي أدى الى قيام جدل عنيف في البلدان الغربية حول الكتابة وأهميتها ، حيث ظل البعض من أهميتها ورأى أنها لا تمثل لغة الحديث ، وأنه لا يحق تسميتها لغة ، ودعا الى اهمال قواعد النحو المبينة على لغة الكتابة لأنها غير عملية . وقد ظهرت آثار ذلك في اهمال تدريس الهجاء وعلامات الترفيم والأصول النحوية في مدارس الغرب ، وظهرت آثار ذلك أيضا في اعراض الجيل الجديد عن القراءة والكتابة (٢١) .

ومع قرب انتهاء هذا القرن — وقد أوشك على الرحيل — هيا الله للكتابة أن تحتفظ بمكانتها حين ابتكرت الأجهزة الناقلة للكتابة عبر الهواء (٢٢) ، والأجهزة التي تصور اللغة المكتوبة بسهولة وسرعة .

٣ — أما السبب الثالث في ظهور الكتابة فهو سبب فلكي ، وهو نابع من اعتقاد الاخوان في الكواكب والأفلاك وأنها سبب الكائنات بلاذن الله » (٢٣) . يتضح هذا السبب فيما نقلناه آنفا عن الاخوان : « وتشكل الفلك بشكل أوجب التغير والاستحالة بعد مضي آدم عليه السلام . . . » .

ويتضح أيضا في قولهم :

« أن آدم عليه السلام يعلم « بنيه » تلك الأسماء تلقينا وتعريفا ، كما يعلم الأشياء ويعرف من لا علم له بالكتابة والهجاء . . . وكان الخلق يحفظون تلك الاسماء والصفات عن السلف ، الى أن سلم

(٢١) انظر : ماريوباي : لغات البشر ص ١١٣ - ١١٤ .

(٢٢) من تلك الاجهزة ما يسمى « فاكسميل » حيث ينقل ما يشاء المرء من رسائل مكتوبة بخطية حدود الزمان والمكان .

(٢٣) انظر رسائل اخوان الصفا ج ٢ / ١٤٤

الدور التور الى الجوزاء ، وظهرت الكتابة من أجل أنه بيت عطار
وشرف الرأس وهبوط الذنب ... » (٢٤) .

وسوف يتضح لنا بطلان هذا الاعتقاد حين نتحدث عنه في الفصل
القادم الخاص بتطور اللغة ان شاء الله .

واذا تأملنا فيما نقلناه عن الاخوان نرى أنهم يقولون : « أوجبت
الحكمة الإلهية والعناية الربانية تقييد تلك الأسماء والألفاظ والحروف
بصناعة الكتابة » ويقولون : « أظهر الله تعالى صناعة الكتابة في الوقت
الذي قدره والزمان الذي يسره » ، فهل هذا يشعر أن الكتابة حين
ظورت كانت بالهام الله وتلقيه ؟ أم أن الكتابة — على ما يقال — كانت
مواضعة واصطلاحاً ؟

يظهر لنا أن الاخوان يرون أن الكتابة انما نشأت بتأييد الله
والهامه ، ويؤيد ما نستشعره أنهم يرون أن تغير اللغة وتطورها يتم
بالهام الله تعالى للفرد (نبي أو حكيم) وتأييده ، ثم يعمم ويصبح
اجتماعياً عن طريق الاصطلاح والمحاكاة كما سيتضح في أثناء حديثنا
عن الفصل الثالث الخاص بتطور اللغة .

وقد أيد القول بتوقيفه اللغة علماء كثيرون يقول ابن فارس :
« ان الخط توفيق ، وذلك لظاهر قوله عز وجل : « اقرأ باسم ربك
الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذي علم
بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » (٢٥) ، وقال جك ثناؤه : « ن والقلم
وما يسطرون » (٢٦) ، وإذا كان كذا فليس ببعيد أن يوقف آدم عليه السلام

(٢٤) انظر : المرجع السابق ج٣/١١٣

(٢٥) الآيات ١ - ٥ العلق

(٢٦) الآيتان ١ - ٢ القلم .

أو غيره من الأنبياء عليهم السلام على الكتاب ، فأما أن يكون مخترع
اخترعه من تلقاء نفسه فشيء لا تعلم صحته إلا من خبر صحيح » (٢٧)
وقال السيوطي : « يؤيد ما قاله من التوفيق ما أخرجه بن أثمة
من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أول كتاب أنزله الله من
السماء أبو جاد • وأخرج الامام احمد بن حنبل عن أبي ذر النبسي
رضي الله عنه قال : أول من خط بالقلم ادريس عليه السلام » (٢٨) •

ويرى علماء آخرون أن الكتابة ليست توفيقية من الله . وإنما
هي تواضع واصطلاح بحكم الاجتماع والتمدن •

ومن هؤلاء العلماء ابن خلدون ، فقد عقد فصلا في مقدمته للخط
والكتابة رأى فيه أن الخط من جملة الصنائع المدنية المعيشية . إذ
يقول :

« وخروجنا في الانسان من القوة الى الفعل انما يتكون بالتعليم،
وعلى قدر الاجتماع والعمران والتناغم في الاتصالات والطلب لذلك
تكون جودة الخط في المدنية ، إذ هو من جملة الصنائع . وقد قدمنا ان
هذا شأنها ، وأنها تابعة للعمران ، ولهذا نجد أذثر البدو أسيين لا
يكتبون ولا يقرأون ، ومن قرأ منهم أو كتب فينبون خطه قاصرا . أو
قراءته غير نافذة » (٢٩) •

(٢٧) انظر : الصباحية ص ٦٠ ، والسيوطي : الزمر ج ٢ / ٣ : ٢

(٢٨) انظر : الزمر ج ٢ / ٣٤٣ ، ٣٥٢

(٢٩) انظر : المقدمة ٤١٧ - ٤١٨ • الطبعة الرابعة ١٣٦٨ هـ /

١٩٧٨ م •

٥ - أصل الخطوط (الرموز الكتابية) :

أرجع اخوان الصفا خطوط اللغات كلها الى خطين : المستقيم الذى هو قطر الدائرة ، وهو الألف ، والثانى : القوس الذى هو محيط الدائرة وهو الباء ، يقولون :

« اعلم أن أصل هذه الحروف كلها ، والخطوط بأجمعها خطان لا ثالث لهما ومن بينهما وعنهما تركبت هذه الحروف حتى بلغت نهايتها - كحدوث العالم كلهم من الشخصين اللذين هما آدم وحواء عليهما السلام ، وكذلك العالم بأسره ، السموات ومن فيها ، والأرض ومن عليها من جوهرين وهما السابق والتالى ، أو البسيط والمركب ، وهما العقل والنفس ، والله تعالى مبدعهما ، وهو الواحد المنزه عن جميع ما حدث منهما ، المتعالى لكبريائه عنهما وذلك من الخط المستقيم الذى هو قطر الدائرة والخط المقوس الذى هو محيطها فأول الحروف هو الخط المستقيم الذى هو الألف ، والثانى الباء ، وبازائه فى العالم العلوى السابق وهو العقل ، والتام هو النفس ، وذلك أن النفس مرتبة تحت العقل ، ومن بينها كان حدوث الأشياء كلها فى العالم السفلى مثل آدم وحواء ، فهما الأبوان الذكر والأنثى ، والأنثى مرتبة تحت الذكر ، ومن بينها كان العالم ، وكذلك الحيوانات كلها وأشكال النبات لا تخرج عن هذا الحد والشكل ، وصورة الانسان شبيه الخط المستقيم ، وصورة الحيوانات شبيه الخط المقوس ، والنبات والحيوان مرتبان تحت الانسان ، وهكذا عالم الإنس والجن السموات أشكالها مستقيمة وصورها كاملة ، فهم الخدا المستقيم ، وما دون ذلك القمر بمنزلة الخط المموج ، وهكذا يوجد فى الأعداد النفسائىة من الواحد والاثنين ،

(٤ - أخوان الصفا)

فما لو اُحد كالخط المستقيم ، والاثنان كالمعوج ، وهما أصل الأعداد
ينبوعها ، وعنهما يكون تزايدها ونماؤها « (٣٠) » .

وقد ضربوا لذلك مثالا بالخط العربى كما سنذكره فى أثناء
الحديث عن اللغة العربية ان شاء الله .

ويتضح من النص أن الاخوان يربطون بين أصل الخطوط
وصورها وبين عالم الكواكب ، وهذا نابغ من اعتقادهم المزعوم فى
الأملاك ، والايمان بتأثيرها ، وسوف يتبين لنا بطلان هذا الاعتقاد فى
الفصل القادم .

وقد عقدوا فصلا لأنواع الخط وصورة كل نوع ، ورسوموا صورة
الخط المستقيم هكذا [—] ، والمقوس هكذا [()] ، والمنحنى المركب
منهما هكذا [∩] (٣١) .

(ج) مقياس الخط الجيد :

يرى الاخوان أن أجود الخطوط وأصح الكتابات وأتمها وأحسنها
وأحسن المؤلفات ما كانت على النسبة الفاضلة فى وضعها ومقادير
حروفها بعضها من بعض ، وما توجبها قوانين الهندسة ، اذ ينبغي لمن
يريد أن يكون خطه جيدا ، وكتابه صحيحا أن يجعل لها أصلا يبنى
عليه حروفه وقانونا يقيس عليه خطوطه « (٣٢) » .

وقد مثلوا لذلك بالكتابة العربية كما سنذكره فى الفصل الخاص
باللغة العربية ان شاء الله .

(٣٠) النظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣ / ١٤٤ - ١٤٥

(٣١) انظر : المرجع السابق ج ١ / ٨١

(٣٢) انظر : المرجع السابق ج ١ / ٢٢٠ ، ج ٣ / ٢٤٥ .

وقد رأى الاخوان أن الكتابة قد تخضع للعرف ولا تتقيد بالقوانين الهندسية والنسبة الفاضلة « بحسب موضوعاتهم ومرضيائهم واختياراتهم دون غيرها وبحسب طول الدربة وجريان العادة فيها » (٣٣) •

وقد أوضح الاخوان كيفية صور الحروف وتخطيط أشكالها وكيفية تركيبها بعضها مع بعض على ما يوجبه القياس والقانون بطريق الهندسة ، في قولهم :

« اعلم يا أخي أيديك الله وإيانا بروح منه أن صور حروف الكتابات حثيرة الفنون مختلفه الأنواع . كما تقدم ذكرها ، وهي بحسب موضوعات الحكماء من الكتاب واختياراتهم لها وتواطؤهم عليها ، يطول ذكر علة ذلك وشرحه ، ولكن نذكر قولاً مجملاً مختصراً في ثلاث حلقات بحسب ما توجبه قوانين الهندسة والقياسات الفلسفية كما أوصى المحرر الحاذق المهندس ، فقال : ينبغي أن تكون صور الحروف كلها نأى أمه كانت ، في أى لغة كانت ، وبأى أقلام خطت الى التقويس والانحناء ما هو الألف التى فى كتابة العربية ، وأن يكون غلط الحروف الى الانحراف ما هو ، وأن يكون عند التركيب الزوايا كلها حادة ، والى التدوير ما هو . فهذا ما قاله أهل الصناعة فى تقدير هذه الحروف ومناسبتها مفردة مفردة ، فأما عند التركيب والتأليف فربما تختلف وتتغير لعل يطول شرحها ، ولكن يجب على المحرر عند تأليفه للخط الترفيف عليها . فقد تبين اذا بما ذكرنا أن أحكم المصنفات وأتقن المركبات وأحسن المؤلفات ما كان تركيب بنيتها وتأليفه أجده على النسبة الأفضل ، والنسب الفاضلة هى المثل ، والمثل والنصف ، والمثل والثالث ، والمثل والرابع ، والمثل والثلث » (٣٤) •

(٣٣) انظر : المرجع السابق ج ١ / ٢٢١ •
(٣٤) انظر : المرجع السابق ج ١ / ٢٢٢ ، ٢٥٢ •

وقد طبقوا تلك النسب على الكتابة العربية كما سيذكر في حينه .
وقد ربط ابن خلدون بين جودة الخط وقيامه على القوانين الهندسية وبين الاجتماع وكثرة العلماء ، مؤكدا ضرورة تدريب المتعلم على تلك القوانين ، حين قال :

« ونجد تعليم الخط في الأمصار الخارج عمرانها عن الحد أبلى وأحسن وأسهل طريقا لاستحكام الصنعة فيها ، كما يحكى لنا عن مصر لهذا العهد ، وأن بها معلمين منتصبين لتعليم الخط ، يلتقون على المتعلم قوانين وأحكاما في وضع كل حرف ، ويزيدون الى ذلك المباشرة بتعليم وضعه فتعتمد لديه رتبة العلم والحس في التعليم ، وتأتى ملكته على أتم الوجوه ، وإنما أتى هذا من كمال الصنائع ووفورها بكثرة العمران ، وانفساح الأعمال » (٣٥) .

وسوف نلقى الضوء على جودة الخط العربى وتصور الاخوان لها في أثناء الحديث عن اللغة العربية .

« د) فضائل الكتابة وخطوطها :

لكتابة اللغة ورسمها في حياة اللغة ونهضتها وفي حياة الناطقين آثار تجل عن الحصر .

١ - فبفضل الكتابة تحصل العلوم والمعارف ، وتفهم بها معانى الكلام واللائحات ، يقول الاخوان :

« ان الله لما خلق الانسان الذى هو آدم أبو البشر عليه السلام وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا ، جعل احدى فضائله كثرة العلوم .

وغرائب المعارف ، وجعل له اليها عدة طرق ، فمنها طرق الحواس الخمس التي بها يحرك الأمور الحاضرة في المكان والزمان ، ومنها طريق استماع الأخبار التي ينفرد بها الإنسان دون سائر الحيوانات يفهم بها الأمور الغائبة عنه بالزمان والمكان جميعا كما ذكر الله تعالى ومن به عليه فقال : « خلق الإنسان علمه البيان » ومنها طريق الكتابة والقراءة ، يفهم بها الإنسان معاني الكلام واللغات والآداب بالنظر فيهما عن لم يره من أبناء جنسه مع الزمان ، أو من هو غائب عنه بالمكان ، كما قال الله ومن به على الإنسان فقال لنبيه محمد ﷺ : « اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » وبهذه الفضيلة شارك الإنسان الملائكة الكرام ، كما قال الله تعالى : « وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون » (٣٦) .

٢ - وبفضلها يحفظ العلم عبر الزمان وينتقل عبر الأجيال : « وذلك أن القوة الصانعة (٣٧) اذا أرادت تقييد (اللفاظ) صاغت لها صورة من الخطوط بالقلم وأودعتها وجوه الألوان وبطون الطوامير ، ليبقى العلم مفيدا فائدة من الماضين للغابرين ، وأثرا من الأولين للآخرين ، وخطابا من الغائبين للحاضرين ، وهذا من جسيم نعم الله تعالى على الإنسان كما ذكر في كتابه فقال : « اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » (٣٨) .

٣ - وبفضل صناعة الكتابة التي تعد أشرف الصنائع « يفتخر الوزراء والكتاب وأهل الأدب في مجالس الملوك مع كثرة أنواعها وفنون

(٣٦) انظر رسائل اخوان الصفا ج ٣ / ٤١٤

(٣٧) ومجراها في اليدنين والاصابع كما سيأتي في الفصل

الرابع .

(٣٨) انظر المرجع السابق ج ٢ / ٤٧٢

فروعها وما اختلف فيه الأمم من اللغات وأشكال الكتابات وفنون.
التأليفات ... » (٣٩) .

وقد أكد ابن خلدون هذه الفضائل حين قال :

وهو (أى الخط) رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات .
المسموعة الدالة على ما فى النفس ، فهو ثانى رتبة من الدلالة اللغوية ،
وهو صناعة شريفة ، اذ الكتابة من خواص الانسان التى يميز بها عن
الحيوان ، وأيضا فهى تطلع على ما فى الضمائر وتتأدى بها الأغراض .
الى البلاد البعيدة فتقضى الحاجات وقد دفعت مؤنه المباشرة لها ،
ويطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الأولين وما كتبوه من علومهم
وأخبارهم فهى شريفة بهذه الوجوه والمنافع » (٤٠) .

وقد رأى ابن خلدون — بالاضافة الى ما تقدم — أن صناعة
الكتابة أكثر الصنائع التى تكسب صاحبها زيادة عقل لاشتغالها على
العلوم والأنظار ، وقد بين ذلك فى قوله :

« وبيناه أن فى الكتابة انتقالا من الضروف الخطية الى
الكلمات اللفظية فى الخيال ومن الكلمات اللفظية فى الخيال
الى المعانى التى فى النفس ذلك دائما ، فيحصل لها ملكة
الانتقال من الأدلة الى المحاولات وهو معنى النظر العقلى الذى
يكسب العاوم المجردة فيكسب بذلك ملكة من التعلل تكون زيادة عقل .
ويحصل به قمة فطنة وتيسر فى الأمور لما تعودوه من ذلك الانتقال ،
ولذلك قال كسرى فى كتابه لما رآهم بتلك الفطنة والكيس فقال :

(٣٩) انظر المرجع السابق ج٣ / ١٤٨

(٤٠) انظر المقيسة ص ٤١٧

ديوانه ، أى شياطين وجنون ، قالوا وذلك أصل اشتقاق الديوان لأهل
الكتابة » (٤١) •

وقد نقل السيوطى من فضائل الكتابة والخط : أقوالا عديدة ،
مثلها قوله :

« وهو لحة الضمير ، ووحى الفكر ، وسفير العقل ، ومستودع
السر ، وحيد العلوم والحكم وعنوان المعارف وترجمان الهمم » •

وقوله :

« وأقسم بالقلم فى الكتاب الكريم ، وأحسن عدى حيث شبه به
قرن الريم :

ترجى أغن كأن ابرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها
وهو أمضى بين الكاتب من السيف بيد الكمى ، وقد أصاب ابن
الرومى فى قوله شاملة الرمى :

كذا قضى الله للأقلام اذ برئت أن السيوف لها مذ أرهفت خدعم

وكان المأمون يقول : لله در القلم كيف يحوك وش المملكة ا ووصفه
عبدالله بن المعتز فقال : يخدم الارادة ، ولا يمل الاستراة ، فيسكت واقفان
وينطق سائرا على أرض بياضها مظلم وسوادها مضى • وقال أرسطو
هتلبيس : عقول الرجال تحت أسنان أقلامها » (٤٢) •

(٤١) انظر المرجع السابق ص ٤٢٩

(٤٢) انظر المزهر ج ٢ / ٣٥١ - ٣٥٢ • وراجع : ابن السكيت :

الفهرست ١٢ ، ١٣ تحقيق : رضا تجدد • ط طهران والقاقيسندى :

صنح الاعشى ج ٣ / ٢٤ - ٢٦ المطبعة الاميرية ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ م •

الفصل الثالث

تطور اللغة

من الأمور البديهية أن اللغة كائن حي ، تحيا على ألسنة المتكلمين بها ، ولذلك تتطور وتتغير بفعل الزمن كما يتطور الكائن الحي ويتغير ، وهي تخضع لما يخضع له الكائن الحي في نشأته ونموه وتطوره ، فليست اللغة من صنع فرد أم أفراد ، وإنما هي نتيجة حتمية للحياة في المجتمع ، وتستمد كيانه منه ومن عاداته وتقاليده وسلوك أفراد ، وتتطور بتطور هذا المجتمع فترقى برقيه وتنحط بانحطاطه .

والسؤال يقتضى أن نسأل : ما الأسباب التى تؤدى الى تطور اللغة ؟ بشقيها المنطوق والمكتوب ؟

ونجيب على هذين التساؤلين في ضوء فكر اخوان الصفا والمحدثين :

أولاً : أسباب تطور اللغة :

أضح بين القاريء أولاً النصوص التى ساقها اخوان الصفا ثم استنتج منها تلك الأسباب وأناقشها . يقول الاخوان :

« اعلم أن صناعة الكتابة ذات طرفين : طرف كانه البدايه ، وطرف كانه النهايه ، فالطرف الأول هو الكلام والنطق بالحروف التسعة التى يستعملها أهل الهند الى وقتنا هذا . والطرف الآخر الذى هو النهايه ، فهى الحروف الثمانية والعشرون التى هى حروف اللغة العربية ، وما سوى ذلك فهو بين هذين الطرفين ، وإنما مثل الحروف

كمثل شجرة نبئت وتفرعت وتفرقت فروعها ، وكثرت أوراقها وثمارها ،
وتقسمها الأقوام ، فأخذ كل قوم بحسب ما اتفق لهم في أصول
مواليدهم ، وبحسب اجتهاد رئيسهم وما أعمل فيه فكرته وانتجته
هريحته وأوجبته رويته بتأييد ربه تعالى والهامة ، فيأخذ صور
هذه الحروف فيلقى عاينها أسماء من ذاته ، فان كان حكيما فبتأييد
الله له والهامة ، وان كان نبيا مرسلًا كان يوحى الله اليه وكلامه من
 وراء حجاب عظمتة ، أو بوحيه على السنة ملائكته ، ويقيدها بصورة
أخرى من الكتابة وينطق بلغة أخرى غير اللغة الأولى ، وينسخ
الأسماء من اللغة الأولى الى اللغة الثانية ، فاذا تم ذلك له ونطق به
وأكمل الصناعة النطقية وتقيدها بحروف الكتابة وضم الأشكال الى
أشكالها والخطوط الى أمثالها ثم عرفها أقرب الناس اليه وأكرمهم
لديه فيصالح عاينها هو وأهل بيته وعشيرته ثم أهل مدينته وبعد ذلك
أهل بقعته ثم أهل إقليمه، ثم تنتشر في العالم فينتسأ بمليها الصغرى ويأنس
بها الكبير من تلك الأمة وينقل الشريعة والملة من اللغة الأولى الى
الثانية ويحدد الأحكام والأوامر والنواهي والصلاة وأحكام الشريعة
الى تلك اللغة التي نطق بها والأمة التي أرسل اليها » (١) .

وكل حكيمن الحكماء أو ملك من الملوك اذا أراد نقل علم أو
حكمة أو دين أو شريعة من لغة الى لغة ، أو من أمة الى أمة ، فانه
يتهيأ ذلك له بتوفيق الله تعالى وموجب مولده وسعادته ، حتى يتمكن
من ذلك ويصدر عليه مثل ما فعل سليمان عليه السلام لما آتاه الله الملك
وجعل له القوة والقدرة كيف نقل العلوم والحكمة من جميع اللغات حين
تقهر ملوكها وذلك رؤساها الى اللغة العبرانية . وكذلك فعل ملك الروم فانه
لما غلب اليونان وقهرهم نقل علومهم وحكمهم من اللغة اليونانية الى

(١) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣ / ١٤٩ - ١٥٠

اللغة الرومية، وكذلك فعل ملوك يونان بمن غلبوا عليهم فلذلك اختلفت اللغات وتباينت الآراء والديانات، وكان ذلك لعل لأسباب يطول شرحها، وكل ذلك بأمور فلكية وأحكام سماوية ومشية الإلهية، وذلك تقدير العزيز العليم « (١) » .

ويقول الاخوان :

« اعلم أن أصل الاختلاف في اللغات إنما هو لما كثرت أولاد بنى آدم ، وانتشروا في جهات الأرض، ونزلت كل طائفة منهم اقليما من اقليمتها وقطرا من أقطارها من الربع المسكون ، تولى كل قوم في وقت نزولهم ذلك الاقليم كوكب من الكواكب السبعة المدبرات فتعقد لهم عقدا نشأ عليه صخيرهم ومات عليه كبيرهم » (٣) .

ويقول الاخوان :

« ما العلة في اختلاف لغات الناس وألوانهم وأخلاقهم وصورهم، وكلهم أبوهم واحد ؟ فنقول : اختلاف أماكن أبادانهم وألوانهم واختلاف تربتها وتغيراتها أهويتها وطوالع البروج عليها ، ومسامات الكواكب وفنون آرائهم مع كثرة العداوة منهم في ذلك لكيما يدعوهم الى، استخراج فنون العلم والاجتهاد في تهذيب النفس أو الانتباه من نوم الغفلة والخروج من ظلمات الجهالة والبلوغ الى التمام والكمال، والبقاء على أتم الأحوال ما أمكن واستوى ، وأيضا لما حكم على نفوس الحيوانات كلها بالموت لتنتقل الى حالة هي أتم وأكمل وأفضل » (٣) .

(١) انظر : رسائل اخوان الصفا ج٣ / ٢٤٩ - ٢٥٠ وراجع :

الرسالة الجامعة ج١ / ٥٢٦ .

(٢) انظر : رسائل اخوان الصفا ج٣ / ٢١٥ .

(٣) انظر المرجع السابق ج٣ / ٣٧٦ .

ويقول الاخوان :

« اعلم أن اختلاف الناس في كلامهم ولغاتهم على حسب اختلافهم في أجسادهم وتركيباتهم » (٤) •

ويقول الاخوان :

ويمكن من خلال تلك النصوص — ومن غيرها التي ستذكر في حينها — أن نجل الأسباب العامة التي تؤدي الى تطور اللغة واختلافها وتغيرها ، وهي :

١ — تأثير الكواكب •

٢ — اجتهاد الفرد وما تجود به قريحته •

٣ — الصراع والاحتكاك بين المجتمعات •

٤ — انتشار اللغة تبعا لانتشار الناطقين بها •

٥ — أسباب اجتماعية وجغرافية وفسولوجية •

وسوف أناقش هذه الأسباب من خلال النتائج التي تترتب عليها ، اذ يتجه تطور اللغة — نتيجة لتلك الأسباب — اتجاهات مختلفة ، ويكون له مظاهر متعددة •

ثانيا : اتجاهات التطور :

قد يترتب على التطور اللغوي أن تموت لغة وتحيا مع انقراضها أخرى تسود ، أو تتفرع اللغة الى لهجات أو لغات •

١ - تفوق اللغة وسيادتها :

لقد رأى الاخوان أن تحول اللسان من لغة الى أخرى وما يتبع ذلك من تحول الكتابة من صورة الى أخرى بين الأقوام يأتى « بحسب ما اتفق لهم فى أصول مواليدهم » و « بحسب اجتهاد رئيسهم وما أعمل فيه فكرته وأنتجته قريحته وأوجبته رويته بتأييد ربه تعالى والنهامة ، وما أوتى من قوة وقدره » *

العامل الأول : العامل الفلكى :

أما العامل الفلكى الظاهر هنا فى قول الاخوان : « بحسب ما اتفق (للأقوام) فى أصول مواليدهم » فإن الاخوان يروونه العامل الرئيسى فى تطور لغة الانسان ، بل وفى كل الكائنات التى تحت ملك القمر ، حيث يعتقدون أن الكواكب تستولى على المواليد ولها دلالات على أمور الدنيا والآخرة من نعيم أو شقاء وغير ذلك ، حيث يتواى كل قوم - فى وقت نزولهم اقليما من أقاليم الأرض - كوكب من الكواكب السبعة المدبرات ، فعقد لهم عقدا نشأ عليه صغيرهم ومات عليه كبيرهم *

ورأوا أن أهوية البلاد والبقاع كما تتأثر وتختلف بحسب اختلاف تصارييف الرياح تتأثر وتختلف بحسب مطالع البروج عليها ، ومطارح شعاعات الكواكب عليها من آفائها *

ورأوا أن موجبات أحكام النجوم فى أصول مواليد (الناس) ومساقط نطعتهم تعد العامل الأسمى من العوامل المؤدية الى اختلاف أهليها وطباعهم وألوانهم ولغتهم وعاداتهم وآرائهم ومذاهبهم وأعمالهم وصنائعهم وتدابيرهم وسياساتهم *

وعلى سبيل الاجمال « هم يعتقدون أن هذه الكواكب هي السبب المباشر في التكوين الطبيعى وظهور المادة والصورة وتشكلهما بالهيات الجمادية والنباتية والحيوانية ، وظهور الفردية في الأنواع ، وهي بالاضافة الى كل ذلك سبب ما يصيب الأجسام فوق سطح الأرض من علل وأمراض واضطراب في تناسقها العضوى ، وهى مصدر الخلق الطيب والسيئ ، ومبعث الحياة والموت ، وهى دلائل بينة في السماء يستنتج منها الراسخون في العلم مصير الكائنات وأسرار الانقلابات » (٥) .

(٥) انظر : د. صبور عبد النور : اخوان الصفا ٣٠ ، وراجع رسائل اخوان الصفا ، وانظر على سبيل المثال ج ١/ ٢٠٩ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ - ٣٠٥ ، ج ٢/ ٢٦ ، ٦٣ ، ١٢٧ - ١٢٨ ، ١٣٥ - ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٣ . ١/ ٥١ ، ١٧٨ ، ٤٣١ ، ٤٧٦ ، ج ٤/ ٢٦١ وما بعدها .

ويرى الاخوان أن اثنين من الكواكب نيران وهما الشمس والقمر واثنين سعدان وهى المشتري والزهرة ، واثنان نحسان وهما زحل والمريخ وواحد ممترج وهو عطارد . انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١/ ١٢٤ - ١٢٥ ويرون أن لكل واحد من هذه الكواكب السيارة دلالة على أعمدات معلومة من السنين والشهور والايام والساعات يستدل بها على كمية اعمار المواليد وعلى طول بقاء الكائنات فى عالم الكون والفساد . انظر المرجع السابق ج ١/ ١٢٦ .

ويرون أن لكل كوكب خاصية تختلف عن الاخرى ، فالقمر دليل على أمور الدنيا وحالات اهلها من الزيادة والنقصان والتغيير والمحاق ، والشمس دليل على أمور الآخرة وحالات اهلها من الثمام والكمال والنور والاشراق ، والزهرة اذا استولت على المواليد دلت على نعيم الدنيا من الاكل والشرب ولتنكاح ووليد ، والمشتري اذا استولى على المواليد دل على صلاح الاخلاق وصحة الدين وصدق الورع ومحسن التقوى وسعاد الآخرة وزحل ايضا اذا استولى على المواليد دل على الشقاء والبؤس والفقر والمرض والعسر .

وفي رأيهم أن الأشخاص الفلكية أحياء ناطقون ، وهم ملائكة الله — العلة الأولى — وسلوك أفلاكه وسكان سماواته ، عرفوا ذلك كما يقولون — بعد النظر في العلوم الإلاهية وأحكامها •

ومهما ذكروا بعد كل هذا أن تأثير الكواكب إنما هو باذن الله ومشيتته (٦) ، فإن هذا لم يبعد عنهم الشك والظن في دينهم •
فقد عد كل هذا الاعتقاد ، وجميع هذه المزاعم من معالم الوثنية في مذهبهم •

ولم يسلم بهذه المزاعم الكثيرة من العلماء في عصر الاخوان — كما ذكروا — ويبيده :

فقد عقد الاخوان فصلا في علم أحكام النجوم ذكروا فيه اختلاف العلماء في دلائلها وتأثيرها على سكان الأرض ، يقولون :

الامور وشقاء الدنيا ، والمريخ له دلالة على الشرور من الفسق في الدنيا وشقاء الآخرة ، وأما امتزاج عطارد بالسعادة والنحوسة فهو دليل على أمور الدنيا والآخرة وتعلق احدهما بالآخرى • انظر المرجع السابق ج ١ / ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٧ - ١٥٣ وراجع ج ٣ / ٤٣٢ - ٤٥٥ • ثم نراهم يزعمون أن كل كوكب مختص بصفة من الناس وينوع خاص من المطالب والاماني الإنسانية • انظر تفصيل ذلك في الرسالة الجامعة ط / ٤١٦ - ٤١٧ ، ٦٨٨ ، ٦٩٠ •

ونجد في الرسائل ذكرا للأساليب المتبعة لنيل نعم الأشخاص الفلكية ، والدعوات التي يهتمون بها ، وإشارة إلى الاثواب التي تلبس عند العبادة ، والقرابين التي تقدم فور هياكلها • انظر ج ١ / ٣٦١ وما بعدها •

(٦) انظر رسائل اخوان الصفا ج ٢ / ٤١٩ - ج ٣ / ٩٩ - ١٠١ ، ٣٣٤ - ٣٣٦ •

« اعلم يا أخى أيدك الله وإيانا بروح منه أن العلماء مختلفون في تصحيح علم الأحكام وحقيقته ، فمنهم من يرى ويعتقد أن للأشخاص الفلكية دلالات على الكائنات في هذا العالم قبل كونها ، ومنهم من يرى ويعتقد أن لها أفعالا وتأثيرات أيضا مع دلالاتها ، ومنهم من يرى ويعتقد أن ليس لها أفعال ولا تأثيرات ولا دلالات البتة ، بل يرى أن حكمها حكم الجمادات والموت بزعمهم ، فأما الذين قالوا أن لها دلالات فهم أصحاب الأحكام ، وإنما عرفوا دلالاتها بكثرة العناية بالأرصاء لحركاتها وتأثيراتها والنظر فيها واعتبار أحوالها وشدة البحث عنها ، والناس للتصارييف أمورها على ممر الأيام والسهور والأعوام أمة بعد أمة وقرنا بعد قرن كلما أدركوا شيئا منها أثبتوه في الكتب كما ذكروها في كتبهم بشرح طويل ، وأما الذين أنكروا ذلك فهم طائفة من أهل الجدل تركوا النظر في هذا العلم وأعرضوا عن اعتبار أحوال الفلك وأشخاصه وحركاته ودورانه وأغفلوا البحث عنها والتأمل للتصارييف أمورها فجهلوا ذلك وأنكروه ، وعادوا أهلها وناسبواهم العداوة والبغضاء ، وأما الذين ذكروا أن لها مع دلالاتها أفعالا وتأثيرات في الكائنات التي تحت فلك القمر فأنما عرفوا ذلك بطريق آخر غير طريق أصحاب الأحكام ويبحث أشد من بحثهم واعتبار أكثر من اعتبارهم ، وهو طريق الفلسفة الروحية والعلوم النفسانية وتأييد الألهى وعناية ربانية ، ونريد أن نذكر من هذا الفن طرفا ليكون ارشادا للمحبين للفلسفة والراغبين فيها ودلالة لهم عليها ورغبة فيها ، أعنى علم الفلسفة . فاعلم يا أخى أيدك الله وأيدنا بروح منه أن كواكب الفلك هم ملائكة الله وملوك سماواته ، خلقهم الله لعمارة عالمه وتدبير خلائقه وسياسة بريته وهم خلفاء الله في أفلاكه ، كما أن ملوك الأرض هم خلفاء الله في أرضه خلفهم وملوكهم بلاده وولا لهم على عبادهم ليعمروا بلاده ويسوسوا عبادهم ويحفظوا شرائع أنبيائه بانفاذ أحكامهم على

عباده ، وحفظ نظامهم على أحسن حالات ما يتأتى فيهم ، وأتم غايات ما يمتنعهم من البلوغ اليها ، وأفضل نهايات ما يصلون اليها، أما في الدنيا وأما في الآخرة، فعلى هذا المثال والقياس تجرى أحكام هذه الكواكب في هذه الكائنات التي تحت غلك القمر ، ولها أفعال لطيفة وتأثيرات خفية تتدق على أكار الناس معرفتها وكيفيتها كما تدق على الصبيان والجهال معرفة كيفية سياسة الملوك وتدابيرهم في رعيتهم ، وإنما يعرف ذلك منها المعتلاء والبالغون المتأملون للأمور ، فهكذا أيضا لا يعرف كيفية تأثيرات هذه الكواكب وأفعالها في هذه الكائنات الا الراسخون في العلوم من الحكماء والفلاسفة ، البالغون في المعارف الربانية ، الناظرون في العلوم الإلاهية ، المؤيدون من السماء بتأييد الله والمهامه لهم « (٧) » .

وذكر الاخوان أيضا أن الفقهاء وأصحاب الحديث وأهل الورع والمتنستين قد نهوا عن النظر في علم النجوم ، لأنه جزء من علم الفلسفة ، وذكروا أنه يكره النظر في علوم الفلسفة للأحداث والصبيان وتلك من لم يتعلم علم الدين ولا يعرف من أحكام الشريعة قدر ما يحتاج اليه وما فرض عليه ، ولا يسعه جهله وتركه ، أما من قد تعلم علم الشريعة وعرف أحكام الدين فان نظره في علم الفلسفة لا يضره بل يزيده في علم الدين تحققا وفي أمر الميعاد استبصارا وبثواب الآخرة وبالعباب الشديد يقينا واليها استيقانا ، وفي الآخرة رغبة والى الله تعالى قربه (٨) ونجد التوحيدى يسجل معارضة ومعارضة غيره لهذا الاعتقاد (٩) .

(٧) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١ ١٤٤ - ١٤٥ ، وراجع ايضا ج ٢ ١٤٣ ، ج ٣ / ٥٠٠

(٨) انظر : المرجع السابق ج ١ / ١٥٧ .

(٩) انظر : الامتناع والمؤانسة ٥ - ٢٣ .

وقد أكد الاخوان أن « علم النجوم وأدلتها صحيحة وحق ، وهو
 الأشخاص الفلكية التي نصبها البارئ تعالى وأجراها مجاريها :
 وإن كان المنجمون يخطئون في بعض استدلالاتهم ، أو في أكثرها ،
 فلا تبطل صناعة النجوم من أجل ذلك ، وهو علم جعله الله تعالى
 معجزة لإدريس النبي ، آمن به ملك زمانه ، وله قصة يطول
 شرحها » (١٠) .

ونفى الاخوان أن يكون علم النجوم هو ادعاء الغيب حين
 قالوا :

« كثير من الناس يظن أن علم أحكام النجوم هو ادعاء الغيب ،
 وليس الأمر كما ظنوا ، لأن علم الغيب هو أن يعلم ما يكون بلا
 استدلال ولا عل ولا سبب من الأسباب ، وهذا لا يعلمه أحد من
 الخلق ، كذلك لا منجم ولا كاهن ولا نبي من الأنبياء ولا ملك من
 الملائكة الا الله عز وجل » (١١) .

وجاء ابن خلدون فأبطل صناعة النجوم وأفسد غايتها ، حيث عقد
 فصلا خاصا بها في مقدمته بعنوان « ابطال صناعة النجوم وضعف
 مداركها وفساد غايتها » (١٢) ، وقد رد فيه على من يزعم أن معرفة
 قوى الكواكب وتأثيراتها إنما تأتي بالتجربة قائلا : « وهو أمر تقصر
 الأعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله اذا التجربة إنما تحصل في المرات
 المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن وأدوار الكواكب منها

(١٠) انظر : المرجع السابق ج ٣ / ٥٠٢ .

(١١) انظر تفصيل ذلك في المرجع السابق ج ١ / ١٥٣ - ١٥٧ .

(١٢) انظر : المجلد ٥١٩ - ٥٢٣ .

(٥ - اخوان الصفا)

ما هو طويل الزمن فيحتاج تكررهِ الى آحاد وأحقاب متطاولة يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم » *

ورد أيضا على من يزعم أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها إنما تتأتى بالوحي فثائلا « وهو رأى قائل ، وقد كفونا مؤنه ابطاله ، ومن أوضح الأدلة فيه أن تعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أبعد الناس عن الصنائع ، وأنهم لا يتعرضون للاخبار عن الغيب الا أن يكون عن الله فكيف يدعون استتباطه بالصناعة ويشيرون بذلك لتابعيهم من الخلق » *

ورد أيضا على من يزعم أن دلالة الكواكب على ذلك دلالة طبيعية من قبل مزاج يحصل للكائنات العنصرية ، مثل فعل الشمس في تبديل الفصول وأهزجتها ونضج الثمار والزرع وغير ذلك ، ومثل فعل القمر في الرطوبات والماء وغير ذاك ، ومثل تأثير قوى الكواكب كلها في الهواء ، والمزاج الذي يحصل منها للهواء يحصل لما تحته من المولدات وتتخاق به النطف والبرر . رد على كل هذا بقوله : « ان تأثير الكواكب فيما تحته باطل ، اذ قد تبين في باب التوحيد أن لا فاعل الا الله بطريق استدلالى كما رأيته واحتج له اهل علم الكلام بما هو غلى عن البيان من أن اسناد الأسباب الى المسببات مجهول الكيفية والاعقل منهم على ما يقتضى به فيما يظهر بسادىء الرأى من التأثير ، فلعل استدلالها على صورة التأثير المتعارف ، والقدرة الإلاهية المتعارف والقدرة الإلاهية رابطة بينهما لما ربطت جميع الكائنات علوا وسفلا سيما والشرع يرد الحوادث كلها الى قدرة الله تعالى وبيرا مما سوى ذلك ، والنبوات أيضا منكورة لشأن النجوم وتأثيراتها واستقراء الشرعيات شاهد بذلك في مثل قوله ان الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، وفي قوله أصبح مؤمن بى وكافر بى ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب ، وأما من قال

«مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بى ومؤمن بالكواكب ، الحديث الصحيح » (١٣) .

ثم أوضح ابن خلدون مضار هذه المزايم فى العمران الانسانى بقوله :

« فقد بان لك بطلان هذه الصناعة من طريق الشرع وضعف مداركها مع ذلك من طريق العقل مع ما لها من المضار فى العمران الانسانى بما تبعث من عقائد العوام من الفساد اذا اتفق الصدق من احكامها فى بعض الاحايين اتفاقا لا يرجع الى تعليل ولا تحقيق فيلجج بذلك من لا معرفة له ويظن اطراد الصدق فى سائر احكامها وليس كذلك . فيقع فى رد الانبياء الى غير خالقها ، ثم ما ينشأ عنها كثيرا فى الدول . من توقع القواطع وما يبعث عليه ذلك التوقع من تطاول الأعداء . والمتربصين بالدولة الى الفتك والثورة ، وقد شاهدنا من ذلك كثيرا ، فينبغى أن تحظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضار فى الدين والدول ، ولا يقدح فى ذلك كون وجودها طبيعيا للبشر بمقتضى مداركهم وعلومهم فالخير والشر طبيعتان موجودتان فى العالم لا يمكن نزعهما وانما يتعلق التكليف بأسباب حصولهما ، فيبتغى السعى فى اكتساب الخير بأسبابه ودفع أسباب الشر والمضار . هذا هو الواجب على من عرف مفاصد هذا العلم ومضاره » .

ثم بين غرابة هذا العلم وقلة حملته بقوله :

« وليعلم من ذلك أنها وان كانت صحيحة فى نفسها فلا يمكن أحدا من أهل الملة تحصيل علمها ولا ملكها ، بل ان نظريتها ناظر

وظن الإحاطة بها فهو في غاية القصور في نفس الأمر ، فإن الشريعة لما حظرت النظر فيها فقد الاجتماع من أهل العمران لقراءتها والتحليق لتعليمها ، وصار المولع بها من الناس وهم أقل من الأقل إنما يطالع كتبها ومقالاتها في كسر بيته متسترا عن الناس ونحت ريقه الجمهور مع تشعب الصناعات وكثرة فروعها واعتياصها على الفهم فكيف يحصل منها على طائل ونحن نجد الفقه الذي عم نفعه ديننا ودنيا وسوءت ماأخذه من الكتاب والسنة وعكف الجمهور على قراءته وتعليمه ، ثم بعد التحليق والتجميع وطول المدارس وكثرة المجالس وتعددتها إنما يجذق فيه الواحد بعد الواحد في الأعصار والأجيال ، فكيف يعلم مهجور للشريعة مضروب دونه سد الخطر والتحریم مكتوم عن الجمهور صعب المآخذ محتاج بعد الممارسة والتحصيل لأصوله وفروعه الى مزيد حدس وتخمين يكتنفان به من الناظر فأين التحصيل والحدق فيه مع هذه كلها ومدعى ذلك من الناس مردود على عقبه ولا شاهد له يقوم بذلك لغرابة هذا الغن بين أهل الملة وقلة حمايته ، فاعتبر ذلك يتبين لك صحة ما ذهبنا اليه ، والله أعلم بالغيب فلا يظهر على غيبه أحد .»

وفي دراسة حديثة أجريت على مذهب اخوان الصفا رأى صاحبها أن اعتقاد الاخوان في الكواكب يعد معلما من معالم الوثنية في مذهبهم ، ورأى أن لتقربهم منها يفترض أمرين ينكرهما الاسلام « أولهما الاعتقاد بأن هذه العوالم السابحة في الفضاء تتصف بالالوهية أو بما يشبه الالوهية ، وفي ذلك انكار للتوحيد الاسلامي الذي يأبى مثل هذه الوثنية الصريحة . وثانيهما : أنهم يتقربون منها لاقصاء ضررها واستئدار خيراتها ، ولقد نهى الاسلام نهيا قاطعا عن التنجيم على أنه تنبؤ بما تحمل الأيام المقبلة في طياتها ، فكيف به اذا هدف الى تعديل سير الزمن والأحداث بتقديم القرايين . وتنبه لئلا هذه البدعة

واستنكرهم المعاصرون لاختوان الصفا وناقشواهم فيها ، ووضحوا لهم أن النبي ﷺ قد نهى عن الخوض في هذه الأشياء ، وكره إلى الناس ذكرها وتوعدهم عليها وقال : « من أتى عراña أو طارقا أو حاريا أو كاهنا أو منجما يطلب غيب الله منه فقد حارب الله ، ومن حارب الله حرب ، ومن غلبه غلب » (١٤) ، ولا عبرة باعتماد بعض الحلفاء جماعة من المنجمين لكشف الغيب ، فإن واحدا منهم لم يعتمد إلى تقديم القرايين لتحويل نتائج الاحداث المقررة ومن الثابت ان الاخوان قد ادموا القرايين وأوصوا بذلك وسوغوا فعله لتخليص النفوس وللتقرب من روحانيات الكواكب » (١٥) .

وقد سؤل أحد كبار العلماء (١٦) في عصرنا الحاضر عن مدى صحة رؤية هؤلاء الفلاسفة الذين يزعمون أن الله موجود ، وهو خالق الكون وقوانينه ونواميسه ، ثم ترك النواميس تعمل ، وهو قيوم عليها ، أجاب بقوله :

« هذا القول غير صحيح ، لأن معناه أن الله يشر سلطانه في ملكه مرة واحدة ، ثم ترك القوانين تتحكم ، ولكن الله شاء أن يخرق هذه القوانين في تأثير من الحالات ، لنعلم أن فوق القانون خالق القانون ، وهو الذي يستطيع أن يجعل القانون لا يعطى النتائج » .

(١٤) نقل ذلك عن أبي حيان التوحيدى فى الامتاع والمؤانسة . انظره

ج ٢ ص ٨ .

(١٥) انظر : د . جبور عبد النور : اخوان الصفا ص ٣٢ - ٣٣ ، وانظر ما اوضحه الباحث من مذهب اخوان الصفا فيما يتعلق بتأثير النجوم والكواكب فى ص ٣٠ وما بعدها .

(١٦) هو فضيلة الشيخ : محمد متولى الشعراوى . انظر الجزء الثالث من سلسلة انت تسأل والاسلام يجيب ٣٨ - ٣٩ دار المسبيلم ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢ م

وقد ضرب المثل على ما ذكر بمعجزات الأنبياء ، وذكر أن الله
أغرق الناموس حين ضرب موسى مياه البحر فأنفرك شرقتين ، وأن الله
سلب من النار ناموسها وهو الاحراق فكانت بردا وسلاما على
ابراهيم ، مما يدل على أن الله هو القيوم ، رب الخلق ، رب الناموس •
وبهذا يتبين لنا بطلان هذا العامل الفلكي الذي عده الاخوان
عاملا رئيسيا في تطور اللغة وتشعبها واختلافها •

العامل الثاني : الاجتهاد الفردي :

يرى الاخوان أن تغير اللغة يأتي نتيجة تغيير الفرد لها واجتهاد
منه بتأييد الله له والهامه ان كان حكيما أو بوحى الله اليه ان كان نبيا
مرسلا ، ثم يعم هذا التغيير ويصبح اجتماعيا عن طريق الاصطلاح
والمحاكاة والتقليد ، كما يتبين لنا من النص الذي ذكرناه في صدر هذا
الفصل •

والقول بأن اجتهاد الفرد وما تنتجه قريحته بغير اللغة ، فقد
ساد فترة طويلة من الزمن الى أن ظهر اتجاه في القرن التاسع عشر
عند المشتغلين بالبحوث اللغوية ، يرى جبرية الظواهر اللغوية ،
لا اختيار للناس فيها ، وأن تلك الظواهر لا تسير وفقا لإرادة الأفراد،
أو تبعا للأهواء ، المصادفات ، وإنما تسير وفقا لقوانين لا يستطيع
الفرد الى تعويقها أو تغييرها سبيلا ، ولا تقل في ثباتها وصرامتها
واطرادها وعدم قابليتها للتخلف عن النواميس الخاضعة لها ظواهر
الفلك والطبيعية (١٧) •

(١٧) انظر : د. عبد الواحد والي : علم اللغسة ص ٥٧ الطبعة
السابعة • دار نهضة مصر • وراجم أيضا د. رمضان عبد النواب : التطور
اللغوي : مظاهره وعلمه وقوانينه ص ١٥ - ١٧ الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ /
١٩٨٣ م •

يقول فندريس : « ساد شطرا طويلا من الزمن الاعتقاد بان كل تغير صوتي انما يصدر عن الفرد وانه لم يكن الا تغييرا فرديا ثم عمم ، وهذا ادراك للأشياء غير صحيح ، فليس في وسع أى فرد أن يفرض على جيرانه نطقا تنبو عنه فطرتهم ، وليس هناك من قس جدير بتعميم تغير صوتي ، فلأجل أن يصير تغير ما قاعدة لمجموعة اجتماعية يجب أن يكون لدى كل أفراد هذه المجموعة ميل طبيعي لتحقيقه من تلقاء أنفسهم ، بل ان سلطان المحاكاة نفسه لا يقدر هنا على نسيء ، فان النطق الشاذ لا يجلب اتباعا لصاحبه ، بل لا يجلب له بوجه عام الا السخرية منه » (١٨) •

ومع ذلك ظلت للنظرية القديمة التى طرقها اخوان الصفا أنصار من طوائف كثيرة في ايطاليا وانجلترا وفرنسا ، وقاومت الاتجاه السالف الذكر في مبدأ أمره •

أما اللغة المكتوبة فقد أقرت الدراسة الحديثة مارتاه اخوان الصفا ، اذ الرسم يبدو في صورة أمور مقصودة تسيروها الارادة الانسانية ، ولا تتعارض في الوقت ذاته مع السبيل الذى يسلكه المجتمع في تطوره العام (١٩) •

أما عن عدد حروف اللغة الأولى وتطورها بتطور الزمن فقد سبق أن نقلنا عن الاخوان في الفصل الأول الخاص بالفكر واللغة — أن الله جمع لآدم في قبل أن يكثر أولاده ويتكلم بالسريانية أو القبطية — الأشياء كلها صغيرها وكبيرها ، جليلها وحقيرها في تسع علامات بأشكال

(١٨) انظر : اللغة ص ٦٩ تعريب : عبد الحميد الاداخلي ، ومحمد

القصاص : القاهرة ١٩٥٠ م •

(١٩) انظر : د. عبد الواحد وافي اللغة والمجتمع ص ٣٨ — ٣٩ ط

دار نهضة مصر ١٩٧١ م •

مختلفة مسماة بأسماء قد جمعت أسماء جميع الموجودات وانعقدت بها
الغاني كلها ، وهي الحروف التي يستعملها أهل الهند على هذه الصفة
(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩) (٢٠) • ويؤكدون أن تلك
الحروف « أخرجت مع آدم عليه السلام من الجنة : وبها يعرف أسماء
جميع الموجودات » (٢١) •

ثم يرون « أن هذه الحروف التسعة تفرعت بعد ذلك ، واختص
بها أهل الهند دون سواهم من الأمم ، لأن آدم عليه السلام كان هناك
لما هبط من الجنة » (٢٢) •

ويرون أنه « لما أوجبت الحكمة الإلهية تقييد الأسماء والألفاظ
بالحروف بصناعة الكتابة وأظهرها الله زادوا فيها وعرفوها ومهروا فيها ،
وأقام فيهم من الحكماء من أظهر فيهم المصانح وكثرت بينهم الصنائع
والمتعلمون والعلماء والأستاذون وعمرت الأرض وانتقلت أخبار
بعضهم إلى بعض ، ولم تزل الحروف تزيد ويظهر الشيء بعد الشيء
وصناعة الكتابة تتسع وتتفرع إلى أن كمل عدد الحروف ثمانية وعشرين
حرفا ، ثم وقفت على هذا العدد ، ولم تزد على ذلك » (٢٣) •

ويرون أن هذه الحروف الثمانية والعشرون هي حروف اللغة
العربية التي هي آتم الكتابات وتمام اللغة الانسانية وختام صناعة
الكتابة ، كما سنذكر في الفصل الخاص باللغة العربية • يقول الاخوان :

« أعلم أن صناعة الكتابة ذات طرفين : طرف كأنه البداية ، وطرفه
كأنه النهاية ، فالطرف الأول هو الكلام والنطق بالحروف التسعة التي
يستعملها أهل الهند إلى وقتنا هذا ، والطرف الآخر الذي هو النهاية فهي

(٢٠) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣ / ١٤١

(٢١ ، ٢٢) انظر : المرجع السابق ج ٣ / ١٤٨ •

(٢٣) ج ٣ / ١٤٢ - ١٤٣

الحروف الثمانية والعشرون التي هي حروف اللغة العربية ، وما سوى ذلك فهو بين هذين الطرفين » (٢٤) • ونراهم يؤكدون تمام حروف اللغة العربية ونقص ما سواها بثولهم •

« وفي كل أمة وبكل إقليم وجزيرة وموضع أهل خط وحروف وكتابات وعلامات يجب عليها كلها هذه الثمانية والعشرون حرفا ، ولولا خوف الاطالة لأتينا على ذكر كثير من اللغات وكتابات أهلها وأعداد حروفهم مثل ما يوجد في اللغة السريانية والمبرانية واليونانية والرومية وما يتفرع منها ويتكون عنها في سائر الأجناس والأمم من بنى آدم » (٢٥) •

ومن الكتابات التي هي دون العربية في نظر الاخوان : الكتابة اليونانية « لأنها قسمت لكل برج حرفين ، فصارت أربعة وعشرين حرفا ، فقيدت تلك الألفاظ وكتبت الأسماء بالحروف على لغة أهل ذلك العصر » (٢٦) •

ولكن ما سر العديدين : « تسعة » الذي كانت عليه حروف اللغة الأولى ، « والثمانية والعشرين » الذي وقفت عنده اللغة الانسانية وهي اللغة العربية في نظر الاخوان ؟

لقد ربط الاخوان بين هذين العديدين وبين نظرتهم الى الكواكب وإيمانهم بتأثيرها : أما العدد « تسعة » فهو « لتداسية الأفلاك التسعة

(٢٤) انظر : المرجع السابق ج ٣/٢٤٩

(٢٥) انظر : المرجع السابق ج ٣/٢٤٤

(٢٦) انظر : المرجع السابق ج ٣/١١٣

الطاوية لجميع الموجودات بأسرها » (٢٧) • وأما العدد « ثمانية وعشرون » فهو لمطابقته للأعداد الموجودات في الأصل « فمن الموجودات التي عدتها ثمانية وعشرون في العالم الكبير منازل القمر فانها ثمانية وعشرون منزلا ، أربعة عشر فوق الأرض ، وأربعة عشر تحت الأرض ، وهي في موضع اليمين واليسار ، منها أربعة عشر في البروج الشمالية ، وأربعة عشر في الجنوبية من البروج » (٢٨) •

وثمة أمران آخران يظهران في فلسفة الاخوان تجاه العدد « ثمانية وعشرين » الأول : أنه « يوجد في جسم الانسان أعضاء مشكلة لهذه العدد ، لأن اللغة التامة لغة العرب ، والكلام الفصيح كلام العرب ، وما سوى ذلك ناقص » (٢٩) •

والثاني « أن هذا العدد من الأعداد التامة ، والأعداد التامة أفضل من الأعداد الزائفة والناقصة ، وذلك أن هذا العدد عزيز الوجود ، وأنه

(٢٧) انظر : المرجع السابق ج١/١٤٠ ، ج ٣/١٤١ ، ١٤٨ • وهذه الافلاك كما يرى الاخوان مركبة بعضها في جوفى بعض كحليقة البصلة ، فادناها الى الكائنات فلك القمر ويليه عطارد ثم الزهرة ثم الشمس ثم المريخ ثم المشتري ثم زحل ثم الكواكب الثانية ثم اقصادها العلل . (٢٨) المحيط • انظر المرجع السابق ج١/١١٥ كما ذكر الاخوان . ان الحكماء لما نظروا في طبيعة العدد وجلوا لكل عند خاصية ليست لغيره ثم تأملوا أحوال الموجودات فوجدوا كل نوع منها قد اقتصر على عدد مخصوص لا أقل ولا أكثر ثم بحثوا عن طبيعة ذلك الموجود وخاصية ذلك العدد فكانا مطابقين واستبان لهم اتقان الحكمة الا لاهية فيها •

انظر : المرجع السابق ج ١/١٤٠ - ١٤١ •

انظر المرجع السابق ج٣/١٤٤ • ج١/٢١٧ •

(٢٩) انظر المرجع السابق ج ٣/١٤٤

يوجد منها في كل مرتبة من مراتب الأعداد عدد واحد لا غير ، كالسنة- في الأحاد ، وثمانية وعشرين في العشرات ، وأربع مائة وستة وتسعين- في المئات ، وثمانية آلاف ومائة وثمانية وعشرين في الألوف ، وأيضا ان- هذا العدد يمكن أن يقسم بالسوية مرة أو مرتين ، وكانت صناعة الكتابة في اللغة العربية خاتمة الكتابات وتمام عدد الحروف كما أن شريعة الاسلام آخر الشرائع كلها ، ومحمد عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين- وأصحاب الشرائع وعلى شريعته تقوم القيمة » (٣٠) •

والسؤال الذي يطرح نفسه : هل القول بأن العربية أتم اللغات ، وكتابتها ختام صناعة الكتابة نابع من تعصب اخوان الصفا لتلك اللغة الشريفة ؟ وهل صحيح أن عدد حروف العربية ثمان وعشرون ؟ وهل اللغات وقفت عند هذا العدد ولم تزد احداها على ذلك ؟

هذا ما سنجيب عليه في الفصل الخاص باللغة العربية ، ولكن- الذي يهمنا أن نقوله هنا أن الاخوان يؤمنون بأن اللغة تتطور وتتغير بفعل عوامل معينة منها عامل الاجتهاد الفردي ، وسواء كان هذا التطور في صورة نطق اللغة أو في نظام رموزها وكتابتها ، ولا زالت كذلك حتى وقفت عند عدد معين من الحروف (المنطوقة والكتوبة) تمثلت في اللغة العربية •

العامل الثالث : الصراع والاحتكاك :

ربط الاخوان هذا العامل بالعاملين السابقين : تأثير الكواكب والاجتهاد الفردي ، اذ قد يغير الفرد لغة مجتمع ما عن طريق القوة- والقدرة بتوفيق الله له وبموجب مولده وسعادته ، يتضح هذا في قولهم:

« وكل حكيم من الحكماء أو ملك من الملوك إذا أراد نقل علم أو حكمة أو دين أو شريعة من لغة إلى لغة أو من أمة إلى أمة فإنه يتهيأ له بتوفيق الله تعالى ، وموجب مولده وسعادتته ، حتى يتمكن من ذلك ويقدر عليه » •

ومن اللغات التي قهرت غيرها ، وساقها الاخوان تأييدا لفكرتهم: اللغة العبرية والرومية واليونانية ، كما اتضح لنا من النص الذي ذكرناه في بداية هذا الفصل •

أما العبرية فقد نقل اليها سليمان عليه السلام العلوم والحكمة من جميع اللغات حين قهر ملوكها وذلك رؤساها ، وأما الرومية فقد نقل اليها ماوك الروم علوم اليونان وحكمتهم من اللغة اليونانية حين غلب اليونان وقهرهم ، وكذلك فعل ملوك اليونان بمن غلبوا عليهم •

وقد أقرت الدراسة الحديثة مبدأ الصراع بين اللغات ورأته عاملا من عوامل التطور اللغوي ، فقد يحدث بين اللغات ما يحدث بين أفراد الكائنات الحية من احتكاك وصراع وتنازع على البقاء ويسمى وراء الغلب والسيطرة ، وقد ينتج عن هذا الصراع — كما يشهد التاريخ — مقتل بعض اللغات وأحياء بعضها الآخر ، أو تسهم لغات أخرى واستعدادها للهوى البطيء ان لم تدركها عناية من الله •

وينشأ هذا الصراع عن عوامل كثيرة منها نزوح عناصر أجنبية إلى بلد تنطق بلغة غير لغة أهله ، وقد يحدث هذا على أثر فتح أو استعمار أو حرب أو هجرة ، عندئذ تشتبك اللغتين في صراع ينتهي إلى إحدى فتيجتين : إما أن تغلب إحدى اللغتين على الأخرى فتصبح لغة جميع السكان ، أصيلهم ودخيلهم ، وإما أن تبقى اللغتان حيث لا تقوى واحدة منهما على الأخرى فتعيشان جنباً إلى جنب •

وقد يحدث الصراع نتيجة تجاوز شعبين مختلفي اللغة وينتهي.
الى نفس النتيجة (٣١) •

وتقطع اللغة المغلوبة في سبيل انقراضها مراحل ، حيث يتأثر منها
بطائفة كبيرة من مفردات اللغة الغالبة ، ثم تنتسب الى اللغة المغلوبة
أصوات اللغة الغالبة ومخارج حروفها وأصاليها في نطق الكلمات ، ثم
تستولي قواعد اللغة الغالبة على الألسنة حتى يتم لها الظفر (٣٢) •

ومن الأمثلة على ذلك لغة الرومان (اللغة اللاتينية) فلم يتم النصر
لها على اللغة السلفية التي كان يتكلم بها بلاد الجول (فرنسا وما إليها)،

(٣١) انظر هذا بالتفصيل عند: د. عبد الواحد والي : اللغة
والمجتمع ١١٥ - ١٤٢ • ومن العوامل التي تتيح الفرص للاحتكاك بين
اللغتين ولكنها أقل شأنًا من هذين العاملين : اشتباك شعبين مختلفي اللغة
في حرب طويلة الامد ، وتوافق العلاقات التجارية او ثقافية بين شعبين
مختلفي اللغة • انظر المرجع السابق ١٤٢ - ١٤٤

(٣٢) انظر المرجع السابق ص ١٢٥ - ١٢٦ •
وتغلب احدى اللغتين على اخرى في حالتين : ١ - اذا كانت اللغتان
المتصارعتان من شعبة واحدة أو من شعبتين متقاربتين ، وكان كلا الشعبين
قليل الحضارة ويزيد عدد افراد احدهما عن افراد الاخر زيادة كبيرة .
عندئذ تغلب لغة اوكثرهما عددا سواء اكانت لغة الغالب أم المغلوب •
وقد يحدث أن تغلب لغة على اخرى من غير فصيلتها ، ولكن هذا
نادر الحدوث ، ولا يتم التغلب فيها الا بصعوبة وبعده امد طويل •

٢ - اذا كانت اللغتان المتصارعتان من شعبة واحدة ، وكان الشعب
الغالب أرقى في حضارته من الشعب المغلوب • مثل تغلب العربية على
كثير من اللغات السامية الاخرى وعلى اللغات القبطية والبربرية
والكوشيتية • انظر المرجع السابق ١١٥ - ١٢٠ •

وذلك في القرن الأول الميلادي الى حوالي القرن الرابع الميلادي ، وكذلك العربية لم يتم النصر لها على القبطية والبربرية الا بعد أمد طويل (٣٣) .

٣ - تفرع اللغة الى لهجات ولغات :

أرجع الاخوان هذا الاتجاه في تطور اللغة الى انتشار الناطقين بها ، والى عوامل اجتماعية وجغرافية وفسولوجية ، وربطوا تلك العوامل بالعامل الرئيس في نظرهم ، وهو تأثير الكواكب ، الذي أوضحنا بطلانه آنفا .

وهذه العوامل تتضح من خلال النصوص : الثاني والثالث والرابع التي ذكرناها في بداية هذا الفصل .

وقد أقر المحدثون أن انتشار اللغة في مناطق مختلفة واسعة اثر صراع أو هجرة أو استعمار أو نمو طبيعي لمجتمع ما ، يؤدي الى تفرع اللغة الى لهجات ولغات ، بل يعد العامل الرئيس (٣٤) .

ومنى انتشرت اللغة تحت تأثير ما تقدم استحال عليها الاحتفاظ بوحدةها الأولى أمدا طويلا ، فلا تلبث أن تتشعب الى لهجات ، وتسلك كل لهجة من هذه اللهجات في سبيل تطورها منها يتخلف عن منهج غيرها ، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينها وبين أخواتها حتى تصبح لغة مميزة مستقلة غير مفهومة الا لأهلها .

وقد أقر المحدثون أيضا العامل الجغرافي المتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من شروق في الجوار وطبيعة البلاد وشكلها وموقعها رئيسيا

(٣٣) نظر المرجع السابق ١٢٠ - ١٢١

(٣٤) انظر : د. علي عبد الواحد واقي : اللغة والمجتمع ١٥١ - ١٥٨

يفصل كل منطقة منها عن غيرها من جبال وأنهار وبحار وما الى ذلك ،
وهذه الفروق تؤدي الى فروق وفواصل في اللغة (٣٥) .

ويؤكد الاخوان هذا في نص آخر حين قالوا :

« اعلم يا أخى بأن ترب البلاد والمدن والقرى تختلف ، وأهويتها
تتغير من جهات عدة ، فمنها كونها في ناحية الجنوب ، أو الشمال أو
الشرق ، أو الغرب أو على رؤوس الجبال ، أو في بطون الأودية والأغوار
أو على سواحل البحار ، أو شطوط الأنهار — أو في البراري والقفار أو
في الأجسام والحقول (٣٦) ، والأرض ذات الرملة والأرضين السبخ
السهلة ، أو في البقاع الصخرية والحجارة والحصى والرمال ، أو في
الأرضين السهلة والتربة اللينة بين الأنهار والأشجار والزرع
والبساتين والزهر والنور . وأيضا فان أهوية البلاد والبقاع تختلف
بحسب اختلاف تصارييف الرياح الأربع ونكباتها (٣٧) ، وبحسب مطالع
البروج عليها ، ومطارح شعاعات الكواكب عليها من ألقاها ، وهذه كلها
تؤدي الى اختلاف أمزجة الأخلاط ، واختلاف أمزجة الأخلاط تؤدي الى
اختلاف أخلاق أهلها وطباعهم وألوانهم ولغتهم وعاداتهم وآرائهم
ومذاهبهم وأعمالهم وصنائعهم وتدابيرهم وسياساتهم ، لا يشبه بعضها
بعضا ، بل تنفرد كل أمة منها بأشياء من هذه التي تقدم ذكرها لا
يشاركها فيها غيرها » (٣٨) .

وقد أقر المحدثون أيضا العامل الشعبي المتمثل فيما بين سكان

(٣٥) انظر المرجع السابق ١٥٩ - ١٦١

(٣٦) السحاب : جمع دحل وهو هوة تكون في الأرض وفي اسافل
الأودية يكون في رأسها ضيق ثم يتسع أسفلها .

(٣٧) النكبات : جمع نكباء وهي ريح انحرقت ووقعت بين ريحين

(٣٨) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١ / ٣٠٢ - ٣٠٣

المناطق المختلفة من فروق في الأجناس والفصائل الانسانية التي ينتمون اليها •

ومجموع الفوارق الجغرافية والشعبية تؤدي الى فروق في التكوين الطبيعي لأعضاء النطق ، وهو ما يطلق عليه العامل الفسيولوجي ، وهذا العامل يمنع أن تظل اللغة محتفظة بوحدةها الأولى أمدا طويلا ، ذلك « أن أعضاء النطق تختلف في بنيتها واستعدادها ومنهج تطورها تبعا لاختلاف الشعوب وتنوع الخصائص الطبيعية المزود بها كل شعب والتي تنتقل عن طريق الوراثة من السلف الى الخلف » (٣٩) •

ويترتب على تلك العوامل أيضا أن تختلف اللهجات في الأمة الواحدة تبعا لاختلاف أقاليمها وما يحيط بكل اقليم منها من ظروف ، وقد ضرب الاخوان المثل على ذلك بلغتنا العربية كما سنوضحه في الفصل الثاني من الباب الثاني •

وكما نشعبت اللغة المنطوقة واختلفت ، نشعبت صورتها المكتوبة واختلفت ، وذلك « أن لكل أمة من الأمم كتابة غير ما للأخرى ، كالعربية والفارسية والسريانية والقبطية والعبرانية واليونانية والهندية ، وما شاكلها ، لا يحصى عددها الا الله عز وجل الذي خلقهم مع اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأخلاقهم وطبائعهم وصناعاتهم وعلومهم ومعارفهم ، كل ذلك لسعة علمه ونفاذ مشيئته واتقان حكمته سبحانه وتعالى » (٤٠) •

وعن مواءمة الصورة المكتوبة للصورة المنطوقة يقول الاخوان :

(٣٩) انظر : د. علي عبد الواحد وافي : اللغة والمجتمع ٧٩ وراجع ص

٦٦ - ٧٦ •

(٤٠) انظر المرجع السابق ج ١/ ٢١٩

« والسريانية لغة ولها حروف وكتابة وصناعة ونسبة تجتمع عليها الحروف ، ولها أسماء تختص بها موافقة للغة ، وهكذا أيضا للرومية لغة وكتابة أخرى بشكل موافق لكلامهم ولغاتهم ، وهكذا لليونانيين ولأهل فارس وغيرهم من الأمم أجناس من اللغات وفنون من العبارات » (٤١) .

وتختلف الصورة المكتوبة أيضا تبعا لاختلاف فنون القول التي تستخدم فيها وما يمتاز كل فن منها ، سواء كان شعرا أو نثرا أو خطابة أو رسائل أو تدوين علوم أو تاريخا أو ما الى ذلك .
فكل فن من هذه الفنون يختلف عما عداه في طبيعته وأغراضه البيانية ، ومقدار صلتته بوجودان الانسان وأدراكه ، ومدى أقبال جمهور الناس عليه وأثره في نفسه وتلاؤمه مع حاجاته ومبلغ نشاطه المستغلين به .

والاختلاف في هذه الأمور يؤدي الى اختلاف كل فن عن الآخر في مفرداته وأساليبه ومعانيه وأفكاره (٤٢) ، يفهم هذا من قول الاخوان :
« اعلم أن لكل أهل ملة وشريعة كتاب بأمر ونهى وحلال وحرام ، وقضايا وأحكام ، وصناعة من الكلام والكتابة والألحان والنعومات ... واعلم بأن لهم من الحاجة الى ذلك ما لا غنى عنه ، ولا بد لهم منه ، فصار يحدث في وقت كل قرآن وبموجب كل زمان نوع من أنواع الكتابات وجنس من أجناس اللغات والخطوط والعبارات ، ويحدث في ذلك من كل أمة وكل لغة أنواع الكلام والنظم والألحان والنعومات وأشياء كثيرة لا يحصىها الا الله عز وجل » (٤٣) .

(٤١) انظر المرجع السابق ج ٣ / ١٤٨ ،

(٤٢) انظر : د . علي عبد الواحد وافي : اللغة والمجتمع ١٧٥ - ١٧٨

(٤٣) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣ / ٢٥١

(٢ - اخوان الصفا)

الفصل الرابع

الصوت العام

الصوت في معناه العام طاقة يحس بها الانسان نتيجة لاهتزاز الأجسام المحدثه له ، وانتقال هذه الاهتزازات عبر وسط ناقل هو الهواء — غالبا — الى أذن السامع ومنها الى جهازه الادراكي في المخ .

وهو يشمل سماع أى صوت يحدث في الطبيعة أو في حياتنا اليومية ، سواء كان طبيعيا أو انسانيا أو كلاميا أو غير ذلك .

وقد أدرك اخوان الصفا هذا ، فرأيناهم يتحدثون عن الصوت العام وأنواعه ، ونشأته ، والمراحل التي يمر بها بدءا من حدوثه وانتاجه وانتهاء بسماعه وادراكه .

أولا : انواع الصوت :

ان أنواع الصوت متنوعة ، فالصوت اما طبيعي ، أو آلى ، أو منطقي ، أو غير منطقي . وقد يكون الصوت حيوانيا كالنوعين الأخيرين ، وقد يكون غير حيوانى كالنوعين الأولين . يوضح الاخوان تلك الأنواع في قولهم :

« الأصوات نوعان : حيوانية وغير حيوانية . وغير الحيوانية أيضا نوعان : طبيعية وآلية ، فالطبيعية هي كصوت الحجر والحديد والخشب والرعد والريح وبسائر الأجسام التي لا روح فيها من الجمادات . والآلية كصوت الطبل والبوق والزممر والأوتار وما شاكلها .

والحيوانية نوعان : منطقية وغير منطقية ، فغير المنطقية هي أصوات
سائر الحيوان الغير الناطقة ، وأما المنطقية فهي أصوات الناس « (١) » .
وقد أطلق الاخوان على الأصوات الحيوانية أصواتا مفهومة ،
وعلى غير الحيوانية أصواتا غير مفهومة (٢) .

واذا كان للصوت أنواع متعددة على هذه الصورة فكيف ينشأ وما
المراحل التي يمر بها حتى يسمع ويدرك ؟

ثانيا : نشأته والمراحل التي يمر بها :

يمر الصوت بمراحل عديدة ، ويمكن اجمالها في أربع :

- ١ — مرحلة حدوثه أو اصداره .
- ٢ — مرحلة انتقاله .
- ٣ — مرحلة سماعه .
- ٤ — مرحلة ادراكه .

أولا : حدوث الصوت واصداره :

لقد أثبت علماء الصوت المحدثون بتجارب لا يتطرق اليها الشك
أن كل صوت مسموع يستلزم وجود جسم يهتز . وقد أدرك الاخوان
هذا حين قالوا :

(١) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١ / ١٨٨ - ١٨٩ ، ج ٢ / ٤٠٢
٤٠٧ ، ٤٦٨ - ٤٦٩ ، ج ٣ / ٩٥ - ١٢٣ / ٩٦ ، وراجع : الرسالة
الجامعة ج ١ / ٥٩٦ - ٥٩٧ .
(٢) انظر ج ٣ / ١٠١

« اعلم أن أصل الأصوات هو ما يحدث من تصادم الأجسام وتحركات الأجسام، والصوت قرع يحدث من الهواء إذا صدمت الأجسام بعضها بعضاً ، فتحدث بين ذينك الجسمين حركة عرضية تسمى صوتاً ، بأى حركة تحركت ، ولأى جسم صدمت ، ومن أى شئ كانت » (٣) .

وحين قالوا :

« وكل هذه الأصوات مفهومها وغير مفهومها ، حيوانها وغير حيوانها إنما هى قرع يحدث فى الهواء من تصادم الأجسام وعصر حلقوم الحيوان » (٤) .

ولا يحدث الصوت ولا يسمع إلا إذا كان تصادم واحتكاك الأجسام المولدة له شديداً ، نرى الاخوان يقولون :

« ان كل جسمين تصادما برفق ولين لا تسمع لهما صوتاً ، لأن الهواء ينسل من بينهما قليلاً قليلاً فلا يحدث صوتاً ، وإنما يحدث الصوت من تصادم الأجسام متى كان صدمتها بشدة وسرعة ، لأن الهواء عند ذلك يندفع مفاجأة ، ويتموج بحركته الى الجهات الست بسرعة فيحدث للصوت ويسمع » (٥) .

ولذا نرى الاخوان يعرفون الصوت بأنه :

« .هواء ينتقل بين جسمين متصادمين بعنف فيصك الهواء الراكد فى آلة السمع » (٦) .

(٣) انظر : المرجع السابق ج ٣ / ٩٥ ، ١٢٣ ، ٩٦ ، وراجع ج ١ / ١٨٨ ، ١٨٩ ، ج ٢ / ٤٠٧ .

(٤) انظر : المرجع السابق ج ٣ / ٩٨ .

(٥) انظر المرجع السابق ج ١ / ١٨٩ - ١٩٠ ، ج ٣ / ١٣٢ .

(٦) انظر : المرجع السابق ج ٢ / ٤٠٧ .

والأجسام التي يصدر عنها الصوت متعددة ، ولذا يري الاخوان
يقسمونها إلى ثلاثة أقسام : حية ، وميتة ، ولا حية ولا ميتة ، يتضح
هذا في قولهم :

« وكلام الإنسان وصوت الحيوان حي ذو حركات نفسانية ،
وصوت الحجر والخشب والحديد والنحاس وما شاكلها ميت ، والتقسم
إلـثـلـث : لا حي ولا ميت مثل صوت الهواء اذا تدافع وصدم بعضه
بعضا وحدث منه الصغير والزمير ، وصوت تدافع الماء في التلاليع ،
وأماج البحار ، وجريان الأنهار ، وصوت زفير النار ، فان هذه لا يقال
لها حية كما يقال للإنسان والحيوان انه حي ذو حركة يقصد لغرض يناله
بحركته ، ولا يقال انها ميتة كموت الحجر والخشب ، لأنها متحركة
بالاتفاق لا بالقصد ، لأنها تقوى مرة حركة الهواء ، ومرة تسكها ،
وكذلك الماء والنار » (٧) •

ولما كان الجسم لا يصدر الصوت الا اذا اهتز ، ولا يهتز الا اذا
تحرك فان المحرك يختلف بحسب نوع الصوت ، أما بالنسبة لأصوات
الأجسام الحية (الحيوانات الناطقة وغير الناطقة) فالمحرك هو النفس
(بفتح الفاء) ، يقول الاخوان :

« ان الصوت الحادث بحركة نفسانية حيوانية فهو مخصوص بـه
الحيوان » (٨) • وأما بالنسبة لأصوات الأجسام غير الحية — كصوت
البوق وضرب الدف ، والطبول وما شاكل ذلك ، والمسمى قرع ووقع
وطنين وصفير وزفير ونقر ودق وفرقة — فالمحرك لها من غير جنسها
بحـصـد أو بغير قصد ، يقول الاخوان :

(٧) انظر : المرجع السابق ج ٢٧/٣ ، وراجع ١٣٠ - ١٣١

(٨) انظر : المرجع السابق ج ١١٦/٣ •

« هذه الأصوات مخصوصة بما يحدث من حركات الأجسام الصامتة التي لا يحدث صوت وحس عنها الا بمحرك من غير جنسها يرفعها ويضعها وينقرها ويقرع بعضها ببعض ، فالمحرك لها اما بعمد وقصد كالانسان فيما يتخذه من هذه الآلات للتصويت بالحركة ، أو كحيوان يحدث ذلك بغير قصد كاحتكاك الدابة بالباب ودفعها للأناء وغيره ، فيحدث من تلك الحركة وذلك الدفع صوت ، أو من حركة الرياح والهواء للأجسام والنبات والأشجار وحفيف أوراقها ، واحتكاك قضبانها ، وسلوك الهواء بينها ، وسريانه بين الحيطان والبنيان ، وخرقه منافذ الجبال والفجران والكهوف ، فيحدث منه أنواع الصفيير والتصويت . وما يحدث من أصوات حوادث الجو مثل ما يحدث من حركات المياه اذا انحدرت وتدافعت من أعلى الجبال الى بطون الأودية ، ومثل أصوات الدواليب والأرحية والطواحين والمجاذيف ، وجريان السفن في البحر ، وجرى العجل في البر ، وكل ماء اذا تحرك أو تصرف فيه المحرك ظهر منه الصوت وقرع الهواء » (٩) .

وقد ميز الاخوان بين الأصوات ، ووضعوا لها أسماء مختلفة بحسب المصدر المحدث لها ، « فما كان منها عن أجسام الحيوان قيل : أصوات ونغمات ، وما كان منها عن حركة الهواء قيل : صفيير وزفير ، وما كان من المعدنيات والأحجار والخشب قيل : وقع وطنين ونقرة وما شاكل ذلك ، وما كان من جهة الانسان قيل كلام ولفظ ومنطق ، بالجملة » (١٠) .

وقد يظن ظان أن الأصوات قد توجد في غير أجسام ومن غير حركات الأجسام ، وينشأ ظنه من أنه اذا تكلم في سفتح جبل أو صاح

(٩) انظر المرجع السابق ج ٣ / ١١٦

(١٠) انظر المرجع السابق ج ٣ / ١١٦ - ١١٧

في قعر بئر أو نهر أجابة مجيب بمثل كلامه ، فيسمع المتكلم جوابه من غير جسم ولا حركة بجسم .

وهذا الظن يتهم الاخوان بأنه « جاهل بهذه الأتسياء ويهده الأسباب الموجبة لحدوثها منها وكونها عنها ، فغلط فيما رأى من موجوداتها ، وكان قليل المعرفة بمعلوماتها ، وأنه لما سمع الصوت من الجبل والبئر ظن بأنه أجابه بجوابه ورد عليه بكلامه اما من حيوان لا يراه وشيء لا يعاينه ، أو أن الجبل نطق بجوابه وقعر البئر رد كلامه ، فهذا تخيل من لا عقل له ولا معرفة عنده » (١١) .

ويرفع الاخوان هذا الظن بقولهم :

« فالصوت الذي يسمعه انما هو صوته ، والحركة التي بدت منه في الهواء ، وذلك أنه صاح في سفح الجبل وقعر البئر الى جانب الحائط فخرج من جوف المتكلم شكل كروى ونقش عرضي يأخذه الهواء الى أن يؤديه الى ذلك الموضع ، فيصافه ما يمنعه من النفوذ والانتشار ، فيرتد راجعا فيسمع منه ذلك الصوت وهو الصدى » (١٢) .

ونرى الاخوان يؤكدون أن الأصوات لا تحدث الا بحركات الأجسام واهتزازها في قولهم :

« اعلم أنه كما لا يجوز في العقل أن يكون حيوان الا من محاسة أسباب أو نكاح أجسام ، كذلك لا توجد الأصوات الا في الأجسام ، ولا تصوت الأجسام الا بحركات . ثم ان الأصوات أعراض حادثة ، والجواهر أجسام حاملة لها » (١٣) .

(١١) انظر المرجع السابق ج ٩٨/٣
(١٢، ١٣) انظر : المرجع السابق ج ٩٨/٣

وقد أكدت الدراسات القديمة والحديثة تلك المعلومات التي بثها
الاخوان في رسائلهم (١٤) .

وإذا قد عرفنا أن الأجسام تتحرك وتهتز لكي تحدث الصوت، فإننا
نتساءل : ما طبيعة تلك الاهتزازات ، وما كيفية انتقالها ؟

هذا ما سنجيب عليه في المرحلة التالية من مراحل الصوت .

ثانياً : انتقال الصوت :

إن مرحلة نقل الصوت هي الوسطة بين إصداره وسماعه وإدراكه،
ولذا سماها الاخوان « الحركة الواصلة الى حاسة السمع » (١٥) .

والوسط الناقل الذي ينتقل عبره الصوت هو الهواء — غالباً —
لأنه يتميز به من طواعية ومرونة ، ولذا ركز الاخوان حديثهم عليه ، إذ
غرامهم يقولون عن المعللة التي أوجبت له هذه المرونة أو للحركة الخفيفة:

« الهواء جسم لطيف شريف ، وهو متوسط بين الطرفين ، فما هو
خفيفه ألطف منه وهو النور والضياء ، وما يذونه أكثف وهو الماء
والتراب » (١٦) .

ويوضح اخوان الصفا سرعة استجابة الهواء لنقل الصوت
بقولهم :

(١٤) انظر — على سبيل المثال — ابن سينا : اسباب حدوث
الحروف ص ٣ وما بعدها ط القاهرة ١٣٣٢ م .

(١٥) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣ / ١٠٣ .

(١٦) انظر : نفس المرجع السابق ج ٤ / ٥٢٧ ، ج ٣ / ١٢٥ .

« لما كان الهواء ألطف جوهرًا من الماء ، وأثيد سبيلًا ، صار
تقبوله للأصوات والروائح أسرع انفعالا وأسرع قبولا » (١٧) •
كذلك يوضح الاخوان كيفية جعل الهواء للصوت الصاخر من
جسده بقولهم :

« ان الهواء لشدة طاقته وصفاء جوهره وسرعة حركة أجزائه
يتخلل الأجسام كلها ويسرى فيها ويصل اليها ويحرك بعضها الى
بعض • فإذا صدم جسم جسمًا انسل ذلك الهواء من بينهما ، وتدافع
وتتموج الى جميع الجهات ، وحدث من حركته شكل كروي يتسع كما
تتسع القارورة من نفخ الزجاج ، وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت قوة
ذلك الصوت الى أن يسكن • ومثال ذلك اذا رميت في الماء الهادى
الواقف في مكان واسع حجرا فيحدث في ذلك الماء دائرة من موضع
وقع الحجر ، فلا تزال تتسع فوق سطح الماء وتتموج الى سائر
الجهات وكلما اتسعت ضعفت حركتها حتى تتلاشى وتذهب » (١٨) •

وهذا يتفق تماما مع الدراسة الصوتية الحديثة وأوضحته تحت
ما يسمى بالذبذبة الصوتية والموجات الصوتية ، وسعة الموجة ومداها،
والتردد :

١.١) الذبذبة الصوتية :

تطلق الذبذبة الصوتية على الدورة التي يقوم بها الجسم ابتداءً
من نقطة سكونه الى اتجاه ما ، فرجوعه مارا بنقطة السكون الى
الاتجاه المقابل ثم عودته مرة أخرى الى نقطة السكون •

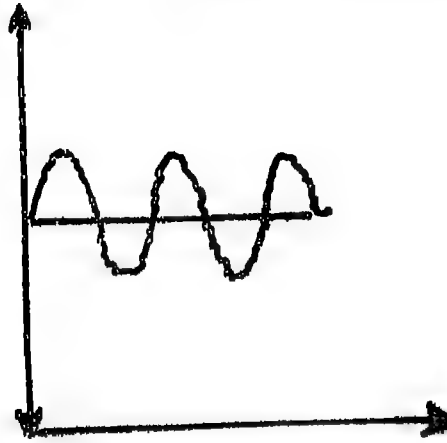
(١٧) النظر : المرجع السابق ج ٢/١٧٤

(١٨) النظر : المرجع السابق ج ١/١٨٩ ، ج ٢/٤٠٧ ، ج ٣/١٠٢ -

١٠٣ ، ١٢٣ •

ويطلق على تكرار الذبذبة أما لاهتزازه اسم الاهتزاز أو التذبذب.
الصوتى (١٩) •

ويمكن تصور هذه الاهتزازات اذا ربطنا قلما على ذراع شوكة رنانة ، وقربنا سنه من ورقة موضوعة حول اسطوانة دائرية فى أثناء اهتزاز للشوكة وسوف يبحو ذلك على الشكل الآتى :



(ب) الموجات الصوتية :

ان كل ذبذبة فى مصدر الصوت تحدث أثرا مشابها لحركتها فى ذرات الهواء الملاصقة لها ، وكل ذرة من هذه الذرات تحدث فى الذرة المجاورة لها الأثر نفسه على هيئة خطين طوليين : يمثل أولهما عملية التضاغط حين تصطدم الذرة بنما بعدها ، وثانيهما عملية التخلخل حين تعود لتتصادم مع ما بعدها ، حتى تبلغ الاهتزازات الى غايتها دون أن يغادر الهواء المحيط بالمصدر مكانه الى أذن المستمع •

(١٩) انظر : د. عبد الله ربيع ، عبد العزيز علام : علم الصوتيات .
١١٧ ط المكتبة التوفيقية ، د. تغريد عنبر : دراسات صوتية ص ٢٩
ط القاهرة ١٤٠١ هـ ، ١٩٨٠ م •

ويطلق على مجموع هذه الذبذبات الموجة الصوتية تشبيهاً لحركتها بحركة الموج في الماء على النحو الذي ذكره اخوان الصفا في النص السالف الذكر .

ومعنى أن موجات الهواء طولية غير مستعرضة أنها تكون في نفس خط انتشار الموجة ، وليس في اتجاه عمودي عليه ، لأن الهواء يمكن ضغطه ولا يمكن لولبته أو تحريكه حركات دائرية (٢٠) .

وقد أشار اخوان الصفا الى عملية التضاضط هذه حين قالوا :

« انما يحدث الصوت من تصادم الأجسام اذا كانت صدمتها بسرعة فينضغط الهواء عند ذلك وتتداق أمواجه ، وتتبع حركته الى الجهات الست بسرعة فيحدث الصوت ويسمع » (٢١) .

ومصدر الصوت ينتج اهتزازات كثيرة متنوعة ، ومن ثم تكس الموجات وتتتابع .

وقد رأى الاخوان أن تلك الذبذبات الصوتية تفنى في الهواء « اذ يقولون :

« ومن فضائل الهواء وخواصه العجيبة أنه يمنع الأصوات بسيلائه أن تثبت زمانا طويلا فيقل الانتفاع بها ويكثر الضرر منها ، وذلك أن الأصوات ليست تمكث في الهواء الا ريثما تأخذ المسامع حظها ثم تضمحل ، ولو ثبتت الأصوات في الهواء زمانا لامتلأ الهواء

(٢٠) انظر مزيدا من دراسة الموجة وأنواعها عند : د. عبد الله ربيع

عبد العزيز علام : علم الصوتيات ص ١٢١ وما بعدها ، د. تغريد عيد دراسات صوتية ص ٣٠ وما بعدها ، د. سعد مصلاح : دراسة السمع والكلام ص ٥٠ وما بعدها . عالم الكتب ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

(٢١) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣ / ١٣٢

من الأصوات ولعظم الضرر منها حتى لا يمكن أن يسمع ما يحتاج إليه من الكلام والأقاصيل » (٢٢) •

ولكن هل يفتنى الصوت بعد مدة كما ذكر الاخوان ؟ هذا ما أثبتته الإحداسة الحديثة فترة طويلة والى الآن ، ولكن ترى الحداسة الحديثة أن هناك أصواتا لا تضمحل ، ونسمع أن هناك فرق عمل تحاول اثبات هذا ، بل وتعمل على مدى امكانية استرجاع أصوات ظن أنها قد فُتيت، وسوف يظهر في مستقبل أيامنا مدى صحة هذه الدراسات •

(ج) سعة الموجة ومداهها :

ولما كان الأثر الذى يحدث الاهتزاز في مصدر الصوت يختلف بقوة وضعف كان من الطبيعى أن تختلف حركة الأجسام المذبذبة فيما يسمى بالمدى *Amplitude* الذى تصل اليه ما بين نقطة سكونها، ونقطتى النهاية في حركتها الاهتزازية ، فمفارة يتسع هذا المدى ، ووفرة يضيق تبعا لدرجة قوة الجسم المهتز • ومثل هذا يحدث أيضا في الوسط الناقل حيث تتسع الموجة أو تضيق تبعا لقوة الاهتزازة التى صنعتها • وسوف نعرف قريبا أن لمدى الموجة تأثيرها على الأذن البشرية ، فكلما كانت سعة الموجة أكبر أحست الأذن بقوة الصوت وشدة تأثيره •

وما أوضحتته الحداسة هذا قد وضع جذوره وفكرته عمباؤنا العرب ، ومنهم اخوان الصفا ، اذ نراهم يقولون :

« والأجسام العظيمة اذا تصادمت كان صوتها أعظم ، لأنها تموج هواء أكثر ، وكل جسمين من جوهر واحد ، مقدارهما واحد

(٢٢) انظر : المرجع السابق ج ٢ / ٣٠٣ - ٣٠٤ ، وراجع ج ١ / ٢٠١

وشكلهما واحد نقرا نقرة واحدة معا فان صوتيهما يكونان متساويين ،
فان كان احدهما أجوف كان صوته أعظم ، لأنه يصدم هواء كثيرا
داخلا وخارجا ، والاجسام الملس أصواتها ملساء ، لأن السطوح
المشتركة التي بينها وبين الهواء ملساء ، والأجسام الخشنة
تكون أصواتها خشنة ، لأن السطوح المشتركة بينها وبين الهواء
خشنة والأجسام الصلبة المجوفة كالألوانى والطرجهات (٢٣)
والجرار اذا نقرت طنت زمانا طويلا ، لأن الهواء في جوفها يتردد
ويصدمها مرة بعد مرة ، وتارة بعد أخرى ، الى أن يسكن ، فما كان
منها أوسع كان صوتها أعظم ، لأنه يصدم هواء كثيرا داخلا وخارجا ،
والبوقات الطوال كان صوتها أعظم لأن الهواء المتموج فيها يصدمها
في مروره مسافة بعيدة ، والحيوانات الكبيرة الرئات الطويلة الحلاقيم ،
الواسعة المناخر والأشداق تكون جهيرة الأصوات لأنها تستنشق هواء
كثيرا وترسله بشدة • فقد تبين بما ذكرنا أن علة عظم الصوت انما
هى بحسب عظم الأجسام المصوتة وشدة صدمها وكثرة تموج الهواء
في الجهات عنها » (٢٤) •

(٢٣) الطرجهات : شبه كؤوس بشرب فيها ، واحدها طرجهات
(٢٤) انظر : المرجع السابق ج ١ / ١٩٠ • وقد رأى اخوان
الصفا أن أعظم الاصوات صوت الرعد ، وقد فرقوا بينه وبين صوت
الساعة : أما صوت الرعد فبسبب حدوثه • أن يطلع البخار بلطافته حتى
يخلق في عيان الهواء ، وهو على حزين : رطب ويابس ، فاذا اجتمع
ونكاثا امتزجا وتعاقدا فعقد البخار الرطب مع البخار اليابس بقوة كتافته
وشدة رطوبته ، ولا يكون له منفذ الا بشدة شديدة ، فيجتمع بفواه
ويخترق الهواء بلطافته فيحدث منه ذلك الصوت • أى صوت الرعد ،
على قدر كثرتة وقلته • ثم قال الاخوان : « ولولا رحمة الله بخلقه بأن
جعل من شأن السحاب أنه اذا انخرق طلب الصعود الى فوق ، ومن
شأن قرع الهواء اذا حدث أن تكون حركته الى فوق ، ولولا ذلك لكانت

٥ هـ) التردد :

من الطبيعي أن تكون لكل ذبذبة صوتية فترة زمنية تنتم فيها ،
وعدد الذبذبات الى تحدث في فترة زمنية محددة (كالثانية مثلا) هو
ما يطلق عليه في الدراسة الحديثة مصطلح التردد Frequency
وتختلف الأصوات في هذا التردد تبعا لظروف الجسم المهتز كمادته
وشكله وسمكه (٢٥) •

وقد أدرك الاخوان هذا المضمون ، اذ نراهم يقولون :
« الحركة نوعان : سريعة وبطيئة ، والحركة السريعة هي التي

أصوات الرعد ولعان البرق تضر بمسامع الحيوان وأبصارها ، لاملكيتها
كما يكون ذلك في بعض الاحايين ، •

انظر : المرجع السابق ج ٩٦/٣ - ٩٧ ويراجع ج ١٩٠/١ ..
١٩١ ، ج ٧٥/٢ - ٧٦ أما صوت الصاعقة فبسبب حركته « أن هذا
البخار ربما طلب العلو فلم يكن له منفذ فانعكس البخار اليابس فطلب
السفل ، ففدح نارا أو يحلث منه صوت هائل وهو الذي يسمى الصاعقة .
ثم قال الاخوان « وهي تقتل كثيرا من الحيوان الذي يقرب من ذلك
المكان ، وربما أحرقت بعض الاجسام ، ومن الناس أيضا كما فعل بقوم
شعيب وصالح عليهما السلام ، •

انظر : المرجع السابق ج ٩٧/٣ • ويراجع ج ١٩١/١ ، ج ٧٦/٢
(٢٥) انظر : د. عبد الله ربيع ، وعبد العزيز علقم : علم الصوتيات ،
د. عبد الحميد أبو سكين •

دراسات في التجويد والأصوات اللغوية ٣٢ • مطبعة الامانة
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٣ م •

يقطع المتحرك بها مسافة بعيدة في زمان قصير ، والبطيئة هي التي يقطع المتحرك بها مسافة أقل منها في ذلك الزمان بعينه » (٢٦) •

ونراهم في موضوع آخر يؤكدون هذا :

« الحركة تكون سريعة وبطيئة ، فالسريعة هي التي يقطع المتحرك بها مسافة طويلة في زمان قصير ، والبطيئة هي التي يقطع المتحرك بها مسافة قصيرة في زمان طويل • وعلى هذا المثال تعتبر الحركات والمتحركات » (٢٧) •

وسرعة الصوت أو بمعنى آخر السرعة التي تنتشر بها الموجة الصوتية في الوسط الناقل يكون معدلها أدنى من معدل سرعة الضوء ، نستنتج هذه المعلومة المهمة من قول الاخوان :

« وأما البروق والرعود فأنهما يحدثان في وقت واحد ، ولكن البرق يسبق الى الابصار قبل الصوت الى السامع ، لأن أحدهما روحاني الصورة ، وهو الضوء ، والآخر جسماني وهو الصوت » (٢٨) •

وقد أكد هذا في العصر الحديث ، اذ تصل سرعة الصوت في الهواء (١١٣٠) قدما في الثانية الواحدة ، وهو ما يعادل (٣٤٠) مترا في الثانية أو (٢٠٠) كلم في الساعة ، وذلك في درجة حرارة ٣٠ درجة ، وتتقص سرعة الصوت كلما انخفضت درجات الحرارة ، كما تكون أبطأ في المواد السائلة ثم الغازية (٢٩) •

(٢٦) انظر رسائل اخوان الصفا ج ١ / ١٩٣ •

(٢٧) انظر المرجع السابق ج ٣ / ١٣٦ •

(٢٨) انظر المرجع السابق ج ٢ / ٧٥ •

(٢٩) انظر : كنز آتوف : الاصوات والاشارات ، ١٩٩ •

أما سرعة الضوء فهي أعلى من ذلك بكثير ، اذ يقطع الضوء المسافة بين الأرض والقمر في ثانية واحدة ، وبين الأرض والشمس في ثمان دقائق (٣٠) .

ثالثا : سماع الصوت :

بعد أن يصدر الصوت من جسم مهتز ، ويحمله الوسط الناقل ، تأتي مرحلة التقاطه وسماعه عبر الأذن . ويتوقف وضوح الصوت وشدة على مدى قرب الأذن من مصدر الصوت . يقول الاخوان :

« فمن كان حاضرا من الناس وسائر الحيوانات الذي له أذن ، بالقرب من ذلك المكان فيتموج ذلك الهواء بحركته يدخل في أذنيه الى صماخيه في مؤخر الدماغ ويتموج أيضا ذلك الهواء الذي هناك فتشعشع عند ذلك القوة السامعة بذلك الحركة وذلك التغيير » (٣١) .

ويؤكد الاخوان هذا أيضا بصورة أوضح في قولهم :

« فمن كان حاضرا في ذلك الموضع أو بالقرب منه من الحيوان سمع ذلك الصوت فبلغ ذلك التموج الذي جرى في الهواء الى مسامعه ودخل صماخه وتحرك الهواء المستقر في عمق الأذنين بحسب القوة السامعة بذلك التموج والحركة التي أحدثت التغيير .

وقد أكدت الدراسة الحديثة ما رآه اخوان الصفا من أن شدة الصوت وارتفاعه تتوقف على قرب الأذن من مصدر الصوت (٣٢) .

(٣٠) انظر : د . سعد مصلوح : دراسة السمع والكلام ٤١ .

(٣١) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١ / ١٨٩ ، ج ٢ / ٤٠٧ -

٤٠٨ ، ج ٣ / ١٢٣ .

(٣٢) انظر : د . عبد الحميد أبو سيكين : دراسات في التجويد

والاصوات اللغوية ٣١٢ .

وأوضحت كذلك — معتمدة على التشريح — كيفية التقاط الأذن الصوت :

فاذا كانت الأذن عضو ثابت فان لأجزائها الداخلية حركة لا يبد منها الأداء الوظيفية السمعية ، وتتمثل هذه الحركة في اهتزاز طبلة (٣٣) أذن الانسان عند التقاطها موجات الصوت المهتزة ، ثم تنتقل هذه الاهتزازات الى عظيمات الأذن الوسطى : المطرقة ، والسندان ، والركاب ، ثم تنتقل الى الجزء الأسفل من الأذن الداخلية المشتمل على ذلك الجسم الحلزوني التركيب الذى يعرف بالقوقعة والمملوء بذلك السائل المسمى بالسائل الليهى ، فيهتز ويحرك ، ومن ثم تهتز الخلايا الشعرية التى تمثل أهداب الأعصاب السمعية والتى يصل عددها الى أكثر من (١٥٠٠) خلية شعرية ، ثم تتحول هذه الاهتزازات الى اشارات كهربائية تحملها الأعصاب السمعية — التى تتكون من (٣٠٠٠٠) خيط عصبى — الى المركز السمعى فى المخ • ويستطيع الخيط الواحد نقل (١٠٠٠) اشارة فى الثانية ، ومن هذا يتبين أن الأعصاب السمعية تستطيع نقل (٣٠) مليون اشارة كهربائية الى المخ فى الثانية الواحدة (٣٤) •

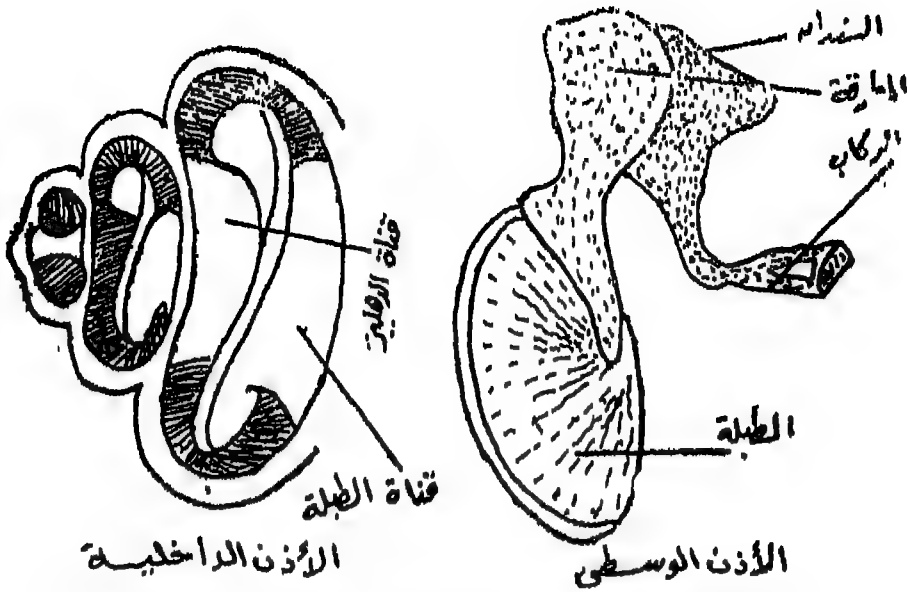
(٣٣) وهى عبارة عن غشاء رقيق له قدرة على الهجارب لى اهتزاز. وتصل الطبلة بالجزء الخارجى للبارز من الاذن عن طريق الصمناخ « وهو قناة ضيقة تستخدم بمثابة ممر سمعى يعمل صندوق رنين يضخم الصوت، الى جانب توصيله موجات الاصوات الى الطبلة »

(٣٤) انظر : د • عبد الله ربيع ، د • عبد العزيز علام علم الصوتيات ١٣٦ - ١٣٩ يتصرف •

Heffner : General phonetics P. 54
(م ٧ - آخوان الصفا)

(٣٥) انظر

والشكلان الآتيان يوضحان أجزاء الأذنين : الوسطى والداخلية (٣٥) :



ويبدأ الاحساس بالصوت عندما تهتز الأعصاب السمعية المنغمة في السائل التي هي بعد اثارة الخلايا الشعرية . ويمكن حينئذ التفريق بين أنواع الصوت المختلفة باختلاف مصدرها ، فيستطيع الانسان أن يميز أصوات الحيوانات ونغماتها ، وصفير الهواء وزفيره ، وخرير الماء وأمواجه ، ووقع المعدنيات ، وطنين الأحجار ونقرة الخشب ، وكلام الانسان ولفظه ومنطقه ، كما سبق نقله عن الاخوان . كما يستطيع أن يميز بين أنواع الصوت من جهة كلفيته ، وقد قسمها الاخوان الى ثمانية أنواع ، كل نوعين منها متقابلان : الكبير والصغير ، والسريع والبطيء ، وللدقيق والغليظ ، والثقيل والخفيف (٣٦) أو

بعبارة أخرى : العظيم والصغير ، السريع والبطيء ، والحاد والغليظة والجهير والخفيف (٣٧) .

ومن الأصوات أيضا ما تستلذه المسامع ، وما تنفر عنه ، يقول الاخوان :

« واعلم بأن الأصوات الحادة والغليظة متضادان ، ولكن اذا كانت على نسبة تأليفية اتلفت وامتزجت واتحدت ، وصارت لنا موزونا واستلذتها المسامع وقرحت بها الأرواح وسرت بها النفوس ، وان كانت على غير النسبة تنافرت وتباينت ولم تألف ولم تستلذها المسامع ، بل تنفر عنها وتشمئز منها النفوس وتكرهها الأرواح » (٣٨) .

وتلك قضية صفة الصوت quality التي نتحدث عنها الدراسة الصوتية الحديثة (٣٩) .

والتركيب الوظيفي للأذن يسمح لها بسماع النغمات والشدات الواقعة داخل مجال معين يطلق عليه مجال السمع بحيث اذا استقبلت الأذن أصواتا ذات نغمات أو شدات أدنى من هذا المجال فلا تدركه ، واذا استقبلت أعلى منه فانها قد تلتف ، ولذا يقول الاخوان :

« اعلم أنه اذا اعتبر أحوال الانسان ومجاري أموره من ذلك بحال جنته فانه متوسط بين الصغر والكبر فلا صغيرا جدا ولا كبيرا مفرطا . . . وهكذا حال قوة حواسه على ادراك المحسوسات فلا يحس منها الا المتوسطات بين الطرفين ، وذلك أن القوة الباصرة لا تقوى على ادراك الألوان في الظلمة الظلماء ، ولا على ادراكها في النور الباهر كالنظر الى عين الشمس في نصف النهار في يوم الصيف ،

(٣٧) انظر : المرجع السابق ج ١ / ١٩٣ - ١٩٥ .

(٣٨) انظر : المرجع السابق ج ١ / ١٩٥ .

(٣٩) انظر :

John Laver : Phonetic description of voice quality 1980.

وهكذا قوة السمع لا تطبق استماع الصاعقة لشدتها وجلالتها ، ولا تقوى أيضا على ادراك دبيب النملة لخفائها وخمولها » (٤٠) .
وقد أوضحت الدراسة الحديثة تلك الفكرة التي تحدث عنها الإخوان ، إذ « تختلف حساسية الأذن لأدنى شدة (٤١) تسمعها باختلاف تردد النغمة (٤٢) وتبلغ هذه الحساسية أقصاها مع نغمة

(٤٠) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣ / ٢٠ - ٢١ .
٢

(٤١) أو في شدة تسمعها الاذن ————— من الميكروبار مع
١٠٠٠٠

ذبذبة قدرها ١٠٠٠ ، في الثانية . ويرقم هذا المستوى بـ « صفر .
يسيل » .

« والميكروبار : هو وحدة قياس الضغط « دايين / سم^٢ » .
١

والميكروبار الواحد يساوى ضغطا يحوثة جسم وزنه حوالى —————
١٠٠٠

من الجرام ، على مساحة قدرها سم^٢ ، والديسيبل : هو وحدة قياس
٢

شدة الصوت مقارنا بشدة ثابتة هي شدة ذات ضغط قيمته —————
١٠٠٠٠

من الميكروبار مع نغمة ذات تردد مقداره ١٠٠٠ ذ/ث .

انظر : د . تغريد عنبر : دراسات صوتية ٣٤ ، ٤٢ .

(٤٢) أدنى نغمة تسمعها الاذن العادية تتراوح بين ١٦ ، ٢٠ ذ/ث .

وما تحت هذا العدد من الترددات لا يسمع ، ويسمى « ما تحت الصفر » ،

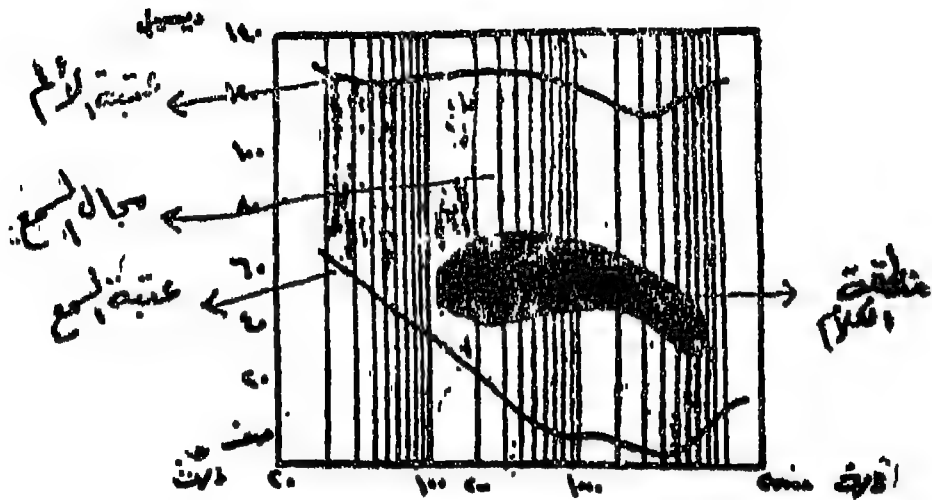
أما أعلى نغمة تسمعها الاذن السليمة تتراوح بين ٢٠ - ٢٥ ألف ذ/ث

وما أعلى من ذلك لا يسمع ويسمى « ما فوق الصوت » .

انظر المرجع السابق ٤١ .

بذات تردد ٤٠٠٠ ذ/ث ، ويعبر عن نقط بداية السمع مع النفقات المختلفة منحني يسمى بعتبة السمع . كذلك تختلف حساسية الأذن للألم بزيادة الشدة (٤٣) تبعا لقيمة تردد النغمة ، ويعبر عنها بمنحني يسمى « حد الألم » ، والمساحة بين عتبة السمع وحد الألم تسمى « مجال السمع » (٤٤) .

انظر الشكل الآتي :



وقد ذكر الاخوان أن الأصوات العظيمة الهائلة ، غير المتناسبة إذا وردت على المسامع دفعة واحدة مفاجأة أفقدت المزاج وأخرجت عن الاعتدال وتحدث موت المفجأة (٤٥) .

(٤٣) تشعر الأذن بالألم ابتداء من شدة قدرها حوالي ١٢٠ ديسيبل ، فإذا زاد الضغط الى أكثر من ذلك فإنه قد يتلف الأذن .
انظر المرجع السابق ٤٢ وما هو معروف أن الشدة تطلق على الجوانب المتصلة بالضغط على الهواء ، وكلما زاد تردد الجسم المهتز كلما زادت حدة الصوت الناتج عنه ، وكلما زادت سعة اهتزازاته كلما زاد الضغط ومن ثم زادت شدة الصوت .

وقد سبق أن ذكرنا — نقلاً عن الاخوان — أن صوتى الرعدة والصاعقة إذا اقترب من مكانهما الانسان أو الحيوان بصفة عامة أضرا بمسامعه •

وقلما تخطىء الأذن في التقاط الأصوات والتمييز بين أنواعها ، الا اذا وجد عائق في الحركة الواصلة (الوسط الناقل) أو في الحاسة السامعة نفسها •

أما عن العائق الأول فيتضح في قول الاخوان :

« وأما حاسة السمع فانها لا تكذب ، وقلما تخطىء ، وذلك لأنه ليس بينها وبين محسوساتها الا واسطة واحدة وهى الهواء ، وانما يكون خطأها بحسب غلط الهواء ورقته ، وذلك أنه ربما كانت الريح عاصفة والهواء متحركاً حركة شديدة ، فيصوت المصوت في مكان قريب من المسمع ، فلا يسمع من شدة حركة الهواء وهيجه ، فتكون حركة ذلك الصوت يسيرة في شدة حركة الهواء وهيجه ، فيضعف عن الوصول الى الحركة السامعة • وإذا كان الهواء ساكناً وصل ذلك الصوت الى الحاسة اذا كان في مكان يمكن أن يتصل به ذلك التمرج والحركة الحادثة في الهواء • فأما اذا كانت المسافة بعيدة فأنها لا تحركه وتتلاشى تلك الحركة وتنفذ قبل وصولها اليها » (٤٦) •

وأما العائق الثانى فيتضح في قول الاخوان :

« متى كانت أدوات القوة السامعة التى هى صماخا الأذنين مفتوحتين نقيئين من الأوساخ ، سليميتين من الآفات العارضة ، طُدت فيهما الأصوات بهيئتها ، فأدركتها القوة السامعة بحقائقها ، وإذا

(٤٥) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١ / ١٩٥

(٤٦) انظر : المرجع السابق ج ٣ / ١٠٧ ، ١٢٦

كانت على غير ما ذكرنا لعارض من الآفات عاقت عن ادراكها
المسموعات » (٤٧) •

وقد ذكر الاخوان أن الحاسة السامعة اذا كانت خالية عن أى
اعاقة فان قواها في تمييزها الأصوات بعضها من بعض الطيف
وأشرف من بقية الحواس (٤٨) •

وقد رأى بعض العلماء أن السمع أدق تمييزا من البصر ، ومن
ثم فان حاسة السمع أشرف وألطف من حاسة النظر ، وبرهان هذا
يظهر في قول الاخوان :

« واختلف العلماء في حاسة النظر وحاسة السمع أيهما ألطف
وأشرف ، فقال بعضهم : حاسة السمع أشرف ، وكان برهان من قال
ذلك أن محسوسات السمع كلها روحانية ، وأن النفس بطريق السمع
تدرك من هو غائب بالمكان والزمان ، وأن محسوسات البصر كلها
جسمانية ، لأنها لا تدرك الا ما كان حاضرا في ذلك الوقت • وقال :
ان السمع أدق تمييزا من البصر ، اذ يعرف جودة الذوق ، وجودة
الحس ، والكلام الموزون ، والنغمات المختلفة والفرق بين السقيم
والصحيح والمستوى والمنزحف ، وصوت الطير من صوت الكلب ،
وصوت الحمار من صوت الجمل ، وأصوات الأصدقاء من أصوات
الاعداء ، وما يحدث من أصوات الأجسام التي لا روح فيها ، وأصوات
الناس على اختلافهم وألكال كلامهم ، فتقبر عن كل صوت
بما هو دأبه ، وتنبه الى الذي بدا منه ، ولا يحتاج الى البصر في ذلك
وقد ادراكه • والبصر يتخطى في أكثر مدركاته ، فانه ربما يرى الصغير

(٤٧) انظر : المرجع السابق ج ٤٠٦/٣ ، وراجع ١٣٦ •

(٤٨) انظر : المرجع السابق ج ١٢٣/٣ •

كبيرا ، والكبير صغيرا ، والبعيد قريبا ، والقريب بعيدا ، والمتحرك ساكنا ، والساكن متحركا ، فصح بهذا القول أن السمع ألطف وأشرف من البصر ، ولنعم ما قيل :

الشمس تستصغر الأجسام جثتها
فالذنب للعين لا للشمس في الصغر (٤٩)

وفضل بعض العلماء السمع على البصر ، « لأن البصر يذهب في طلب محسوساته ويخدمها حتى يدركها مثل العبيد ، والسمع يحمل إليه محسوساته حتى تخدمه مثل الملوك » (٥٠) .

وقد أثبتت بعض الدراسات الحديثة تميز العين على الأذن في القدرة على الاستقبال ، إذ تحتوى شبكية العين على عشرة ملايين خلية عصبية ، ويصل العينين بالمخ ما بين من الألياف العصبية ، ويستطيع جهاز الاستقبال البصري (العين وهياكلها في المخ)

(٤٩) انظر : المرجع السابق ج ٣/ ١٢٣ - ١٢٤ ، ج ١ ، ٢٣٦

• ٢٣٧

وقد ربط الاخوان بين حواس الانسان الخمس وبين الطبائع الخمس الموجودة في جسم العالم كما زعموا وهي الارض ، الماء ، والهواء ، والنار ، والفلك . ذكروا أن حاسة السمع مناسبة لطبيعة الفلك الذي هو مسكن للملائكة الذين شعارهم وشغلهم ، ليلاهم ولاءهم وكلامهم كله تقديس وتسبيح وتهليل . ويلتذ بعضهم بسماع بعض ، ويقوم لهم في ذلك العالم العلوى مقام الغناء الجسماني في العالم السفلى ، وذلك أن حاسة السمع محسوساتها كلها روحانية ، . انظر المرجع السابق ج ٣/ ١٢٤ - ١٤٥ . وقد سبق أن عرفنا بطلان الاعتقاد بأن الكواكب وتأثيرها .

(٥٠) انظر : المرجع السابق ج ١/ ٢٣٦

١٠٥

استيعاب ما يقرب من خمسة ملايين وحدة من المعلومات في الثانية الواحدة • بينما تحتوى الأذن على ثلاثين ألفاً من الألياف العصبية ، ويستطيع جهاز الاستقبال السمعي استيعاب ما يقرب من خمسين ألف وحدة في الثانية • كما أكدت هذه الدراسة أن حاسة اللمس تقع مرتقما وسطا بين الرؤية والسمع » (٥١) •

وللاخوان فلسفة في إدراك الحاسة السامعة للأصوات المختلفة ، حيث يوجد في نظرهم مناسبة بين مصدر الصوت وبين حاسة سميع الانسان ، فهو يدرك صوت الحجر والمعادن والجمادات غير النامية والحية لما بينها وبينه من مناسبات ومجاسبات من جهة الجسمية والطبيعية الأرضية ، وذلك أن جسم الانسان مائل الى التراب ، كما يدرك صوت النبات والأشجار لأنه يشاركها في النمو والزيادة والكبر بعد الصغر ، كما يدرك صوت الحيوان لأنه يشاركه في الحياة والحس ، بالإضافة الى أن النفس الحيوانية جارية بينهم متصل بعضها ببعض وأكثر اتصالا من النفس النامية بين النبات والحيوان ، كما يدرك أصوات الهواء وال نار لأنه مهيا منهما (٥٢) •

رابعاً : أدراك الصوت :

بعد أن تلتقط الحاسة السامعة للأصوات عني اختلاف مصادرها وأنواعها تصل الى المخ على هيئة اشارات كهربية يقوم — بقدراته الكبيرة — بحل ملايين الاشارات الكهربائية التي تصل اليه في الثانية الواحدة بسرعة خاطفة ، ويترجمها الى معان ومدركات ، ثم ترسل الأوامر الى كل أجهزة الجسم للتجاوب مع تلك الأصوات حسب الظروف •

(٥١) انظر : كندراتوف : الاصوات والاشارات ٥٢ - ٥٣ •

(٥٢) انظر : المرجع السابق ج ٣ / ١٣١ - ١٣٢ •

وقد تحدث الاخوان عن مراكز ادراك الأصوات في دماغ الانسان ، نراهم يقولون عن أول مركز يستقبل الأصوات بعد سماعها:

« طنين الأصوات لا يمكث في المسامع زمانه الا ريثما تأخذ القوة المتخيلة رسومها ، ثم تضمحل من المسامع تلك الطينيات .. » (٥٣) .

وأما موقع تلك القوة المتخيلة في دماغ الانسان فيحدددها الاخوان في قولهم :

« اعلم أن كل صوت له نغمة وصيغة وهيئة روحانية خلاف صوت الآخر ، وأن الهراء من شرف جوهره ولطافة عنصره يحمل كل الصوت بهيئته وصيغته ويحفظها لئلا يختلط بعضها ببعض ، فيفسد هيئتها الى أن يبلغها الى أقصى مدى غايتها عند القوة السامعة لتؤديها الى القوة المتخيلة التي سكنها مقدم الدماغ ، وذلك تقدير العزيز الحكيم الذي جعل لكم السمع والابصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » (٥٤) .

وقد رأى الاخوان أن الدماغ بما فيه من مراكز ادراكية يستطيع أن يميز بين الأصوات المختلفة - لغوية أو غير لغوية - باختلاف مصدرها ، وأن يبين الغرض الذي من أجله صدرت ، كما سيأتى نقل النص المتعلق بهذا في فصل الصوت اللغوي .

كما رأوا للقلب دورا في تمييز الأصوات ولمهما .

وسوف نناقش في فصل الصوت اللغوي ما آثار الاخوان من مراكز ادراكية ونتعرف على وجهة النظر الحديثة .

(٥٣) انظر : المرجع السابق ج ١ / ٢٠٠ .

(٥٤) انظر : المرجع السابق ج ١ / ١٨٩ ، ج ٢ ، ٤٠٨ ، ج

١٠٣ - ١٠٥ ، ١٢٥ .

وبما هو جدير بالذكر هنا أن الاخوان يميزون بين سماع الصوت ، وبين ادراكه ، وهو ما تنبعت له الدراسة الحديثة مؤخرا ، حيث جعلت الدراسة السمعية علما مستقلا بازاء الدراسة الادراكية ، وفصلت بينهما ، ورأت على موضوع الدراسة الادراكية دراسة ادراك الاشارات الصوتية ، وليس مجرد سماعها •

ونلاحظ على الاخوان تاثيرهم بمذهبهم في الكواكب والأماك في تعرضهم للصوت العام كغيره من الباحث اللغوية التي طرقوها كما سبق :

فنراهم يذكرون أن الأصوات والنعيمات سرت أولا في عالم السموات ، ثم في حركات الهواء ، ثم في حركات النبات ، ثم في أجسام الحيوان ، ثم في عالم الانسان (٥٥) •

ونرى تأكيدا لهذه الفكرة في قولهم :

« أصل الصوت في العالم الكبير الذي هو بمنزلة انسان كبير ، الهواء فيما دون ذلك القمر ، والنفس في عالم الأفلاك ، ولذلك توجد في الانسان الذي هو عالم صغير في الرئة وفي قوة نفسه معاني ما يدل عليه الصوت ، وكذلك الحركات والأصوات التي دون ذلك القمر انما هي مثالات ودلالات على تلك الأصوات الفاضلة والحركات المنتظمة ، وتلك أرواح وهذه أجساد » (٥٦) •

ونراهم يعتقدون فصلا طويلا في معرفة الأصوات الفلكية (٥٧) يؤكدون فيه أن للأفلاك حركات وأصوات ونعيمات « ولما كانت الأفلاك

(٥٥) انظر : المرجع السابق ج ٣ / ١١٣ •

(٥٦) انظر : المرجع السابق ج ٣ / ١١٤ •

(٥٧) انظر : المرجع السابق ج ٣ / ٩٠ ٩٥ •

دائرات والكواكب والنجوم متحركات وجب أن يكون لها أصوات ونغمات » • ويؤكدون أن حركات وأصوات عالم الأبدان « محاكية لحركات الأشخاص الفلكية ، والأصوات الملكية ومناسبة لها ، وتلك هي الأصل في جميعها ، وهذه فروعها » •

ويزيدون الفكرة وفسوها في قولهم : « اعلم أنه لو لم يكن لحركات أشخاص الأفعال أصوات ونغمات ، ولالملك كلام ولا تسبيح ولا تقديس ، فليسوا هم إذا أحياء ، بل هم أموات ، لأن الصمت بالموت أولى ، ولربما احتلت بعض الأحجار ببعض فيحدث من بينهما قرع في الهواء ولو كان الفلك ومن فيه بغير كلام ولا صوت ولا نطق لكان ما يكون تحته مشاكلا له ، وكان من يكون ساكنا بغير حركة • ولما كان هذا هو الأصل في البداية وجب أن يكون ما تحته مناسبا له ، لكن هو الأعلى زيادة عليه ، إذ كان هو الفاعل ، وهذا المفعول » •

ويؤكدون فكرتهم بنقلهم عن الحكماء قولهم : « أن المبررات والمعلولات هي التي تحاكي أحوال الموجودات الأولى التي هي علل لها » وقولهم : « أن الأشخاص الفلكية عال وآلات لهذه الأشخاص التي في عالم الكون والفساد ، وأن حركات تلك علة لحركات هذه وحركات هذه تحاكي حركات تلك ، فواجب أن تكون أصوات هذه ونغماتها تحاكي ما هو علة لها ، كمحاكاة الصبيان أصوات آبائهم وآمهاتهم وحركاتهم في لعبهم فانهم يحاكون أفعال الآباء والأمهات ، وهكذا التلامذة يحاكون أفعال الأساتذة » •

ونراهم يزعمون أن « أكثر العقلاء والعلماء من الناس يعلمون أن الأشخاص الفلكية وحركاتها المنتظمة وأصواتها الموزونة مع النسبة الفاضلة ، متقدمة الوجود على الحيوانات التي تحت فلك القمر ،

وحركاتها علة لحركات هذه ، وأن عالم النفوس متقدم الوجود على.
عالم الأجسام » *

ثم نراهم يقارنون بين أصوات العالَم الأرض بالعالَم العلوى
في قولهم :

« فقد بان بما ذكرنا وتحقق بما وصفنا أن السموات عامرة
بأهلها ، مسكونة ، ولسكانها أصوات ونغمات ، والأصوات والنغمات
والحركات التى هى أغراض تحدث من حركات الأجسام الحيوانية
وغير الحيوانية اثما تظهر ويبرز بحسب بروز تلك الأصوات فى ذلك
العالم * وهكذا أيضا تتبع هذه الحركات الجزئية تلك الحركات الكلية *
وهذه حركات ناقصة ، وتلك حركات كاملة ، وهذه حركات فانية ، وتلك
حركات باقية صالحة ، وتلك الحركات والأصوات والنغمات كلها
مفهومة ، وهذه غير مفهومة ، وتلك مستوية ، وهذه غير مستوية » *

وأما أصوات الأفلاك فانما هى تسبيح وتهليل وتكبير وتحميد ،
هكذا يثبتون الفصل بهذا : « اعلم أن من لدن فلك المحيط الى منتهى
فلك القمر أصواتا مرتفعة وألحانا مطرية ، ونغمات لذيدة ، ولغات
مختلفة وحركات مؤلفة ، ناطقة كلها بالتسبيح والتهليل والتكبير
والتحميد ، فقد بان لك بهذا الوصف معرفة الأصوات الفلكية والحركات
السموية » *

وقد أكدوا تلك المزاعم في مواضع متفرقة من رسائلهم (٥٨) *

(٥٨) أنظر المرجع السابق : رسالة الموسيقى : فصل فى أن:
لحركات الأفلاك نغمات كنغمات العيدان ج ١/٢٠٦ - ٢١٨ ، وفصل فى حقيقة
نغمات الأفلاك ج ١/٢٢٥ - ٢٢٩ ، وفصل فى نوادر الفلاسفة فى الموسيقى
ج ١/٢٣٤ - ٢٣٩ ، وأنظر رسالة علل اختلاف اللغات ورسوم
الخطوط والعبارات : فصل فى الفرق بين الصوت والكلام ج ٣/١١٤ -
١١٨ *

وقد كفانا العلامة ابن خلدون مؤنة إبطال ما ذهب إليه اخوان
الصفاء على ما ذكرناه في الفصل السابق *

وإذا استثنينا فكرة الكواكب وتأثيرها نرى الاخوان على وعى
بكثير من مسائل وقضايا الصوت بمفهومه العام ، وهي تتكشف عما في
تراثنا العلمي من حقائق علم الصوتيات وقضاياها ، وتقدم في الوقت
نفسه حقائق مذهلة للذين يظنون سبق الغرب في معظم قضايا هذا
العلم *

هذا عن الصوت بمعناه العام ** فماذا عن الصوت اللغوي ؟
هذا ما سنتحدث عنه في الفصل القادم *

الفصل الخامس

الصوت اللغوي

تحدثنا فيما سبق عن تصور اخوان الصفا للصوت بمفهومه العام ، وعرفنا أنه قرع يحدث في الهواء من تصادم الأجسام ، أو طاقة يحس بها الانسان نتيجة اهتزاز الأجسام المحدثه له ، وانتقال هذا الاهتزاز عبر الوسط الناقل الى أذن السامع ومنها الى جهازه الادراكي في المخ .

والصوت البشرى ضرب من هذه الطاقة ، يحدث نتيجة لاهتزاز أعضاء النطق ، وينتقل عبر الوسط الناقل الى الأذن ومنها الى المخ الذى يترجمها بدوره الى معان .

ويمثل الصوت البشرى مادة اللغة ومظهرها الواقعى الذى يسمى بالكلام ، وقد عبر ابن جنى عن ذلك فى تعريفه المشهور للغة بأنها « أصوات يعبر عنها كل قوم عن أغراضهم » (١) .

وقد أدرك الاخوان هذا فرأيناهم يتحدثون عما نسميه بالصوت اللغوى ، ومستويات نطقه ، والمراحل التى يمر بها فى عملية التواصل اللغوى .

مفهومات الصوت اللغوى :

لقد أطلق الاخوان على أصوات الانسان أصواتا منطقية ، وقسموها الى دالة وغير دالة ، ورأوا أن الأصوات الدالة هى الكلام أو ما نعتبر عنه بالأصوات اللغوية . ويقول الاخوان :

(١) انظر : الخصائص ج ١ / ٣٣ .

« وأما الأصوات المنطقية فهي أصوات الناس ، وهي نوعان :
دالة وغير دالة ، فغير الدالة كالضحك والبكاء والصياح ، وبالجمله كل
صوت لا هجاء له وأما الدالة فهي الكلام والأقوايل التي لها هجاء » (٢) .
ويقصدون بهجاء الصوت تقطيعه بالحروف عن طريق تحركات
أعضاء النطق ، يقول الاخولن :

« وأما الحيوان الإنسى فأصواته على نوعين : دالة وغير دالة ،
فأما غير الدالة فهي صوت لا هجاء له ، ولا يتقطع بحروف متميزة
يفهم منها شيء ، مثل البكاء والضحك والسعال والزئنين ، وما أشبه
ذلك . وأما الدالة فهي الكلام والأقوايل التي لها هجاء في أى لغة
وبأى لفظ قيلت » (٣) .

وقد أطلق الاخوان على هذا الصوت المقطع أو ما يسمى بصوت
اللغوى حرماً ونطقاً لفظياً ، اذ يقولون :

« النطق اللفظي إنما هو أصوات مسموعة لها هجاء ، وهي تظهر
من اللسان الذي هو عضو الجسد ، وتمر الى المسامع من الآذان التي
هي أعضاء من أجساد آخر » (٤) .

وأيضاً :

« ان الحروف اللفظية وضعت سمات ليستدخل بها على الحروف
الفكرية التي هي الأصل » (٥) .

(٢) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١ / ١٨٩ ، ج ٢ / ٤٠٧ ،
ج ٣ / ١٢٣ .

(٣) انظر : المرجع السابق ج ٣ / ١٠٢ .

(٤) انظر : المرجع السابق ج ١ / ٣٩٢ .

(٥) انظر : المرجع السابق ج ١ / ٣٩٣ . وهذا النص ضمنه احمد .

وأيضا :

« والدالة هي التي تلفظ بالحروف المعجمة ، وهي التي تدل على المعاني في أفكار النفوس » (٦) •

وهكذا نرى أن الصوت البشري أو ما سماه الاخوان صوتا منطقيا لا يكون لغويا أو حرفا لفظيا الا اذا قطع بصورة معينة في أثناء مروره من الرئة وحتى انطلاقه الى الهواء الخارجى •

أما اذا لم يقطع ذلك الصوت التقطيع الملائم لأصوات الكلام ووقف فيه بقصد أو بغير قصد عند مرحلة التصويت التي تتم بقيام الحنجرة والأوتار الصوتية بالدور المطلوب منها ، أو تتبع تلك المرحلة ببعض التحركات النطقية الناقصة بوساطة أجزاء ما فوق الحنجرة ، فانه يسمى صياحا أو أنينا أو ضحكا أو ما أشبهها •

وتلك الأصوات المنطقية غير المقطعة لا تنفى عنها الدلالة بشكل قاطع كما زعم اخوان الصفا ، وأنها مجردة عن الدلالات ، وفاقدة المعانى بين المجتمعات لكونها لا تمثل برموز مثل أصوات الكلام ، فهي وإن كانت قاصرة عنها فقد تحمل دلالات وتؤدي دورها بشكل بارز بين أفراد المجتمع فيما يعرف في الدراسة الحديثة بالدور شبه اللغوى الذى يعنى به ذلك العلم المعروف بعلم اللغة الاجتماعى •

فالصوت المصاحب لعملية الضحك مثلا ، كما يدل على السرور فى بعض المواقف يدل على السخرية أو العجب من الفرع فى مواقفه

=

ابن محمد بن المظفر بن المختار الرازى « ٦٣١ هـ » •
كتابه الخاص بحروف المعجم انظر فى مجلة معهد المخطوطات العربية ص ٩٤ المجلد ٢٠ ربيع الآخر ١٣٩٤ هـ ، مايو ١٩٧٤ م •
(٦) انظر المرجع السابق ج ٢ / ٤٦٨ - ٤٦٩ •
(م ت) - (أخوان الصفا)

أخرى يقتضيها المقام • وكذلك صوت الغنة له دلالات من هذا القبيل (٧) •

ولك أن تقرأ — مثلا — ما كتبه ابن منظور عن « النحنة » وتستخلص الدلالة شبه اللغوية التي يؤديها :

« النحيح : صوت يردده الرجل في جوفه ، وقد نح يذح نحيجا ، وننح إذا رد السائل ردا قبيحا • وشحيح نحيح اتباع كأنه إذا سئل اعتل كراهة للعطاء فرلاد نفسه لذلك • والمتنحج والنحنة : كالنحيح ، وهو أشد من السعال • الأزهرى عن النليث : النحنة التنحج ، وهو أسهل من السعال ، وهى علة البخيل ، وأنشد :

يكاد من نحنة وأح
يحكى سعال الشرق الأبح

والنحنة أيضا : صوت الجرع من الحلق ، يقال منه : تنحج الرجل (عن كراع) ، قال ابن سيدة : ولست منه على ثقة وأراها بالخاء ، قال بعض اللغويين : النحنة أن يكرر قول نح نح مستروجا ، كما أن الممرور إذا تنفس في أصابعه مستدفئا يقال : كه كه ، اشتق منه المصدر ثم الفعل فقيل : كهكه كهكة ، فاشتبقوا من الصوت • وذكر ابن برب في الحواش في فصل وغب :

كر الحيا أنح إرذب

« مثال : الأنح : البخيل الذي إذا سئل تنحج » •

(٧) ابحت تحت الطبع عن الغنة أوضحت فيه دلالتها شبه اللغوية •

المستويات الادائية للصوت اللغوي :

يمكن حصر مستويات نطق الصوت اللغوي في اثنين : تقطيعه على مستوى الأفراد ، ثم على مستوى التأليف والتركيب .
وقد أدرك الاخوان هذين المستويين .

● أما الأول فيظهر في قولهم عن الأصوات اللغوية :

« وهي تقطيع الصياح بانضمام أجزاء الفم فتحدث منه حروف ، كما تضم الشفتين بنوع ما فتحدث الباء ، وتضم بنوع آخر فتحدث الميم » (٨) . وهذا المستوى من التقطيع الذي يشير الى نطق أصوات الكلام مفردة وما يلزم لذلك من تحركات أعضاء النطق لاخراج تلك الأصوات هو ما يطلق عليه في الدراسة الحديثة مصطلح Articulation ويعنون به ما يعبر عن الجانب الفسيولوجي (العضوي) في إصدار وإخراج الأصوات (٩) .

وليس عجباً أن يلتفت الاخوان في رسائلهم الى هذا المستوى ، فإن علماء العربية كالخليل بن أحمد (ت ١٧٠هـ) وبوسيبويه (ت ١٨٠هـ) والمبرد (ت ٢١٠هـ) وغيرهم قد عالجوا أصوات اللغة من هذه الناحية فنظروا اليها في أفرادها وبحثوا في كيفية إخراجها وتقطيعها ملتفتين الى فكرة المادة الصوتية التي يجرى عليها هذا التقطيع .

وقد عبر ابن جنى عن فكرة الخليل وغيره — وقد كان معاصراً لهؤلاء الاخوان فيما نعلم — فقال :

(٨) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٢ / ٤٠٧ .

(٩) انظر : د. عبد الله ربيع : الملامح الادائية عند الجاحظ .

البيان والتبيين ٨٢ .

« اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا حتى يعرض له في الخلق والفم والشفتين منطاع تثنيه عن امتداده واستطالته ، فيسمى المقطع أيثما عرض له حرفا ، وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقامها ، وإذا تخطت لذلك وجدته على ما ذكرته لك » (١٠) *

● ولما كانت اللغة تتطلب تأليف تلك الأصوات المفردة وتركيبها : اتصير كلاما فاننا نرى الأخوان يلفتون النظر الى هذا التأليف والتركيب ، ويكرهون بهذا قد أدرخوا المستوى الأساسي الثاني في النطق والإداء • يقول الأخوان :

« النطق اللفظي هو الفاظ مؤلفة من الحروف المعجمة » (١١) • ويقولون :

« اعلم أن الحروف إذا ألغت صارت ألفاظا ، والألفاظ إذا ضمنت المعاني صارت أسماء ، والأسماء إذا ترادفت صارت كلاما ، والكلمات إذا اتسقت صارت أقاويل ، والأقاويل نوعان : موزون ونثر ، فالموزون كالشعر والرجز والقوافي ، والنثر نوعان : فمنه فصاحة وبلاغة ، ومنه مخاطبات ومحاورات ... » (١٢) •

وفراهم يعرفون الكلام بأنه « صوت بحروف مقطعة دالة على معان مفهومة من مخارج مختلفة » (١٣) •

(١٠) نظر : سر صناعة الاعراب ج ١/٦ بتحقيق : مصطفى السقا وآخرين • الطبعة الأولى ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤ •

(١١) النظر : رسائل الإخوان الصفا ج ١/٣٩٢ •

(١٢) النظر المرجع السابق ج ١/٣٩٣ •

(١٣) النظر المرجع السابق ج ٣/١١٤ •

ومن المعلوم أن النظرة الى الأصوات في هذا المستوى قديمة ، وقد ترتب عليها وقوف العلماء على كثير من الظواهر الصوتية التركيبية التي يرجع بعضها الى تأليف الكلمات وبنائها الصوتي ، ويرجع بعضها الآخر الى قوانين الجمع بين الوحدات الكلامية المختلفة .

وقد لاحظ المحدثون أيضا ما لاحظ القدماء ، وأكبروا على أن الشخصيات الفسيولوجية والفيزيائية للأصوات المفردة لا تتطابق تماما مع نظائرها عندما تكون الأصوات في سياقات صوتية (١٤) .

المراحل التي يمر بها للصوت اللغوي :

يمر الصوت اللغوي بمراحل متعددة في أثناء عملية التواصل التي هي عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات ، تجمع بين متكلم ومستمع ووسط بينهما ينتقل عبره الصوت . وتبدأ تلك العملية بأحداث نفسية وعمليات عقلية تجري في ذهن المتكلم قبل أو في أثناء الكلام ، ثم يتحقق لتلك الأحداث وجود نطقي حين يرسل المخ أوامره الى أعضاء اللسان على هيئة مثيرات عصبية تنطلق عبر ممرات عصبية الى تلك الأعضاء ، حيث تقوم بتحركات معينة ، فتعوق تدفق الهواء القادم من الرئتين ، مما يترتب على ذلك عملية تقطيع للأصوات فتظهر على صورة أصوات كلامية منطلقة عبر الشفتين الى الهواء الخارجى . ثم تنتقل تلك الأصوات — على هيئة موجات صوتية عبر وسط ناقل — الى أذن المستمع فتحدث أيضا عمليات عضلية وعصبية وعضوية تنتهى بأحداث نفسية وعمليات عقلية تجري في ذهنه لتفسير تلك الموجات وإدراك ما تحمله من معان .

(١٤) انظر : د . عبد الله ربيع : الملامح الادائية عند الجاحظ في البيان والتبيين ص ٨٤ ، وانظر : Heffner : General phonetics P.163

ويهتم علماء النفس ونفر من علماء الأصوات بتلك الأحداث النفسية التي تجرى في ذهن المتكلم أو المستمع ، بينما يركز غالبية علماء الأصوات على الجانب اللغوي المادي المتمثل في الكلام المنطوق بالفعل في الموقف المعين ، ودراسة جوانبه الصوتية المتمثلة في عمليات الأصدار والانتقال والاستقبال •

وعلى أية حال فقد صارت كل مرحلة من مراحل التواصل اللغوي علما مستقلا ، وتتنوع وتعددت فروع الدراسات الصوتية مثل علم الأصوات النطقى (الفسيولوجى) ، والفيزيائى (الأكوستيكى) ، والسمعى ، والنفسى أو الإدراكى ، كما ظهرت علوم أخرى حديثة تهتم بالصوت في مرحلته الذهنية مثل علم اللغة العصبى ، وعلم النفس العصبى ، وعلم النفس اللغوى الى غير ذلك من العلوم •

وقد كانت لإخوان الصفا جهود تتصل بالصوت في مراحل المختلفة حتى النفسية منها • ويهمننا أن نظهر تلك الجهود في ضوء ما أتبع لنا مما كتبه المحدثون •

وقد قضت النصوص التي جمعتها من تراث الإخوان أن نظهرها ونناقشها في ضوء المراحل الخاصة بإصدار الصوت وانتقاله وسماعه وإدراكه •

أولا : إصدار الأصوات اللغوى :

لا يتم نطق الصوت اللغوى — سواء في حالة الأفراد (التقطيع) أو السباق « التأليف » إلا بوساطة أعضاء النطق • ولذا نرى إخوان الصفا يشيرون الى أعضاء النطق الرئيسية التي تصحب الأصوات يقولون : والجروف اللفظية إنما هي أصوات تحدث في الحلقوم

والجفك وبين اللسان والشفيتين ، عند خروج النفس من الرئة ، بعد
تبرئها الحرارة الغريزية التي في القلب « (١٥) » .

والرئة هي مستودع النفس أو الهواء الذي ينطلق منها لإحداث
الصوت ، وإذا نرى الإخوان يشيرون الى ذلك حين ذكروا أن « الرئة
بيت الهواء » (١٦) . والرئة في الحقيقة ثنتان : اليمنى ويسرى ، وتتصل
كل منهما بالشعبة التي تفصل بينها وبين القصبة الهوائية ، وهما جسم
مطاط قابل للحركة فيتمدد وينكمش ، ويتكوذان مما يسمى بالحوصلات
الهوائية والأغبيب الشعرية والشعبيات الهوائية ، وتمتلئ جميعها
بهواء التنفس .

وإذا كان الإخوان لم يشيروا الى ازدواج الرئة فاننا نراهم
يربطون بينها وبين أعضاء أخرى في الجسد تساعد على أداء
وظيفتها ، ويوضحون من خلال هذا الربط عملية الشهيق والزفير .
يقول الإخوان :

« الرئة بيت الريح يخدمها ويعينها في أفعالها أربعة أعضاء أخرى
وهي الصدر والحجاب واللقوم والمنخران ، وذلك أن من المنخرين
يدخل الهواء المستنشق الى اللقوم ، ويعتدل فيه مزاجه ،
ويصل الى الرئة ويتصفى فيها ، ثم يدخل الى القلب ويروح الحرارة
الغريزية هناك وينفذ من القلب الى العروق الضاربة ويبلغ الى

(١٥) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١ / ٣٣٠ . وهذا النص
ضمنه أحمد بن محمد بن المظفر بن المختار الرازي (ت ٦٣١هـ) كتابه
الخاص بحروف المعجم . ونصه « . . والحنكين وفي اللسان . . النخ »
انظره في مجلة معهد المخطوطات العربية ص ٩٤ .
(١٦) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣ / ١١٤ .

مسائر أطراف البدن الذى يسمى النبض : ويخرج من القلب الهواء المحترق الى الرئة ، ومن الرئة الى الحلقوم ، ومن الحلقوم الى المنخرين أو الى الفم . والصدر يخدم الرئة فى فتحة لها عند استنشاق الهواء وضمه اياها عند خروج النفس . والحجاب تحفظ الرئة من الآفات العارضة لها عند الصدمات والدفعات واضطراب أحوال المبدن » (١٧) •

وقد أكدت الدراسة الحديثة ما ذكره الاخوان ، وأوضحت أن حركة القفص الصدرى (المكون من اثني عشر زوجا من الأضلاع) متزامنة مع حركة الحجاب الحاجز (الفاصل بين الجهازين التنفسي والهضمي) فى الضغط على الرئتين ، حيث تتم عملية الزفير التى تتم بواسطة عملية الكلام (١٨) •

وتعد حركة الحجاب الحاجز والقفص الصدرى والرئة من الحركات الطبيعية التى لا اختيار للإنسان فيها : وذلك فى عمليتي الشهيق والزفير ، بخلاف الحركة العضوية اللازمة لعملية الكلام فانها من الحركات المقصودة على ما ذكره الاخوان وأكد المحدثون (١٩) •

وايجاد التيار هوأى — مع تلك الحركات — شرط لايجاد الصوت ، وكما عرفنا أن هذا التيار اما أن يكون داخلا وذلك فى حالة الشهيق ، أو خارجا فى حالة الزفير • وجميع اللغات تستخدم هواء الزفير فى اصدار جميع أو معظم أصواتها ، « ولا يعرف اللغويين حتى الآن لغة

(١٧) انظر : المرجع السابق ج ٢ / ١٩٠ •

(١٨) انظر : د. عبد الله ربيع ، عبد العزيز علام : علم الصوتيات

٨٧ — ٩١ •

(١٩) انظر : المرجع السابق ، ورسائل اخوان الصفا ج ٣ / ٢٢٩ •

— ٣٣٠ •

تنتج بعض أصواتها مستخدمة هواء الشهيق كسمة مميزة لانتاج هذه الأصوات » (٢٠) • وفي هذا يقول الاخوان « اعلم أن هذه الأحرف لا تحدث الا بارسال النفس المستنشق من الهواء ، وارساله وقطع اللسان لها في مخرجها ومجاريها » (٢١) •

ونراهم يشيرون الى أن أبعد المخارج أقصى الحلق :

« اعلم يا أخى أن الكلام هو صوت بحروف مقطعة ، دالة على معان مفهومة من مخارج (٢٢) مختلفة ، وأبعد مخارج الحروف أقصى الحلق ، وهو مما يلي أعلى الصدر » (٢٣) •

واذا كان المحدثون يرون أن الحنجرة هي أبعد المخارج ، فإن أقصى الحلق بمفهومه العربى القديم يمكن أن يشملها • وقد أظهرت الدراسة الحديثة المعتمدة على معطيات علم التشريح أن للحلق ثلاثة أقسام ، يتصل أسفلها بالحنجرة ، وأعلاها بالفم (٢٤) •

وبهما يكن من أمر فإن الاخوان قد ذكروا مكونات آلة النطق الرئيسية ، والتي تشمل على الرئة والصدر والحجاب والحنقوم والمنخرين والفم وما يشمل عليه من لسان وشففتين ، وهى تلك المكونات التى صارت دراستها علما فى زماننا يعرف بعلم الأصوات اللغوى (الفسيولوجى) •

(٢٠) انظر : د. تفرید عنبر : دراسات صوتية ٩٤ •

(٢١) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣/٣٣٠ •

(٢٢) يعنى بالخارج المكان الذى يخرج منه الصوت ، أى مكان

نطقه وتقطيعه حيث تحدث التحركات الخاصة به فى ممر النطق •

(٢٣) انظر : المرجع السابق ج ٣/١١٤ •

(٢٤) انظر : د. عبد الحميد محمد أبو سكين : دراسات فى التجويد

والأصوات اللغوية ٤١ •

وقد أدرك الاخوان أهمية تلك المخارج وأثرها في صحة النطق حين عرضوا لما سموه اتساع الحروف ، وسهولة التصرف في مخارج الكلام ، وخفة اللغة • وإنذى يتبادر الى الذهن هنا من الاتساع والسهولة والخفة هو ذلك الانسياب الصوتي وعروج الاصوات أو الكلام من أماكن التقطيع والنطق دون تعثرات أو عقبات لغوية أو فسيولوجية أو عصبية ، وهذا لا يمكن أن يتم الا اذا كانت أعضاء النطق في كامل صلاحيتها ومرونتها الحركية والعصبية ، والا اذا كانت التحركات اللازمة لإخراج الأصوات متوافقة منسجمة غير متنافرة أو متباعدة •

وقد أرجع الاخوان اتساع الحروف وسهولة التصرف في مخارج الكلام وخفة اللغة الى عوامل فلكية وجغرافية وفسيولوجية ونفسية تظهر في قولهم :

« وأصل الأصوات في الرئة هواء يصعد الى أن يصير الى الحلق فيديره اللسان على حسب مخارجه ، فان خرج على حروف مقطعة مؤلفة عرف معناه وعلم خبره ، وان خرج على غير حروف لم يفهم كان كالفهاق والرغاء والسعال وما أشبه ذلك ، فان رده اللسان الى مخرجه المعلوم في حروف مفهومة يسمى كلاما ونطقا بأى لفظة كانت على حسب الموافقة ومساعدة الطبيعة لكل قوم في اتساع حروفهم وسهولة تصرفهم في مخارج كلامهم وخفة لغاتهم بحسب مزاج طباعهم وأهوية بلدانهم وأغذيتهم ، وما أوجبت لهم دلائل مواليدهم ، وما تولاهم من الكواكب في وضع أصل تلك اللغة في الابتداء الوضعي والمنهاج الشرعي وما تفرع من ذلك الأصل وما ينقسم من ذلك النوع » (٢٥) •

ونحن لا نسلم بذلك العوامل جملة ، فلقد تبين لنا من الفصول السابقة بطلان ذلك العامل الفلكي الذي يعتقده الاخوان من دلالات الخواكب وتأثيرها في الكائنات ويعدونه عاملاً أصلياً . أما البيئة الجغرافية فإن أثرها لا ينكر في خصائص اللغة وأصواتها ، اذ جميع خصائص الاقليم الطبيعية تنطبع في لغة سكانه ومن أجل ذلك تنشأ فروق كبيرة في مختلف مظاهر اللغة بين سكان المناطق الحارة والمعتدلة والباردة ، وبين سكان المناطق الجبلية وسكان الصحراء وسكان الأودية ، وبين سكان المناطق الشمالية والوسطى والجنوبية ، كذلك تنشأ فروق كبيرة بين أفراد الفصيلة الواحدة ، بل بين لهجات اللغة الواحدة . أما اختلاف الشعوب بعضها عن بعض في خواصها الوراثية المتعلقة بأعضاء النطق فإنا له كذلك أثراً لا يستهان به في خواص اللغة ، وذلك أن أعضاء النطق تختلف في بنيتها واستعدادها تبعاً لاختلاف الشعوب وتنوع الخواص الطبيعية المزود بها كل شعب ، والتي تنتقل عن طريق الوراثة من السلف الى الخلف . ومما يدعم ما نذكره قول الاخوان :

« اعلم أن اختلاف الناس في كلامهم ولغاتهم على حسب اختلافهم في أجسادهم وتركيباتهم ، وأصل الاختلاف في اللغات هو اختلاف مخارج الحروف ونقصها عن تلبية ما يؤديه البليغ منها » (٢٦) .

أما اختلاف الشعوب بعضها عن بعض في الخواص النفسية ومناحي التفكير والوجدان وما جبلو عليه من طباع وأخلاق فإنها تتضافر مع العوامل المتقدمة في خلقه فروق في خصائص اللغة بين البشر .

ولك أن تقرأ ما كتبه الاخوان عن هذا العامل النفسى الذى يؤثر
فى السلوك الانسانى بصفة عامة يقولون :

« اعلم أن أمزجة الأبدان كثيرة الفنون ، وطبائع الحيوانات
كثيرة الأنواع ، ولكل مزاج وطبيعة نغمة مشاكلة ، ولحن ملائم لها لا
يحمى عددها الا الله تعالى . والدليل على ذلك أنك إذا تأملت وجدت
لكل أمة من الناس ألحانا ونغمات وأصواتا يستلذون ويفرجون بها
لا يستلذها غيرهم ولا يسر بها سواهم ، وذلك لإختلاف لغاتهم وتباين
أمزجتهم وطباعهم وما جرت به العادات والأخلاق . وهكذا يجرى فى
أصحاب لغة واحدة : أقوام يستلذون ألحانا ونغمات وأصواتا لا
يستلذها غيرهم من لغتهم ، وهكذا ربما تجد انسانا واحدا يستلذ وقتنا
ألحنا ما ، ويعافه وقتنا آخر . وهكذا تجد حكمهم فى مأكولاتهم
ومشروباتهم ومسموماتهم وملبوساتهم وسائر الأنواع من الملاذ
والزينة ، كل ذلك بحسب تغيير أمزجتهم وإختلاف طبائعهم وما جرت
به عاداتهم ، وما تولاهم من الأسباب الفلكية ، والأحكام السماوية فى
أوقات موليدهم ومساقط نطفهم » (٢٧) .

هذا وقد يفسد الكلام وتحدث اضطرابات فى التلقن واخراج
المقاطع وتقطيعها مما ينتج عنها عيوب نطقية بالرغم من سلامة آلة
الصوت . وقد رد الاخوان على من يزعم خلاف ذلك ويرى أن فساد
الكلام من فساد المزاج ، حين قالوا :

« وقد زعم بعضهم أن فساد الكلام من فساد التركيب وفساد
المزاج ، وليس هو كما زعم ، وانما هو من إختلاف مخارج الحروف
فى قولها وضعفها ، وهو فساد فى اللسان يقلب ويعدل الحروف عن

من خارجها ، ولم كان من فساد المزاج لكنت اللغة كلها في حرف واحتد
من مخرج واحد ، ولكنت ترجع الى الاستواء عند صلاح المزاج كما
يحدث بالفضيح الكلام ، وضعف الصوت من فساد المزاج وغلبة بعض
الطوائع ، واذا عاد الى الأمر السالم عاد كلامه الى المعهود منه أولا
واللغة ليست كذلك ، والناس فيها مختلفون ، وغير متفقين في الحروف
التي يقع الخطأ فيها والعدول بها عن استوائها الى خلافها ، وهي
أغراض كثيرة تختص باللسان ، وتعرض فتفسد الكلام ، وهي زمانة
لازمة مثل الخلطة ، والفاقة ، والتمتمة ، والعقلة ، والحكمة ،
والرنة ، واللثة ، وما أشبه ذلك » (٢٨) .

وسوف نلقى الضوء على تلك العيوب في الفصل الخاص باللغة
العربية ان شاء الله .

ثانيا : انتقال الصوت اللغوي :

لقد تحدث الاخوان عن تلك المرحلة التي تنتقل أصوات الكلام
خلالها عبر الهواء ، وباعتبار تلك الأصوات ضربا من الصوت العام
كما مر .

وقد صارت دراسة تلك المرحلة علما في زماننا يعرف بعلم
الأصوات الفيزيائي أو (الأكوستيكي) (٢٩) ، وقد قطع شوطا كبيرا

(٢٨) انظر المرجع السابق ج ٣ / ١١٨

(٢٩) نسبة الى « أكوستيك » وهو فرع من الفيزياء ، ويفضل
المعكنور كمال بشر التسمية الاولى بفرض التسهيل على القارئ العربي ..
ويرى أنه الترجمة العربية للمصطلح الثاني إلا بعبارة طويلة . انظر
علم اللغة العام : الأصوات ١٧ ط ٤ دار المعارف ١٩٧٩ م

في ميدان التقدم حيث استخدمت أجهزة عديدة في تحليل الصوت وتركيبه (٣٠) •

وقد عرف الاخوان أصوات الكلام بأنها « أصوات محمولة في الهواء فمدركة بطريق الأذنين بالقوة السامعة » (٣١) •

والنشاط الأكوستيكي لا يقتصر دوره على قنائة التوصيل الخارجية ، وانما يبدأ من الجهاز الصوتي للمتكلم وينتهي بجهاز الاستقبال لدى السامع •

فالإنسان عندما يتكلم يحدث تيار نفسه وتحركات لسانه وشفثيه اضطرابا في الهواء الداخلي تسمى موجات صوتية تغير من ضغطه داخل المر الصوتي ، ثم ينتقل الى الهواء الخارجى بصورة خاصة حتى تصل الى أذن السامع •

ومعنى هذا أن اختلاف أعضاء النطق هو الذى يحدد طبيعة الموجات الصوتية وما يترتب على ذلك من تنوع أصوات الكلام ، وقد سبق أن نقلنا عن الاخوان قولهم « اعلم أن هذه الأحرف لا تحدث الا بارسال النفس المستنشق من الهواء وارساله وقطع اللسان لها في مخارجها ومجاريها » •

وقد سبق أن عرفنا في أثناء الحديث عن الصوت العالم في الفصل السابق أن الاخوان كانوا على وعى بالموجات الصوتية ومداها وسعتها، بما يعنى عن الاعادة هنا •

(٢٠) انظر : د • محيى صالح بن عمر : الثورة التكنولوجية وال...

ص ١٥ وما بعدها : الطبعة الأولى • بغداد ١٩٨٦ م •

(٣١) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١ / ٣٩٢ • والنص ذكره

الرازى في كتاب الحروف • انظره في مجلة معهد المخطوطات العربية •

وإذا كان علماء الصوت يرون أن هناك تلازم وترايبط بين
المرحلتين : الفسيوجية والأكوستيكية ، فإننا ترى الأخوان يربطون
بيئتهما • ويتضح هذا في ربطهم بين مدى الصوت وانتشاره وبين قوة
رئة الانسان وأعضائه (بل والحيوان بصفة عامة) •

يقولون :

وكذلك صوت الحديد والذهب والفضة وغير ذلك فإن أصواتها
إذا حدثت تكون مختلفة بحسب اختلاف جواهرها وتباين طباعها من
الصلابة والرخاوة واللين واليبوسة ، ومثالها في ذلك مثال أصوات
الحيوانات فكلما كان في نفسه أمثل ورئته أقوى كان صوته أعظم
وأبعد مسافة في الهواء لشدة حركته « (٣٢) » •

ويقولون :

« فأما مخارج (الأصوات) من سائر الحيوان فإنها من الرئة
الى الصدر ، ثم الى الحلق ثم الى الفم ، ثم يخرج من الفم شكل على
قدر عظم الحيوان وقوة رئته وسعة شديقه ، وكلما اتسع الحلقوم
وانفرج الفكك وعظمت الرئة زاد صوت الحيوان على قدر قوته
وضعه » (٣٣) •

ويقولون :

« ومن أراد أن يكون له صوت طويل يمكث في الهواء فليتعلم
ذلك ويجهتد في جمع الهواء حتى يكون إرساله بحسب ما اجتمع فيه
فيذكر بذلك ما يريد وان تأذى وتآلم » (٣٤)

(٣٢) انظر : المرجع السابق ج ١٠٣/٣

(٣٣) انظر : المرجع السابق ج ١٠٢/٣ •

(٣٤) انظر : المرجع السابق ج ١٠٤/٣

(ج) مرحلة سماع الصوت اللغوى :

لقد سبق أن تحدثنا فى الفصل السابق عن كيفية التقاط الأذن وسماعها الصوت بمفهومه العام * ولقد أدرك الاخوان مدى التلازم والترابط بين هذه المرحلة التى صارت علما فى زماننا يعرف بعلم الاصوات السمعى وبين المرحلتين السابقتين :

فإذا كان اختلاف تحركات أعضاء النطق هو الذى يحدد طبيعة الموجات الصوتية ومداها وسعتها ، فان لهذا المدى تأثيره على الأذن البشرية ، فكلما كانت سعة الموجة أكبر كلما أحست الأذن بقوة الصوت وشدة تأثيره ، ولذلك نرى الاخوان يذكرون ثمانية أنواع من الأصوات ، كل اثنين منها متقابلان : الجهور والخفيف ، والحاد والغليظ ، والعظيم والصغير ، والسريع والبطيء (٣٥) *

ويتضح الربط بين الجوانب الفسيولوجية والسمعية والنفسية فى قولهم عن أصوات الحيوانات بصفة عامة :

« واعلم بأن أصوات الحيوانات المتنفسة متفنة كثيرة الاختلاف من الطول والقصر والغلظ والعظم والصغر والجهر والخفيف وفنون الطنين والزمير والألحان والنغم : كل ذلك بحسب طول أعناقها وقصرها ، وسعة مداخيرها وحلاقيما ، وضيقها ، وصفاء طباعها وغلظها ، وشدة قوة استنشاقها الهواء وإرسالها وتعديل أنفاسها بعد ترويج الحرارة الغريزية التى فى مداخيرها أو فى عمق أجسادها » (٣٦) *

ونلقى الضوء فيما يلى على أنواع الأصوات التى ذكرها الاخوان كى يستطيع القارئ أن يفرق بينها :

(٣٥) انظر : المرجع السابق ج ١ / ١٩٣ - ١٩٥ ، ج ٣ / ١٣٦ - ١٣٧ .

(٣٦) انظر : المرجع السابق ج ٢ / ١٩١ - ١٩٢ .

جهاز الصوت وخفته :

لقد ربط الاخوان بين جهاز صوت الانسان وبين سلامة أعضاء نطقه وقوته ، ومعنى هذا أنهم ربطوا بين الجانبين الفسيولوجي والفيزيائي وبين احساس الأذن بجهاز الصوت • يقول الاخوان :
« وأما الجهير والخفيف من الأصوات فيحسب قوة الحركة وضعفها ، والمثال في ذلك صوت العليل السقيم بالقياس الى صوته الصحيح المعافى ، وصوت العليل الى من هو أضعف منه وأستقم حتى يكون أجهر الأصوات من الناس ما كان في غاية الصحة وسلامة الحواس ، واستواء الآلة ، وأخفاهن ما كان في الغاية بخلاف هذه الصفة لما به من ضعف القوة وهلة الحركة وفساد الجملة وغير ذلك » (٣٧) •

ويقولون :

« والحيوانات الكبيرة الرائات ، الطويلة الحلاقيم ، الواسعة المناخر والأشداق ، تكون جهيرة الأصوات ، لأنها تستنشق هواء كثيرا وترسله بشدة » (٣٨) •

ويقولون :

« وكلما اتسع الحلقوم وانفرج الفك عظميت الرئة زاد صوت ذلك الحيوان على قدر قوته وضعفه » (٣٩) •

وقد قابلوا بين الجهارة وبين الخفاء كما هو أوضح في النص قبل السابق •

(٣٧) انظر : المرجع السابق ج ٣ / ١٣٧ •

(٣٨) انظر المرجع السابق ج ١ / ١٩٠ •

(٣٩) انظر : المرجع السابق ج ٣ / ١٠٢ •

وقد عبروا عن الجهارة في بعض المواضع من رسائلهم بالثقل في مقابل الخفة (٤٠) ، ويبدو أن المقصود بالجهارة أو الثقل هنا هو ما يسميه علم الصوتيات الحديث شدة الصوت وبعد مداه . وقد أطلق هذا العلم على الاحساس بالشدة مصطلح *Loudness* ، وهو يرتبط فسيولوجيا بالطاقة العضلية لأعضاء النطق والضغط تحت الحنجرة ، فكلما ازداد هذا الضغط وزادت تلك الطاقة كلما اتسع مدى الموجات الصوتية واشتد الصوت ، ويرتبط فيزيائيا بأمور ، أهمها اتساع مدى الموجات الصوتية *Amplitude* التي تشكل الصوت ، فكلما كانت تلك الموجات أكثر اتساعا أحست الأذن بأن الصوت أشد في السمع (٤١) .

حدة الصوت وغلظته :

لقد ربط الاخوان بين الجانبين الفسيولوجي والفيزيائي وبين احساس الأذن بحدة الصوت وغلظته حين قالوا :

« وأما أصوات الحيوانات ذوات الرئة واختلاف أنواعها وفنون نغماتها فهي بحسب طول أعناقها وقصرها ، وسعة حلقيمها وتركيب حناجرها ، وشدة استنشاقها الهواء وقوة إرسال أنفاسها من أفواهها ومناخرها » (٤٢) .

وقد عبر الاخوان عن حدة الصوت في بعض المواضع بالحدة (٤٣) .

(٤٠) انظر المرجع السابق ج ١٣٦/٢ .

(٤١) انظر : د. عبدالله ربيع ، عبء العزيم علام : علم الصوتيات

١٣٣ - ١٣٣٢ .

وانظر : Heffner : General phonetics P. 51

(٤٢) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١٩١/١ ، ج ١٣٣/٣

(٤٣) انظر : المرجع ج ١٣٦/٢

١٣١.

وقد عرفها الفيزيائيون بأنها الخاصية، التي تتميز بها الأذن
للأصوات أو النغمات من حيث الحدة والغلظة ، وأطلقوا عليها حدة
الصوت أو النغمة • gitch

واحساس الأذن بحدة الصوت وغلظته يتوقف أساسا على
ما يسمى في الدراسة للحديث التردد الأساسي في الموجات المركبة ،
والذي سبق ذكره في الفصل السابق ، وهذا التردد يقابل - فسيولوجيا
- اهتزاز الوترين الصوتيين في الحنجرة ، فكلما زاد معدل اهتزاز
الوترين أحست الأذن بارتفاع نغمة الصوت • وزيادة هذا المعدل
أو نقصه تتوقف بالطبع على طبيعة هذين الوترين وحجمهما ودرجة
توترهما ، بالإضافة الى طبيعة ضغط الهواء تحت الحنجرة • ومع مرونة
الوترين وقدرة الانسان على التحكم في ضغط الهواء يمكن أن يغير في
نغمة أصواته ، ولذلك أثر كبير في أداء الكلام (٤٤) •

ونلاحظ أن الاخوان يربطون بين جهازة الصوت ونغمته واختلاف
أنواعه من ناحية وبين ما سموه بسعة الحلاقيم والمفاخر والأشداق
« التي تعمل صندوق رنين يضخم الصوت ويقويه » •

وهم بذلك يذكرون بما تسميه الدراسة الحديثة لون الصوت أو
نوعه voice quality • وهو يرتبط - فسيولوجيا - بصناديق
الرنين التي تصنعها تحركات أعضاء النطق وما تقوم به هذه الصناديق
من ترشيح وتقوية لبعض النغمات التي تمر بها • ويرتبط - فيزيائيا -
بمعدلات التوافقية التي تصاحب التردد الأساسي وتوزيعها ،

(٤٤) انظر : د • عبد الله ربيع ، عبد العزيز علام • علم الصوتيات

١٣٣ - ١٩٤

Heffner : General phonetics P. 46

وانظر ٢

والشدة الفردية لكل منها (٤٥) • ويعطى المتكلم صوته اللون العام
عندما يختار - مكان تلك الصناديق وهيئاتها تبعاً لظروفه النفسية
ومقتضى الحال أو السياق الكلامي •

كبر الصوت وصغره :

تحدث الاخوان عن نوع آخر من الأصوات وصفوه بالكبر في
مقابل الصغر ، وعقدوا فصلاً في رسائلهم بينوا فيه اختلاف الأصوات
في الصغر والكبر (٤٦) • وقد عبروا عن كبر الصوت بالعظم في مقابل
الصغر أيضاً (٤٧) •

ويبدو أن كبر الصوت وعظمة - في نظرهم - يجمع بين جهارته
وشدته وبعد مداه من ناحية ، وبين غلظته وارتفاع نغمته من ناحية
أخرى ، ولذلك نراهم يذكرون أن العلة في عظم الصوت إنما ترجع الى
عظم الجسم المصوت وشدة صدمه الهواء وكثرة تموجه في الجهات (٤٨) •
وقد ضرب الاخوان أمثلة توضح كبر الصوت بمفهومه العام •
يقولون :

« فأما الكبير والصغير من الأصوات فإن المثال فيها أصوات الطبول
الكبار والصغار ، وذلك أن أصوات طبول المواكب إذا أضيفت الى
أصوات اللهب كانت كبيرة ، وإذا أضيفت الى أصوات طبول الكوس (٤٩) »

(٤٥) انظر : د. عبد الله دربيح ، عبد العزيز علام : علم الصوتيات
: ، ١٣٥٠

John Laver : The phonetic description of voice quality P. 14

(٤٦) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣ / ١٣٢

(٤٧) انظر : المرجع السابق ج ٣ / ١٣٢ - ١٣٥ ، ج ١ / ١٩٣

(٤٨) انظر : المرجع السابق ج ٣ / ١٣٣ ، ج ١ / ١٩٠

(٤٩) الكوس : طبل عظيم يضرب في ثغور خراسان عند البغية -

يسمع صوته من فراغ • انظر المرجع السابق ج ٣ / ١٩٣

كانت صغيرة ، وإذا أضيف صوت طبول الكوس الى صوت الرعد كان صغيرا ، وعلى هذا المثال تعتبر الأصوات في الصغر والكبر بإضافة بعضها الى بعض » (٥٠) •

وأما بالنسبة لصوت الانسان فقد ربطوا بين كبره وبعد مداه وبين كبر الرئة وطول الحلاقيم وسعة المنافذ والأشداق ، وهذا يعنى بالتعبير الحديث أنهم أدركوا المترابطات الفسيولوجية والفيزيائية والسمعية في احساس الأذن بعظم الصوت •

وكبر الصوت بما اشتمل على جهارة وشدة وبعد مدى وغلظة وارتفاع نغمة يتميز بالوضوح السمعى بدرجة كبيرة ، ولذلك استخدم هذا الصوت وسيلة اتصال أو اعلام عند الشعور بالخطر مثل ما كان يحدث في لغور خراسان ، حيث كان يضرب فيها طبل عظيم عند النفير ، يسمع صوته من تراسخ كما ذكر الأخوان •

وقد درس المحذرون هذا الوضوح السمعى تحت مصطلح sonority وقصدوا به تلك الصفة التى يتصف بها الصوت العام بناء على مظهره المثلث الضخم ، ويتصف بها الصوت الانسانى بناء على درجة الجهر المسموعة ، ومدى خلو الممر الصوتى من الاعاقات (٥١) • وهذا الوضوح يقابل من الناحية الفيزيائية بالطاقة الاكوستيكية، وتحدد مقادير تلك الطاقة بالطرق (الالكترونية) •

وإذا كان علم الصوتيات يفصل اليوم بين القوة والشدة من ناحية، وبين الطبقة والنغمة من ناحية أخرى ويتحدث الى جانب ذلك عن

(٥٠) انظر: المرجع السابق ج ٣/ ١٣٦ ، وراجع ج ١/ ١٩٣
(٥١) انظر Heffner : General phonetics PP. 74 - 75

الوضوح السمعي، ويعالج كل هذا من الجوانب الفسيولوجية،
والفيزيائية والسمعية بمناهجها المختلفة عندما يريد تصوير الأداء
وتوضيح جوانبه فأننا بالطبع لا ننتظر من الاخوان وأمثالهم ممن عاشوا
في تلك الفترة المبكرة أن يقدموا ما لم يجد به زمانهم ولم تسمح به
طبيعة التقدم والتطور العلمى في أوانه . ومن ثم فقد رضينا في هذا
الجانب بما أشاروا اليه .

سرعة الصوت ويطؤه :

تحدث الاخوان عن الصوت بمفهومه العام من ناحية السرعة
والبطء حين قالوا :

« وأما السريع والبطيء من الأصوات بإضافة بعضها الى بعض
فهى التى تكون أزمان سكونات ما بين نقراتها قصيرة بالاضافة
الى غيرها ، والمثال فى ذلك أصوات كؤذينات القصارين (٥٢) ومطارق
الحدادين ، فأنها سريعة بالاضافة الى أصوات دق الرزازين (٥٣)
والجصاصين (٥٤) ، وهى بطيئة بالاضافة اليها ، وأما بالاضافة الى

(٥٢) كؤذينات أى مطارق والقصار والمقصر « بتشديد الصاد » :
المحور للثياب لانه يدها بالقصرة « يفتح الصاد » التى هى القطعة من
الخشب ، وسرفته القصاة « . انظر لسان العرب « قصر » . ويبدو
« الكو » كلمة غير عربية وهى المقابلة للقصرة او المقصرة التى هى خشبة
القصار .

(٥٣) الرزاز : بالغ الارز . المعجم الوسيط « رز » أو هو من قولك :
رززت الباب أى أصلحت عليه الرزة . انظر : لسان العرب « رز » .
(٥٤) الجصاص : صانع للجص « يفتح الميم وكسره » وهو الذى
يطلق به . انظر : المرجع السابق « جصص » .

أصوات مجازيف الملاحيين فهي سريعة ، وعلى هذا المثال تعتبر سرعة الأصوات وبطؤها بإضافة بعضها الى بعض » (٥٥) •

والصوت الانساني — باعتباره ضربا من الصوت العام — يتصفه أيضاً بالسرعة والبطء ، واذا كنا لا نلمح في رسائل الاخوان شيئاً يتصل بسرعة الصوت الكلامي وبطئه فاننا نرى علماء التجويد قد استطاعوا أن يحددوا بصورة عامة بعض أنماط من سرعات تلاوة القرآن الكريم على نحو ما يذكرون من تحقيق وحذر وتدوير وترتيل (٥٦) •

أما علماء اللغة فانهم لم يصلوا الى تلك الدرجة واكتفوا في هذا المجال بالعبارات العامة والألفاظ ذات الدلالة الواسعة •

أما في الحديث فقد درست سرعة الأصوات الكلامية تحت ما سمي بالترمين أو سرعة الكلام 'The Tempo' ، ويعنى بها توزيع زمن التكلم على أصوات المنطوق توزيعاً يتفق مع نظام اللغة وقوانين الكلام فيها ، فينال كل صوت من أصوات المنطوق ما له من كم زمني Duration (وهو تلك الفترة التي تستغرقها أعضاء النطق في استجاباتها وتحركاتها لصنع الصوت المعين) •

وتتحدد السرعة المطلوبة للمنطوق تبعاً لظروف الكلام والمالة النفسية للمتكلم • أى سرعة الكلام فانها تمثل تتابع تلك الفترات الزمنية التي تستغرقها سلسلة الأصوات في المنطوق والموقف المعين ، ولهذا السرعة معدلاتها وأنماطها التي قبلها المجتمع اللغوي ، وعندما يخرج

(٥٥) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١ / ١٩٣ ، ج ٣ / ١٣٦

(٥٦) انظر : رسالة العالمية للباحث : التجويد القرآني في ضوء علم الصوتيات الحديث ص ٤٧٦ — ٤٧٩ •

المتكلم عن تلك المعدلات فإن أداءه يكون محل سخط من المستمعين أو المخاطبين ويدخل بذلك في دائرة الأداء المعيب .

ومن أجل ذلك كانت محاولات علماء الأصوات في اللغات المختلفة لاستنباط النظم الترمينية وقوانين السرعات المختلفة للكلام (٥٧) .

رابعاً : ادراك الصوت اللغوي :

تختص هذه المرحلة بدراسة أصوات اللغة بعد أن تنتقل من الأذن على هيئة ذبذبات وإشارات كهربائية ... الخ .

ويرى كثير من العلماء أن عملية ادراك الأصوات هي عملية نفسية ولكنها تخضع أيضاً لعلم الأصوات السمعى ، إذ أنه بجانب دراسة لتلك العملية الادراكية النفسية يدرس أيضاً تلك المرحلة العضوية أو الفسيولوجية المتمثلة في الذبذبات الصوتية التي تستقبلها أذن السامع وآلية الجهاز السمعى ووظائفه عند استقبال هذه الذبذبات .

وقد جمع بعض العلماء هاتين المرحلتين تحت ما سمي بعلم الأصوات النفسى ، أو الادراكى مرجحين بذلك الجانب النفسى على الجانب العضوى بناء على أن العملية النفسية هي الأثر الواضح في سلوك السامع عند ادراكه الأصوات (٥٨) .

وعلى أية حال فقد أهتم بدراسة هذه المرحلة بجانب علماء اللغة

(٥٧) انظر : د. عبد العزيز علام : من التزمين في نطق العربية الفصحى بمصر المعاصرة ١٨٤ - ٢٠٢ . رسالة دكتوراه بمكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة .

وانظر : Heffner : General phonetics PP. 204 - 212.

(٥٨) انظر : د. كمال بشر : علم اللغة العام : الاصوات ١٣

والأصوات — علماء النفس والمخ والأعصاب • وقد خطت تلك الدراسة خطوات أكيدة في الوقت الحاضر وتطورت تطورا هائلا ، ولا زال الاهتمام بها جاريا حتى تلحق بالتقدم الذي نالته فروع الدراسة الصوتية الأخرى ، على الرغم من الصعوبات الجمة التي تعترض طريق المتخصصين فيها ، ومن بين تلك الصعوبات احتواء تلك الدراسة على ميدان ينظم عمليات نفسية معقدة لا تدخل في مجال البحث اللغوي بمعناه الاصطلاحي •

وتعتد هذه الدراسة على اختبارات تقدم المثير وتتعرف على الاستجابة المقابلة ، ولذا لا ننظر من اخوان الصفا أن يقدموا ما لم يسمح به التطور العلمي في أوانه ونرضى منهم في هذا الجانب بما أشاروا اليه وتحديثوا عنه لنقابله بما توصل اليه أحدث فروع الدراسة الصوتية •

ولكى نستخلص وجهة نظرهم في عملية الادراك اللغوي بصفة خاصة ، ونقارنها بما توصل اليه المحدثون ، نود أن نبرز نظرتهم الى وسائل الادراك في الانسان بصفة عامة :

أولا : اخوان الصفاء :

١ — وسائل الادراك :

لقد أسهب الاخوان في الحديث عن عملية الادراك الانساني بصفة عامة ، وأكدوا على العلاقة الوثيقة التي تربط الحواس الخمس بالدماغ (٥٩) ومكوناته ، وتعاونهما في تلك العملية • كما رأوا للقلب دورا في التمييز والفهم •

(٥٩) الدماغ هو حشوا الرأس كما ذكر ابن منظور في لسان العرب

(١) الحواس والدماع :

فللفنفس الساكنة في الدماغ عشر قوى ، منها خمس حساسة تدرك صور المعلومات من خارج الجسد ، وتحملها الى القوى الخمس الأخرى التي تدرك رسوم المعلومات ادراكاً روحانيا :

● اما الخمس الاولى فيوضحها الاخوان في قواهم :

« اعلم أن الحواس هي آلات جسدانية ، وهي خمس : العين والأذن واللسان والأنف واليد ، وذلك أن كل واحد منها عضو من الجسد ، وأما القوى الحساسة فهي قوى روحانية نفسانية يختص كل منها بعضو من أعضاء الجسد ، وأما المحسوسات فالأشياء المدركة بالحواس ، والمدركة بالحواس هي أعراض حالة في الأجسام الطبيعية مؤثرة في الحواس مغيرة لكيفية مزاجها ، والحس هو تغيير مزاج الحواس عن مباشرة المحسوس لها ، والاحساس هو شعور القوى الحساسة لتغيرات كيفية أمزجة الحواس . بيان ذلك أن القوة الباصرة مجراها في العينين ، وهي مستبطنة الصماخين حماية البطن المؤخر من الدماغ ، والقوة الشمامة مجراها في المنخرين ، وهي مستبطنة الخياشيم مما يلي البطن المقدم من الدماغ ، والقوة الذائقة مجراها الفم ، وهي مستبطنة في رطوبة اللسان ، والقوة الملامسة مجراها في عامة سطح بدن .

دمغ . وقد جرت عادة الاطباء أن يطلقوا لفظ الدماغ على معان ثلاثة كما ذكرتها قوى : أحدها : لمس المخ الذي داخل الحجب ، وهذا الاحس له . وثانيها : جميع القحف من المخ وغير ، وهذا له حس مما فيه من الغضب . وثالثها : مجموع الرأس . انظر : كشاف اصطلاحات الفنون ج ٢/٢٧٨ تحقيق د . لطفى عبد البديع . الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٦٩ م ويبدو أن المعنى الثاني هو المقصود عند الاخوان .

١٣٩

الحيوان الرقيق الجلد ، ولتحتها في الانسان أظهر ، وخاصة في الائمة ،
كما قيل : الائمة حاكمة البدن ، وهي مستبطنة في الجليدين اللذين ،
احدهما ظاهر البدن ، والآخر مما يلي » (٦٠) •

وتختص كل واحدة من تلك القوى بأدراك جنس من المحسوسات
ولا تشارك غيرها في محسوساتها ، حيث ولت النفس — كما يقولون —
كل قوة من هذه القوى ناحية من مملكتها لتأثيرها بالأخبار من تلك الناحية
من غير أن تشارك معها قوة أخرى : فالقوة السامعة تولت ادراك
المسموعات ، وهي الأصوات على اختلاف أنواعها ، والباصرة تولت
أدراك المبصرات على اختلاف أنواعها ، والشمامة تولت ادراك الروائح
والحكم عليها اذا كانت لذيفة أو كريهة ، والذائقة تولت ادراك الطعوم
وأفهامه ، واللامسة تولت ادراك الملموسات بأنواعها (٦١) •

وتدرك القوى الشمامة والذائقة واللامسة محسوساتها ادراكا
جسمانيا باللماسة ، بينما تدرك القوتين السامعة والباصرة محسوساتها
ادراكا روحانيا مطلقا (٦٢) • وقد شبه الاخوان حالة هذه القوى
الخمس مع النفس بأولى العزم من الرسل ، مرسلهم واحد ، وشرائعهم
مختلفة ، وتحت كل شريعة أحكام متباينة (٦٣) •

ورأوا أن تلك القوى هي أول قوى النفس التي ينال الانسان بها

(٦٠) انظر : رسائل اخوان الصفا ج٢/٣٨٩ - ٤٠١ - ٤٠٢ • وقد
عقدوا لكل قوة فصلا مستقلا يبين كيفية ادراكها المحسوسات انظر :
ج٢/٤٠٣ - ٤٠٩ •

(٦١) انظر : المرجع السابق ج٢/٤٦٨ - ٤٧١ •

(٦٢) انظر : المرجع السابق ج٢/٤٠٦ - ٤٠٧ •

(٦٣) انظر : المرجع السابق ج٢/٤٧٠ - ٤٧١ •

العلوم والمعارف (٦٤) * كما رأوا أن كل قوة من تلك القوى تسمى نفسها لذلك العضو المختصة به ، فالقوة الباصرة تسمى نفس العين ، والسماعة نفس الأذن ، والذائقة تسمى نفس اللسان ، والشماعة تسمى نفس الأنف (٦٥) *

• أما القوى الخمس الثانية فهي :

القوة التخيلية التي مجراها مقدم الدماغ ، والفكرة أو العاقلة التي مجراها وسطه ، والحافظة التي مجراها مؤخره ، والناطقية المخبرة عنها معاني ما في فكرها من العلوم والحاجات ، ومجراها في الحلقوم الى اللسان ، وقوة اظهار الكتابة والصنائع ، ومجراها اليدين والإصابع (٦٦) * وتتعاون هذه القوى في تناولها صور المعلومات بعضها من بعض عقب وصولها — عبر القوى الخمس الحساسة الأولى — الى القوة التخيلية ، ويوضح الاخوان هذا التعاون في قولهم :

« وأما القوى الخمس الروحانية فإنها كالتعاونات في ادراكها رسوم المعلومات ، وذلك أن القوة التخيلية اذا تناولت رسوم المحسوسات كلها وقبلتها في ذاتها كما يقبل الشمع نقش الفص ، فان من شأنها أن تتناولها كلها الى القوة المفكرة من ساعيتها ، فاذا غابت المحسوسات عن مشاهدة الحواس لها بقيت تلك الرسوم مصورة صورة روحانية في ذاتها كما يبقى نقش الفص في الشمع المختوم مصورا بصور روحانية مجردة عن هيولائها فيكون عند ذلك لها كالهولي وهي فيها

(٦٤) النظر : المرجع السابق ج ٣ / ٤٠٤

(٦٥) النظر : المرجع السابق ج ٢ / ٣٨٧ ، ٤١٠

(٦٦) النظر : المرجع السابق ج ٢ / ٤١٤ - ٤١٥ ، ٤٧١ - ٤٧٢ .

ج ٣ / ٢٤١ - ٢٤٢

كالصورة. ثم ان من شأن القوة المفكرة أن تنظر الى ذاتها وتراها معانية. وتتروى فيها وتميزها عن خواصها ومناهجها ومضارها ثم تؤديها الى. القوة الحافظة لتحتفظها الى وقت التذكار. ثم ان من شأن القوة الناطقة التي مجراها على اللسان اذا ارادت الاخبار عنها والانباء عن معانيها والجواب للسائلين عن معلوماتها ألقت لها ألفاظا من حروف المعجب. وجعلتها كالجسمات لتلك المعانى التي في ذاتها، وعبرت عنها بالقوة السامعة من الحاضرين. ولما كانت الأصوات لا تمكث في الهواء الا ريثما تأخذ المسامع حظها ثم تضمحل، احتالت الحكمة الالهية بأن قيّدت معانى تلك الألفاظ بصناعة الكتابة. ثم ان من شأن القوة الصانعة أن تصوغ لها من الخطوط والأشكال بالإنقلام وتودعها وجوه الألواح ويطون المطامير ليبقى العلم مفيدا فائدة من الماضيين للغابرين وخطابا من الغائبين للحاضرين» (٦٧) •

ولما كانت القوة المتخيلة في مقدمة الحماغ هي أول مركز فيه يتأثر بالحواس الخمس وبذلك القوى الحساسة المتقدمة فقد عقد الاخوان فصلا في رسالة الحاس والمحسوس خصوصه لكيفية وصول آثار المحسوسات الى تلك القوة المتخيلة قائلين :

« انه ينتشر من مقدم الدماغ عصابات لطيفة لينة تتصل بأصول الحواس ويتهرق هناك وتنسج في أجزاء جرم الدماغ كنسج العنكبوت، نادا باشرت كيفية المحسوسات من أجزاء الحواس وتغير مزاج الحواس عندها وغيرتها عن كفيياتها وصل ذلك التغيير في تلك الأعصاب التي في مقدم الدماغ والتي منشؤها من هناك كلها فتجتمع آثار المحسوسات.

(٦٧) انظر : المرجع السابق ج ٢ ، ٤١٤ - ٤١٥ ، ٤٧١ - ٤٧٢ ،

والرسالة الجامعة ج ١ / ٦٠٥ - ٦٠٦ ، ٧٠١ - ٧٠٢

عند القوة المتخيلة كما تجتمع رسائل أصحاب الأخبار عند صاحب الخريطة فيوصل تلك الرسائل كلها الى حضرة الملك ، ثم ان الملك يفرّوها ويفهم معانيها ثم يسلمها الى خازننه ليحفظها فيحفظها الى وقت الحاجة . وهكذا حكم القوة المتخيلة اذا اجتمعت عندها آثار هذه المحسوسات التي أدت اليها القوة الحساسة ، دفعتها الى القوة المفكرة التي مسكنها وسط الدماغ لتتأمل فيها وترى في معانيها وتعرف حقائقها ومضارها ومنافعها ، ثم تؤديها الى القوة الحافظة لتحفظها وقت التذكّر » (٦٨) *

وقد أسهب الاخوان في الحديث عن تلك القوة المتخيلة ، فنراهم يعتقدون في الرسالة الخاصة بالآراء والديانات في العلوم الناموسية الإلاهية والشرعية ثلاثة فصول في بيان تلك القوة وعجائبها وفضائلها (٦٩) ، ومن أهم ما نخرج به من تلك الفصول :

١ - أن تلك القوة تتناول رسوم سائر المحسوسات جميعاً وتتخيلها بعد غيبة المحسوسات عن مشاهدة الحواس لها *

٢ - أن تلك القوة تتخيل ويتوهم ما له حقيقة ، وما لا حقيقة له بعد أن عرف بسائطها بالحواس *

٣ - أن تلك القوة نعجز عن تخيل شيء لم تؤد اليه حاسة من الحواس . وقد وضحو هذا بقولهم : « وذلك أن كل حيوان لا بصر له فهو لا يتخيل الألوان وما لا يسمع له فلا يتخيل الأصوات ولا يتوهمها ، لأن التخيل أبداً في تصوره للأشياء تبع للادراك الحسى ، والعقلى ين

(٦٨) انظر : المرجع السابق ج٤١١/٢ *

(٦٩) انظر : المرجع السابق ج٤١٦/٣ - ٢٠ =

استنباطها تتبع الدليل النفسى ، فأما الانسان فانه لما كان يفهم الكلام
أمكنه أن يتخيل المعانى اذا وصفت له » •

٤ — أن الداس متفاوتو الدرجات فى هذه القوة تفاوتاً بعيداً جداً ،
اذ قد يكون البصير أسرع تصوراً لما يسمع ، وأجود تخيلاً لما يوصف
له ، وقد يعجز العالم العاقل المرتاض فى العلوم والآداب عن تصور
أشياء كثيرة قد قامت الحجة والبراهين على صحتها • وقد أرجعوا هذا
التفاوت الى اختلاف تركيب الأدمغة واعتدال الأمزجة أو فسادهما •

وقد شبهوا وظيفة القوة المتخيلة بالنسبة للقوة المفكرة (العاقلة)
«بصاحب خبر ملك يأتى بالأخبار اليه من ناحية من نواحي مملكته» (٧٠)
أما القوة المفكرة أو العاقلة التى تتمركز فى وسط الدماغ فتعتبر
القوة الرئيسة من بين تلك القوى ، وقد شبهها الاخوان بالملك بين
الجنود والأعوان والخدم والرعية ، وبالقاضى بين الخصماء ودعاويهم :
يقولون :

« اعلم أن القوة المفكرة التى مسكتها وسط الدماغ من بين هذه
القوى كالمملك ، وسائرهما لها كالجنود والأعوان والخدم والرعية ،
ينصرفون بأمرها ونهيها فيما يفعلون فى أعضاء الجسد من الحركات ،
وما يظهرون من الصنائع والأعمال ، وأن موضعها من بين مواضع سائر
القوى فى أشرف عضو من الجسد ، وأخص مكان فيه ، كما أن دار الملك
فى أشرف مدينة من بلدان مملكته ، وفى أجل موضع من المدينة وفى أشرف
بقعة منها ، واعلم ياأخى أن أفعال هذه القوى الخمس أشرف وأكرم من
أفعال سائر القوى ، وقد بينا فى رسالة الحاس والمحسوس أن القوة

المتخيلة التي مسكها مقدم الدماغ نسبتها الى القوة المفكرة بما تجمع اليها من أخبار المحسوسات كنسبة صاحب الخريطة الى الملك ، ونسبة القوة الحافظة التي مسكها مؤخر الدماغ ، ونسبتها الى المفكرة كنسبة الخازن الحافظ ودائع الملك ، ونسبة القوة الناطقة التي مجراها على اللسان الى المفكرة كنسبة الحاجة والترجمان الى الملك ، ونسبة القوة الصانعة التي مجراها اليدين والأصابع الى المفكرة كنسبة الوزير المعين له في تدبير مملكته ، أو المساعد له في سياسته لرعيته» (٧١) •

وإذا كانت تلك القوة المفكرة — أو العاقلة كما يسمونها — بمثابة الملك الذي تعاونه بقية القوى على النحو السابق ، فإن لها وظيفة أخرى — في نظر الإخوان — تختص بها وهي « الفكر والروية والتمييز والتصور والاعتبار والتركيب والتحليل والجمع والقياس البرهاني والفراسة والزجر والتكهن والخواطر والالهام والوحى وروية المنامات وتأويلها » (٧٢) •

وبناء على هذه الوظيفة يعرف العقل ، حيث يثبته به جمهور الناس الى أنه قوة من قوى النفس الانسانية التي فعلها التفكير والروية والنطق والتمييز والصنائع وما شاكلها (٧٣) • ونقل ابن منظور في تعريف العقل أنه « التمييز الذي به يتميز الانسان من سائر الحيوان » (٧٤) •

وكما يتفاوت الناس في القوة المتخيلة فانهم يتفاوتون أيضا في درجات عقولهم ، وقد أرجع الاخوان هذا التفاوت الى ما يلي (٧٥) :

-
- (٧١) انظر : المرجع السابق ج ٢/٢٤٢.
 - (٧٢) انظر : المرجع السابق ج ٢/٤٢١.
 - (٧٣) انظر : المرجع السابق ج ٢/٢٣٢ •
 - (٧٤) انظر : لسان العرب : «عقل» •
 - (٧٥) انظر : المرجع السابق ج ٣/٤٢٥ - ٤٢٦ •

- ١ - اختلاف طبائع الناس •
 - ٢ - خواص جواهر نفوسهم التابعة في اظهار أفعالهم لأمزجة أبدانهم •
 - ٣ - كثرة غرائب علومهم ومعارفهم التي لا يمكن أن يحويها كلها انسان واحد •
 - ٤ - اختلاف صنائعهم وتصاريفهم في طلب معاشهم وأحكام تدبيرهم في سياستهم ، وهي كثيرة لا تحصى ، ولا يمكن أن ينهض بها كلها انسان واحد •
 - ٥ - اختلاف أخلاقهم المتضادة في الحسن والقبح ومجاري عاداتهم بين الجودة والرواءة •
 - ٦ - نشوؤهم على اختلاف سنن دياناتهم وتباين مذاهب آباؤهم وآراء أستاذيهم ومعلميهم •
- ونظرا لأن القوتين الناطقة والكاتبة يأتى دورها بعد بقية القوى ، فقد رأى الاخوان أن القوى الثماني الأخرى (اللامسة والذائقة والشامة والسامعة والباصرة ، والمتخيلة والفكرة والحافظة) هي المعول عليها في عملية الادراك وسموها القوى العلامة أو الداركة للمعلومات (٧٦) ، وبخاصة قوة الفكر والسمع والبصر التي تعد الطرق التي ينال الانسان بها العلوم (٧٧) •
- وأكد الاخوان تفاوت الناس تفاوتاً بعيداً في درجات تلك القوى الداركة - بين الجودة والرداءة ، وقد أرجعوا هذا التفاوت الى اختلاف

(٧٦) انظر : المرجع السابق ج٣/٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٨

(٧٧) انظر : المرجع السابق ج٣/ ١٣٠ ، ١٤٠ ، ١٤١

لا م ٢٠ - اخوان الصفا

أدوات تلك القوى ، واختلاف آلياتها في الجودة والرداءة. (٧٨) ، مما
يترتب عليه اختلاف الناس في ادراك المحسوسات والمعقولات
والالاهيات المبرهنة (٧٩)

وقد نسب الاخوان الى تلك القوى الدراكة مجموعة من الخصال ،
ويمكن اجمالها فيما يلي (٨٠) •

- ١ — من هذه القوى تكون معارف الحيوان كلها •
- ٢ — من تعاون أدوات هذه القوى بالمعاونات اللاتقسية تريد في
قواها ، ومن تفاوتها اختلاف معارفها. في الجودة والذكاء أكثر وأقل •
- ٣ — هي الأصل في جميع العلوم والمعارف •
- ٤ — من تفاوت افعال هذه القوى يكون أثر اختلاف الناس في
معلوماتهم ومنازعات العلماء في آرائهم ومذاهبهم •
- وتؤدي تلك القوى الدراكة وظيفتها شريطة أن تكون سليمة من
الآفات. العارضة وألا يعرض لها عائق يعوقها (٨١) •

(٧٨) انظر : المرجع السابق ج٣/٤٠٥ ،
(٧٩) انظر : المرجع السابق ج٣/٤٠٢ — ٤٠٤ • والمعقولات هي
رسوم المحسوسات التي أدتها الحواس الى القوة المتخيلة اذا بقيت في
الأوهام بعد غيبة المحسوسات عن مباشرة الحواس لهذا والالاهيات
المبرهنة هي أشياء لا تدركها الحواس ولا تتصورها الأوهام ، ولكن
المعقول والبراهين الصادقة باعثة للعقول الى الاقترار بها والقبول لها •
وقد ذكر الاخوان سببين آخرين فرعيين لاختلاف الناس في تلك
الامور ، وهما دقة المعاني ونظافتها ، وفنون الطرق المؤدية اليها الاسباب
المعنية على ادراكها •

(٨٠) انظر : المرجع السابق ج٣/٤٠٧ •
(٨١) انظر : المرجع السابق ج٣/٤٠٥ — ٤٠٧ حيث فصلوا القول
فيما يعرض لتلك القوى من آفات •

كما تعتمد تلك القوى الدراكية بعضها على بعض في القيام بدورها في عملية الإدراك ، فإذا ما تعرضت الحواس الخمس لآفة من الآفات فإن ذلك يؤثر على القوى التخيلية والمفكرة والحافظة . في الدماغ مما يترتب عليه فقد القدرة على ادراك المحسوسات والمعقولات والأمور المبرهنة . يقول الاخوان :

« فكل ما لا تدركه الحواس بوجه من الوجوه لا تتخيله الأوهام . وما لا تتخيله الأوهام لا تتصوره العقول ، وإذا لم يكن شيء معقول فلا يمكن البرهان عليه ، لأن البرهان لا يكون الا من نتائج مقدمات ضرورية مأخوذة من أوائل العقول ، والأشياء التي هي في أوائل العقول انما هي كليات أنواع وأجناس ملتقطة من أشخاص جزئية بطريق الحواس ، وللدليل على ذلك الصبي ، لولا أنه قدر أن عشر جوزات أكثر من خمس ، أو خشبة طولها عشرة أذرع أطول من أخرى لها ستة أذرع ، فمن أين كان يمكنه أن يعلم أن الكل أكثر من الجزء ، وعلى هذا القياس حكم سائر المعقولات فانها مأخوذة أوائلها من الحواس ، والدليل على ذلك أيضا أنك تجد من كان أكثر محسوسات ، ولها أكثر تأملا ، وللمتخيلات أجود اعتبارا فان الأشياء المعقولة عنده أكثر عددا ، ونفسه لها أكثر تحققا ، فقد تبين بما ذكرنا أن الأشياء المعقولة ليست بشيء سوى رسوم المحسوسات الجزئية الملتقطة بطريق الحواس من الأشخاص ، مجموعة في فكر النفس المسمى أنواعا وأجناسا ، وأن العقل للإنسان — اذا تبين — ليس هو شيئا سوى النفس الناطقة اذا تصورت رسوم المحسوسات في ذاتها ميزت بفكرها بين أجناسها . أنه اعلم وأشخصها ، وعرفت جواهرها . وأغراضها ، وبنات أمور الدنيا . اعبرت نصاريذ الأيام بين أهلها . ثم اعلم أن كل من كان أكثر تأملا للمحسوسات ، وأدق نظرا في أمور الموجودات ، وأجود بحثا عن

الخفيات ، وأكثر تجارب للأمور الدنيوية ، وأحسن اعتباراً لأهلها كان أرجح عقلاً من أبناء جنسه ، وأكثر علماً من أهل طبiquته » (٨٢) .

وقد ميزوا بين نوعين من العقل : أحدهما غريزي والآخر مكتسب . « فأما الغريزي فيحصل للإنسان بعد تأمله للمحسوسات ، وأما المكتسب فكل من كان أكثر تأملاً للمحسوسات وأصفى نفساً كان أعقل » (٨٣) .

وقد أكدوا أهمية الحواس لبقية القوى الإدراكية في مواضع أخرى عديدة ومن ذلك قولهم : « كل حيوان لا يبصر لا يتخيل الألوان العرضية والأجسام الجوهرية ، وما لا يسمع له لا يتصور ولا يتخيل الأصوات الكلامية ، ولا يتوهم الألفاظ المنطقية ، فأما الإنسان الصحيح التركيب السالم الحواس فإنه لما كان يفهم الكلام صار يمكنه أن يتخيل المعنى إذا وصف له » (٨٤) .

(ب) القلب :

للقلب — في نظر الإخوان — دور في عمليتي التمييز والفهم ، ولكنهم ترددوا في رتبة هذا الدور : فمرة يرونها بعد دور مراكز الدماغ ، ومرة أخرى يرونها العكس :

يقولون عن دور القلب ، قبل الدماغ :

« اعلم أن منتهى كل حاسة إلى القلب مقرها ، وعنده مؤهلها ، ولكل حاسة محسوسة مختصة بها ، مجعولة لها ، لا تتعداها ، ولا تتعرض لسواها ، فالبصر مختص بالنظر ، والأذن مختصة بالسمع ، والفم

(٨٢) انظر : المرجع السابق ج ٣/ ٣٢٤ - ٣٢٥

(٨٣) انظر : المرجع السابق ج ٣/ ٤٦٦

(٨٤) انظر : المرجع السابق ج ٣/ ٢٠٨ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣

مختص بالذوق ، والأثف مختص بالشَّم ، وكل حاسة من هذه الحواس تؤدي محسوساتها الى القلب ، ويفهم منها حاسة القلب ، ثم ان قوة حاسة القلب اذا أدركت من الحواس شيئا وقبلته منها أدته الى العقل ليُدركه ، ولولا قوة حاسة القلب لبطلت هذه الحواس ، كما أن الأكمه الذى يولد كذلك لا يمكنه أن يتصور السماء ولا موضعها من الجهات ، لأنه لم ير جهة فتؤديها الحاسة النازرة الى حاسة القلب المناسبة لها ، لأن حاسة البصر تؤدي آثار محسوساتها الى قوة عاقلة مناسبة لها ، حافظه لما يؤدي اليها ، ولذا قال تعالى « فانها لا تسمى الأبصار ولكن تعمى المقلوب التي في الصدور » ، وقد بينا في رسالة الحاس والمحسوس شيئا من هذا بغير هذا الشرح . ثم اعلم أن القلب في الجسد مصور على صورة الانسان ، ولذا صار أفضل الأعضاء التي في أجسام الحيوان ، وذلك أن له بصيرة يبصر بها ما غاب من حاسة النظر من خارج ، وله مسامع يدرك بها الأصوات ويؤدي الى حاسة السمع ما يدركه بها ، وله حاسة اللمس فهو يتشوق الى محسوساتها اذا فقدتها . مثل ما يشواق العاشق عناق معشوقه والتزامه » (٨٥) .

ونراهم مرة أخرى يرون دوره بعد الدماغ قائلين :

« فمن كان حاضرا في ذلك الموضع [الذى صدر منه الصوت] أو بالقرب منه من الحيوان سمع ذلك الصوت فبلغ ذلك التموج الذى جرى في الهواء الى مسامعه ودخل صماخه ، وتحرك الهواء المستقر في عمق الأذنين بحسب القوة السامعة بذلك التموج ، والحركة التي تنتهي الى مؤخر الدماغ ، ثم يقف فلا يكون له مخرج ، فيؤدي الى الدماغ ، ثم يؤديه الدماغ الى القلب ، فيفهم القلب من هذه الحاسة ما أدته اليه من ذلك الحادث ، فان كان صوتا مفهوما يدل على معنى توجهت المعرفة

بذلك ، وإن كان غير مفهوم فإنه لا بد أن يستدل بصفاء جوهره على ذلك الصوت ، ومن أي جوهر حدث ، وعن أي حركة عرض ، وهو يستدل على ذلك من ماهية الصوت وكيفية التموج والقرع والحركة الواصلة إلى حاسة السمع . ومثال ذلك طنين الأطاس فإنه إذا سمعه الإنسان قال : هذا طنين الأطاس حدث من قرع شيء آخر أصابه أما من جهة حيوان أو حدوث شيء وقع عليه من غير قصد ولا اعتماد ، وكذلك صوت الحديد والذهب والمفضة وغير ذلك فإن أصواتها إذا حدثت تكون مختلفة بحسب اختلاف جواهرها وتباين طباعها من الصلابة والرخاوة واللين واليبوسة ... » (٨٦) .

ومما يؤكد هذا الحور قولهم في موضع آخر :

« الدماغ في بدن الإنسان ملك الجسد ، ومنشأ الحواس ، ومعدن الفكر ، ونسبب الرؤية ، ونفزانة الحفظ ، ومسكن النفس ، ومجلس محل العقل ، وأن القلب خادِم للدماغ ومعينه في أفعاله ، وإن كان هو أمين الجسد ، ومدير البدن ، ومنشأ العروق والأورب ، وينبوع الحرارة الغريزية » (٨٧) .

٢ - الإدراك اللاهوتي :

يمكننا من خلال تصور الاخوان السابق لعملية الإدراك الإنساني بصفة عامة أن نتصور عملية إدراك الكلام وأصواته باعتباره حلقة من حلقات عمالية التواصل بين المتكلم والمستمع ، إذ يرتبط الجانب الإدراكي في هذه العملية بالجوانب الفسيولوجية والفيزيائية والسمعية :

(٨٦) انظر : المرجع السابق ج ٣/ ١٠٣ .
(٨٧) انظر : المرجع السابق ج ٢/ ١٨٩ - ١٩٠ .

اللى تحدثنا عنها ، ويمكن الاستعانة ببعض النصوص المتقدمة وغيرها
في توضيح تصور الاخوان الاحراك اللغوى :

فعندما يصدر المخ أوامره لجهاز النطق الذى تربطه به
هركات خاصة بالكلام — بعملية تقطيع الأصوات فى حالتى الافراد
والتركيب ، تنتقل هذه الأصوات عبر الهواء الى أذن المستمع (أو
قوته السامعة) لتؤديه الى القوة التخيلية فى مقدم الدماغ التى
تنقله بدورها الى القوة المفكرة فى وسط الدماغ لتتفرغ فيه وترى فى
معانيه وتعرف حقائقه ومضاره ومنافعه ثم تؤديه الى القوة الحافظة
فى مقدم الدماغ لتحتفظه الى وقت الحاجة والتذكر . ثم ان من شأن
القوة النشطة اذا استعانت بها القوة المفكرة فى النيابة عنها فى الجواب
والخطاب أن تؤلف ألفاظا من حروف المعجم بنفحات مختلفة السمات
التي هى الكلام فتدفعها عند ذلك الى القوة المعبرة لتخرجها الى
الهواء بالأصوات المختلفة فى اللغات لتحملها الى مسامع الحاضرين
بالقرب ، فتكون تلك الألفاظ المؤلفة من الحروف المختلفة الأشكال
والسمات كالأجساد المركبة من الأعضاء المختلفة ، وتكون تلك المعاني
المضمنة فى تلك الألفاظ كالأرواح لها ، لأن كل لفظة لا معنى لها فهي
بمنزلة جسد لا روح فيه . ثم ان من شأن القوة الصانعة أن تصوغ
لتلك الألفاظ من الخطوط والأشكال بالإفهام وتودعها وجوه الإلواح
وبطون المصامير ليبقى المعلم مفيدا فائدة من الماضين للغابرين ،
وخطابا من الغائبين للحاضرين (٨٨) .

والناس يتفاوتون فى القوة السامعة كما يتفاوتون فى بقوة القوى
كلها سبق ، وهو الأمر الذى يؤدي الى تفاوتهم فى ادراك الأصوات

« وذلك أن منهم من يكون جيد السمع يسمع الأصوات الخفية ، ويميز بين النغمات الموزونة والمنزحفة ، ومنهم من يحتاج من ذلك الى مفاعيله العروض ، ومنهم من لا يحس بشيء من ذلك » (٨٩) ♦

وقد أكد الاخوان أهمية السمع حين عدوه الطريق الذى تقبل به النفس معانى اللغات وما تدل عليه الأصوات من الأخبار الغائبة (٩٠) ♦

وقد سبق أن نقلنا عن الاخوان قولهم « وما لا سمع له لا يتخيل الأصوات ولا يتوهمها لأن التعبد أبدا فى تصويره للأشياء تبع للإدراك الحسى » ♦ وقولهم : « وما لا سمع له لا يتصور ولا يتخيل الأصوات الكلامية ، ولا يتوهم الألفاظ المنطقية » ♦

وإذا كانت عملية ادراك اللغة المنطوقة تتوقف على السمع ودرجة وجودته فإن عملية ادراك اللغة المكتوبة تتوقف أيضا على البصر وجودته ، يقول الاخوان :

اعلم أن الانسان مع استماعه الأصوات وتمييزه بالنغمات يفهم معانى اللغات والأقاويل والكلمات ، كما أنه عند نظره الى الخطوط والكتاب يفهم ما يتضمنها من معانى الكلام والعبارات ما لا يفهم عليها غيره من الحيوانات ♦ ثم أعلم أن من هاتين الطريقتين أكثر معلومات الانسان التى ينفرد بها دون سائر الحيوانات « (٩١) » ♦

ويجد رأى الاخوان أن الدماغ بما فيه من مراكز ادراك يستطيع أن يميز بين الصوت الانسان ذى الدلالة والمعان العلنية ، وبين الأصوات الحيوانية الأخرى ، التى تريد بأصواتها دفع المضار وجذب المنافع بدافع غريزى ، وبين الأصوات الآلية لحركة الانسان كصوت

(٨٩) انظر : المرجع السابق ج ٣ / ٤٠٥ .

(٩٠) انظر : المرجع السابق ج ٣ / ١٣ ، ٤١٤ .

(٩١) انظر : المرجع السابق ج ٣ / ١٣٠ - ١٣١ .

البوق والزمر والعود وما شاكل ذلك ، وبين الأصوات الطبيعية ،
اذ يقولون .

» ولكل صوت عند الحاسة السامعة كيفية وماهية : فماهية صوت
الانسان أنه غرض مفهوم دال على معنى ، فحتاج القوة المفكرة الى
أن تفكر فيه وتفتش عن معناه ، وأصوات الحيوانات غير مفهومة ،
ملكن القوة المفكرة تقضى عليها أنها ما صوتت الا لحاجة ، وما أرادت به
الا سبب أكل وشرب ونكاح ، فهذه الأقسام من الصوت مختصة
بالأجسام الحية . فأما صوت الحجارة والخشب فان القوة المفكرة
لا تقضى عليها بأنها ما بدت لغرض ولا لقصد الا أن تكون آلية لحركة
الانسان مثل البوق والزمر والعود وما شاكل ذلك ، وأنها تتسبها الى
الحركة التي كانت هي السبب في تصويتها مثل بوق ومزمار وعود
وصفارة وما شاكل ذلك . وكل هذه الأصوات انسانية أو دعيتها النفس
للجزئية هذه الأشكال النباتية بالصناعة التي اتخذتها حيلة للمعاش
والكسب . وأما صوت هبوب الرياح والرعد وخرير الماء اذا انحد
من علو الى أسفل ، واضطراب موج البحار واهتزاز الأشجار ، فان
القوة المفكرة لا تعبأ بذلك ولا تفكر فيه ، وإنما تمر على الحاسة
السامعة شبه الخوار ولا حاجة اليه ، وربما ضجر الانسان منه وتأذى
من مداومة سماعه «

ويعد أن عرفنا تصور الأخوان لعملية الادراك اللغوى من خلال
تصورهم للأدراك بصفة عامة ننتقل الى تصور المحدثين لتلك العملية ،
ومدى موافقتهم أو مخالفتهم لتصور الأخوان .

ثانيا : التصور الحديث

من المعلوم في العلم الحديث أن المخ أساس العمليات المعرفية
والنفسية والسلوك والادراك والتذكر والتفكير . ويتم كل هذا من
خلال وظيفة مركبة مكتملة التنظيم تحتوى على اثنا عشر بليوناً من

الخلايا العصبية التي تشكل في مجموعها ما يسمى المخ البشرى *

وسوف نلقى الضوء — بإيجاز — على الوظيفة اللغوية للمخ من خلال نظرة مبسطة الأجزاء الجهاز العصبى (٩٣) *

ان الجهاز العصبى يعمل بصورة متكاملة ومترابطة ، وحتى يسهل دراسته قسم الى نظامين : عصبى هرعى ، وعصبى مركزى *

أما النظام الأول فيتكون من مجموعة كبيرة من الحزم المحتسوية على آلاف من الأعصاب أو الألياف التي تربط النظام العصبى المركزى بجميع أجزاء الجسم *

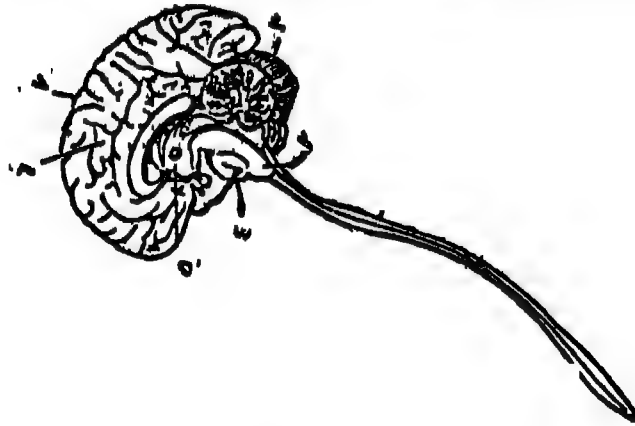
وتنقسم هذه الألياف وظيفياً الى نوعين : حسية ومحركة ، أما الألياف الحسية فتختص بنقل الحوافز الناتجة عن المثيرات الخارجية ، مثل استجابة العصب السمعى للحركة التي تحدث بواسطة الخلايا الشعرية فى عضو (كورتى) فى الأذن الداخلية . أما الألياف المحركة فانها تقوم بنقل الحافز العصبى من النظام المركزى الى أجزاء الجسم حيث تقوم بتحريك العضلات أو تنظيم افرازات الغدد *

أما النظام المركزى فيشتمل على المخ ، ويقع فى قاعه ساقى ترتبط به بالحبل الشوكى الذى يوصل الحوافز العصبية من المخ واليه ، ويستجيب تلقائياً للأفعال المنعكسة . وتسمى النهاية العليا لهذا الحبل بالنخاع المستطيل الذى يحتوى على مجموعات من الخلايا المتحركة فى بعض الوظائف الحيوية مثال التنفس فى الدورة الدموية : كما تحتوى على توصيلات لنقل الحوافز العصبية الى مناطق المخ العليا *

(٩٢) انظر : المرجع السابق ج ٣/ ٤١٢ - ٤١٣

(٩٣) ينظر هذا بالتفصيل : د. سعد مصلوح : دراسة التسميحية والكلام ٣٠٠ - ٣١٥ ، د. محمد حسن عبد العزيز : مدخل الى اللغة ٦٠ - ٧٠ ط القاهرة ١٩٨٢م

وتحت المخ يقع « المخيخ » وهو مقسوم الى شقين مثل المخ كما سيأتى ، وهو يعتبر المسئول عن توازن الجسم .
 أما المخ فيقع تحت الجمجمة ، ويتكون من اثني عشر بليوناً من الخلايا العصبية التى تمثل مادة المخ الرمادية ، وتكون سطح المخ أو ما يسمى لحاء المخ . كما يشتمل المخ أيضاً على بلايين من الألياف التى تربط تلك الخلايا بعضها ببعض ، وتقع تحت اللحاء مباشرة ، وتمثل مادة المخ البيضاء .
 ولحاء المخ هو المسئول عن اتخاذ القرارات فى الجسم ، حيث يلقى الرسائل من الأعصاب الحسية ، ثم يقوم بتصنيفها وتفسيرها ، ثم يصدر تعليماته بواسطة الأعصاب المحركة الى خلايا الاستجابة لتقوم برد الفعل الملائم ، وان كان من الممكن تولد النشاط — وبخاصة النشاط الذهنى — داخل المخ دون حاجة الى شئ خارجى مباشر .
 والشكل الآتى يوضح أجزاء النظام العصبى المركزى (٩٤) :



- النظام العصبى المركزى
 ١ - الجبل القوسى ٢ - النخاع المستطيل ٣ - المخيخ
 ٤ - جسر المخيخ ٥ - التلموس ٦ - نصف كرة المخ
 ٧ - لحاء المخ

(٩٤) انظر : د. سعد مصلوح : دراسة السمع والكلام ص ٣٠٠

وقد كان علماء النفس واللغة يرون — منذ وقت غير طويل — أن التفكير والتعبير هما وظيفة المخ بأجمعه ، وأنه لا يمكن تحديد منطقة بعينها باعتبارها مسئولة لوجودها عن اللغة ، ولكن البحوث الجارية أخذت تحدد بعض المناطق التي يمكن أن تعتبر مسئولة عن قسم من الوظائف اللغوية .

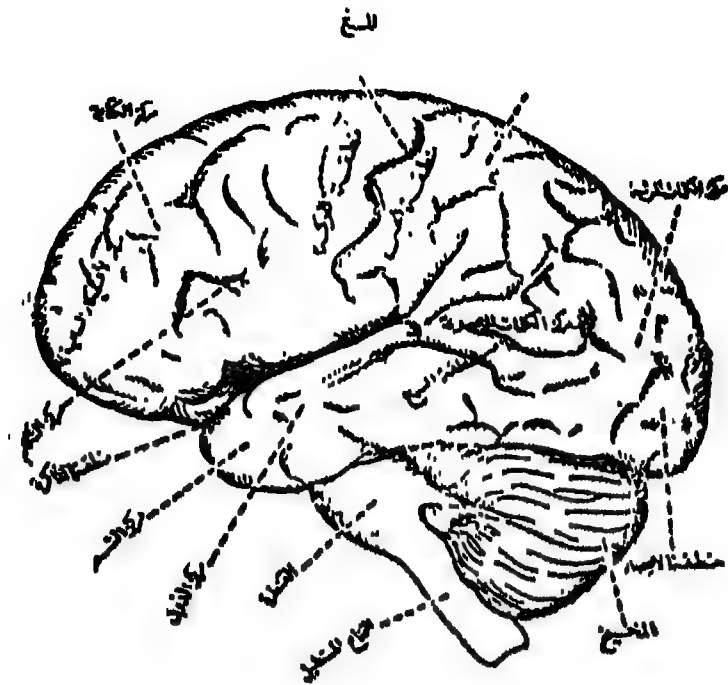
ومما هو متفق عليه في هذه الآونة أن مخ الإنسان ينقسم الى شقين : أيمن وأيسر ، ويفصل بينهما أخدود عميق يسمى بالشق الطولى ، ويقابل كل منهما الآخر ، وفي كل شق أربعة فصوص : أمامى (جبهى) ، ويقع في الجزء الأمامى من الدماغ ، وخلفى (جدارى) ، ويقع في الجزء الخلفى ، في الجهة العليا من الدماغ . وصدغى ، يمتد الى الخلف حتى القص القفوى ، وقفوى ، يقع في المؤخرة الى الجهة السفلى من الدماغ ، ويعد أصغر الفصوص (٩٥) .

وتتصل الفصوص الأربعة بعضها ببعض بواسطة مسالك ، كما أن شقى الدماغ يتصلان أيضا بواسطة مجموعة من الخلايا ما يسمى بالقرن الأعظم أو الجسم الجاسى .

والشكل الآتى يبين مواقع تلك الفصوص والمراكز الحسية فيها (٩٦) .

(٩٥) انظر : المرجعين السابقين ، د. موفق الحمدانى : اللغة وعلم النفس ٦٨ - ٧٠ ط٢ بغداد ١٩٨٢م

(٩٦) انظر : د. مصطفى فهمى : امراض الكلام ٢٣ . الطبعة الرابعة مكتبة مصر .



وإذا كانت الحراسة الحديثة أكدت أن الجهاز العصبى مثاليه
يشكل عام — أى أن ما هو موجود فى الشق الأيمن موجود أيضا فى
الشق الأيسر ، فقد أكدت أيضا أن هذين النصفين ليسا متساويين ،
ولا متشابهين من الناحيتين التشريحية والوظيفية •

فمن الناحية التشريحية تشير الدراسات الى أن الفص الصدغي،
على النصف الأيسر أكبر من نظيره على النصف الأيمن •

ومن الناحية الوظيفية تشير الدراسات الى هيمنة النصف الأيسر من الدماغ على الحركة في النصف الأيمن من الجسم بالإضافة الى معظم فعاليات الانسان بينما يسيطر النصف الأيمن من الدماغ على الحركة في النصف الأيسر من الجسم ... وتشير أيضا الى أن المناطق

المسئولة عن الكلام تتمركز في النصف الأيسر من الدماغ وتتنحصر في
الفص الامامى : حيث تتمركز فيه المناطق المسئولة عن الحركة ومنها
حركة الشفتين والاسفل واللسان والحنجرة ، ويطلق عليها منطقة
التصويت أو الكلام ، في حين لم يكتشف من مراكز الكلام في الشق
الأيمن الا منطقة تقع في الفص الأيمن من ذلك الشق وتمتد الى ما
يقابلها في نفس الفص من الشق الأيسر ، ويطلق عليها « منطقة
التصويت الاضافية » ، وتستطيع لوحدها أن تسيطر على الحركة
اللغوية عند حدوث عطب في النصف الآخر .

كما يعزى الى الشق الأيمن بعض الوظائف البصرية التي تقع
تحت سيطرته ، كما يعزى اليه فهم الأصوات غير اللغوية .

ويمكن ايجاز المهام التي تقوم بها المراكز المسئولة عن اللغة في
المحصول الشق الأيسر على النحو الآتى (٩٧) :

١ - الفص الامامى (الجبى) :

ينحصر دوره في عملية اصدار اللغة وتسلم الرسالة المبلغة من
الفص الصدغى ووضع « برنامج » حركى لها . ماذا ما يتعرض هذا
الفص لأي عطب فان ذلك يؤدي الى ما يسمى بالحبسة التعبيرية وعدم
القدرة على الكلام والنطق الصحيح ، حيث يبدو النطق متعثرا بطيئا ،
ويتطلب جهدا كبيرا ، وتفقد الجملة المنتجة الى الصياغة القواعدية
الصحيحة ، كما يؤدي الى صعوبات في التحكم في الحركات المطلوبة

(٩٧) انظر د. محمد حسن عبد العزيز : مدخل الى اللغة ٦٣ - ٦٦

انظر : د. موفق الحمداوى : اللغة وعلم النفس ٦٨ - ٧٧

انظر : د. جمعة سيد يوسف : سيكولوجية اللغة والمرض العقلي

١٦٧ - ١٧٤ .

للكتابية • كما تؤدي إصابة الجزء الخلفى من هذا الفص الى عديد من الاضطرابات في الحركات الارادية والتعبيرية ، وفي الحركات المطلوبة لنطق اللغة ويمكن أن يقوم بدورها — اذا ما حدث عطب — تلك المنطقة التصبوتية الاضافية في هذا الفص من البنى الأيمن •

وقد اكتشف الطبيب الفرنسي « بيردكا » في عام ١٨٨١ م بقعة في هذا الفص فوق الأذن اليسرى الى الأمام ، نسبت اليه ، حدد فيها بكل دقة تلك المواقع المخية المسؤولة في هذا الفص عن استخدام اللغة ، وما يترتب على حدوث خلل فيها ، كما تقدم ، وأيدته كثير من الدراسات التي أجريت فيما بعد •

وتشير الدراسات الى أن القشرة أو اللحاء الجبهى يؤدي دوره في تخطيط السلوك والخبرة •

٢ — الفص الصدقى :

ينحصر دوره في عملية فهم اللغة بشقيها المنطوق والمكتوب ، والتعرف على الصيغ السمعية لها • كما يضطلع بدوره أيضا في صياغة الرسالة أو التبليغ •

ويؤدي الخلل في هذا الفص الى صعوبة فهم اللغة •

وتشير بعض الأبحاث أيضا الى أنه كلما كان الخلل أقرب الى الجزء الأمامى ازداد الاضطراب في تحقيق الجانب الحركى للكلام ويكون من مظاهر ذلك اضطراب في تركيب الجمل ، وتحويل نطق بعض الكلمات ، وإبدال كلمة مكان أخرى ، وصياغة كلمات لا معنى لها عند السامع ، واضطراب في الكتابة • وكلما كان الخلل أقرب الى الجزء

الخلفى ازداد الاضطراب في المضمون المعنوى للكلام وتكوين الجمل .
وتصاحب تلك الاضطرابات - في كلتا الحالتين - صعوبة في الفهم .
والادراك .

وقد اكتشف الطبيب فيرنيك - بعد اكتشاف بروكا اسبق بعشر سنوات ، منطقة في هذا الفص ، نسبت اليه ، وتقع تحت المنطقة السمعية وبالقرب منها ، حدد فيها المواقع المخية المسئولة عن فهم اللغة .
بشقيها ، وقد دلت الدراسات اللاحقة على صحة النتائج التى توصل اليها .

٣ - الفص الخلفى (الجدارى) :

تقوم بعض مراكز في هذا الفص عند الحدود العليا للأخدود .
التواصل بين الفصين الجبهى والصدغى ، بعملية الاستقبال وتنتقل .
بدلالات الالفاظ ومعانيها ، بينما يقوم جزؤه الأمامى بالعملية التعبيرية
للغة ، فاذا ما حدث خلل في تلك المواقع فان ذلك يؤدى الى اضطراب
في الاستقبال والتعبير .

٤ - الفص القفوى :

يؤدى دوره في الرؤية ، وفي القراءة ، ويساعد في فهم اللغة ويؤدى
الحل منه الى فقدان الرؤية في النصف الأيمن من المجال البصرى ،
وصعوبات في القراءة ، ونوع من الاعاقة في فهم اللغة والقدرة
الحسابية .

وقد أشارت الدراسات الى أن القشرة أو اللحاء الجانبى .
القفوى يقوم بدور استقبال ومعالجة وتخزين المعلومات . بينما تشير
دراسات أخرى الى منطقتى بروكا (في الفص الجبهى) وفيرنيك .

(في الفص الصلغى) بالاضافة الى منطقة الكلام الاضافية في الفص الجبهي ، تعمل مجتمعة ومتعاونة — بصورة رئيسية — على الاحتفاظ بالكلمات وتخزينها في الذاكرة ، بالاضافة الى سيطرتها على الجوانب الفكرية في الكلام .

ويعزو الباحثون تطور اللغة في أعلى مراحلها الارتقائية لدى الإنسان الى نمو منطقتي بروكا وفيرنيك .

وهكذا نرى أن الشق الأيسر من الدماغ بفصوصه الأربعة يحتوى على المراكز الخاصة باللغة في شقيها المنطوق والمكتوب ، بل ويعتبر المكان الذي يحدث فيه التكامل البصرى — اللفظى بصفة عامة .

وعلى الرغم من أن الوظيفة التى يقوم كل مركز من مراكز المخ تختلف — فى معظم الأحيان — عن وظيفة المراكز الأخرى ، فإن المراكز بشكل عام تعمل بعضها مع بعض بصورة مشتركة عن طريق مناطق الترابط ، وهو الأمر الذى يترتب عليه القول بأن العملية الكلامية تحتاج الى نوع من التوافق الوظيفى بين تلك المراكز ، والا لما حدث الكلام بالشكل المألوف ذى الدلالة ، والذى يصبح أداة للتخاطب والتفاهم بين أفراد المجتمع (٩٨) .

ولأزال العلماء يواصلون جهودهم فى فك مغاليق السر العظيم الذى ينطوى التكوين ، لتشريحى والفسىولوجى والعصبى لمخ الإنسان .

(٩٨) انظر : د . مصطفى فهمى : امراض الكلام ٢٣ - ٢٤ .
(م ١١ - آخران الصفح)

مقارنة بين نظرتي اخوان الصفا والمحدثين :

بعد عرضنا وجهتي نظر اخوان الصفا والمحدثين في تصور عملية الادراك اللغوي فانه يمكن القول بأن كثير من أقوال اخوان الصفا في عملية الاحساس أو الادراك اللغوي تتفق في جملتها مع أقوال كثير من المحدثين مع بعض الفروق والتوضيحات التي سمح بها التقدم العلمي في الحديث ، ومن خلال المقارنة بين النظريتين يمكن أن نستنتج ما يلي :

١ - لقد رأى الاخوان أن الدماغ بأكمله هو المسئول عن عملية الادراك والتواصل اللغوي بصفة عامة ، وهي النظرة التي سادت فترة طويلة ، ثم تغيرت ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر على يد بعض العلماء من أمثال بروكا وفيرنيك وغيرهما حين حددوا بعض المناطق المسئولة في المخ عن الوظائف اللغوية وبخاصة في سقه الأيسر على نحو ما سبق تفصيله ، وان كنا لا نعدم من يتمسك - من العلماء بـ منتصف القرن العشرين - بأن الكلام هو وظيفة المخ بأجمعها (٩٩) ، « وإذا كانت محلية الكلام لا ينافر فيها من حيث المبدأ فان تفاصيل التجديد في حاجة الى اعادة النظر فيها من جديد » (١٠٠) .

٢ - لقد رأى الاخوان أن كل حاسة من حواس الانسان الخمس تتصل بعضو من الجسد ، وتدرك جنسا واحدا من المحسوسات وأن تلك الحواس - حين تدرك محسوساتها يأمر المخ لاتصالها به عن طريق نظام من الأعصاب - تسمى قوى جسمانية حساسة . وكل هذه الرؤى تقرها الدراسة الحديثة .

(٩٩) انظر : د . موفق الحمداني : اللغة وعلم النفس ٦٨ .

(١٠٠) انظر : فلهريسن : اللغة ص ٣٨ .

وقد رأوا أن آثار الحسوسات تتجمع — بواسطة انصبابات اللبنة — في مقدم الدماغ (وهو مركز القوة التخيلية على حد تعبيرهم) ، وهذا يصدق من وجهة النظر الحديثة — مع التسامح — على الشم والذوق فقط إذ حددت المركز الخاص بكل منهما في الفص الصدغي .

أما السمع فمركزه في الفص الجداري (الخلفي) ، وأما بالنسبة لمركزى احساس اللمس والبصر فهما في الفص القفوى .

وقد سبق أن عرفنا أن الاخوان سموا كل قوة من تلك القوى الجسمانية الحساسة نفسا للعضو المختصة به ، ولو استبدل الاخوان كلمة « النفس بكلمة الدماغ أو المخ لكان رأيهم متمشيا مع النظرة الحديثة .

ولك أن تقرأ ما يلي مع استبدال كلمة « النفس » بكلمة « الدماغ » لتدري وضوح العلاقة بين سائر الجسد وبين الدماغ :

« ثم ان هذا الجسد لهذه النفس — من جهة أخرى — بمنزلة دكان الصانع ، وأن جميع أعضاء الجسد للنفس بمنزلة أداة الصانع ، وكأنه ، وان النفس بكل عضو من أعضاء الجسد تظهر ضروبا من الأعمال وفنونا من الأعمال ، كما أن الصانع بكل أداة يعمل ضروبا من الأعمال وفنونا من الحركات ، كالنجار شأنه يخت بالفأس وينشر بالمنشار ويثقب بالمثقب ويبرد بالمبرد وينقر بالمنقار ، وهكذا الحداد شأنه ينفخ بالمنفاخ ويأخذ بالكليتيير ، ويطرق بالمطرقة ، وعلى هذا القياس سائر الصانع ، كل واحد منهم يعمل بأدوات مختلفة أعمالا مختلفة وحركات مثبائية ، فهكذا حال النفس تبصر بالعينين ، وتسمع بالأذنين ، وتشم بالأنف وتذوق باللسان ، وتكلم بالشفاه ، وتسير وتسير باليدين وتعمل الصنائع بالأصابع وتمشى بالرجلين ، وتبرك

على الركبتين وتقع على الإيليتين وتنام على الجنبيين وتستند بالظهر وتحمل الأثقال على الكتفين وتفكر بوسط الدماغ الأشياء ، وتتخيل ، بمقدم الدماغ المحسوسات وتحفظ بمؤخر الدماغ المعلومات ، وتصوت ، بالحلوقوم وتستنشق الهواء بالخياشيم ، وتقطع الطعام بالأسنان ، وتزدرد بالمرى وما شاكل ذلك • وبالجمل ما من عضو في الجسد الا وللنفس فيه ضروب من الأفعال وفنون من الأعمال » (١٠١) •

ولك أن تقرأ غير ذلك مما أورده الاخوان في رسائلهم لترى صدق ما نذكره (١٠٢) •

ولا نعدم في رسائلهم أيضا ما يؤيد وجهة نظرنا حين رأوا أهمية الدماغ وسيطرته على أعضاء الجسد ، اذ يقولون :

« ما من عضو في أبدان الحيوانات صغيرا كان أو كبيرا الا وهو حادم لعضو آخر ومعين له في بقائه وتتميمه في أفعاله ومنافعه ، مثال ذلك الدماغ في بدن الانسان فإنه ملك الجسد ، ومنشأ الحواس ، ومعدن الفكر ، وبيت الروية ، وخزانة الذاقة ، ومسكن النفس ومجلس محل العقل » (١٠٣) •

فإذا ما دققنا النظر في قولهم عن الدماغ أنه « مسكن النفس » يتبين لك صحة رؤيتنا •

٣ - رأى الاخوان أن الدماغ مقسم الى ثلاثة أقسام : مقدمه ووسطى ومؤخره • وهذا التقسيم في مجمله يتفق الى حد ما - من الناحية التشريحية - مع العلم الحديث حين رأى العلماء أن في كل

(١٠١) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٢/ ٣٨٤ - ٣٨٥

(١٠٢) انظر : المرجع السابق ج ٢/ ٣٨٧ ، ٤١٠

(١٠٣) انظر : المرجع السابق ج ٢/ ١٨٩ - ١٩٠

شق من شقى الدماغ أربعة فصوص : أمامى وخلقى وصدغى .
وقفوى على نحو ما سبق تفصيله .

ورأى الاخوان أن لكل جزء من أجزاء الدماغ وظيفة ، فالجزء
الأمامى يتخيل والأوسط يهيمن ويفكر ، والمؤخر يحفظ ويخزن ، وسموا
كل جزء حسب وظيفته ، ونسبوه الى النفس المتمركزة فى الدماغ ،
فسمى الجزء الأول « قوة النفس المتخيلة » والثانى « قوة النفس
المفكرة » والثالث « قوة النفس الحافظة » . ولأن مجارى تلك
القوى فى الدماغ لا فى الحواس الخمس الجسمانية الظاهرة ، وأطلقوا
عليها « قوى النفس الروحانية الحساسة » . ولو استبدلنا « قوة
النفس » - فى كل ما ذكروا - بمركز الدماغ أو المخ لتمشى ذلك مع
النظرة الحديثة .

وقد أكدت بعض الدراسات الحديثة أن اللحاء أو القشرة القفوية
(فى مؤخر الدماغ) تقوم باستقبال وتخزين المعلومات ، فى حين
أشارت دراسات أخرى الى تمركز نقاط التخزين والتفكير فى الفصين:
الأمامى والصدغى كما ذكر « بروكا » و « فيرنيك » على نحو ما سبق .
٤ - وقد ذكر الاخوان قوتين أو مركزين آخرين - لم
يحددوا موقعهما فى الدماغ ، يتعاونان مع مراكز دماغ الانسان
وحواسه فى الادراك ، وبهما تتم حلقة الاتصال اللغوى ، وهما ما
سموه بالقوتين : الناطقة والصانعة أو الكاتبة ، حيث تقوم الأولى
بأمر القوة المفكرة بالتعبير واصدار الكلام ، والأخرى بأمر نفس تلك
القوة بتسجيل اللغة وكتابتها . وقد حددت الدراسة الحديثة موقعهما
فى الفص الأمامى (الجبهى) من الشق الأيسر من المخ على النحو الذى
أوضحناه .

٥ - وقد رأى الاخوان أن وظيفة مراكز الادراك فى الدماغ

تتوقف على سلامة الحواس الخمس من الآفات ، وبخاصة حاستي السمع والبصر ، أو يتوقف على الأولى عمل الدماغ في ادراك اللغة في شغلها المنطوق ، وعلى الثانية ادراك اللغة في شغلها المكتوب . وهذه نظرة ثاقبة أكدتها الدراسة الحديثة ، إذ العملية الكلامية تحتاج الى نوع من التوافق الوظيفي بين مراكز الاحساس والحركة في الدماغ. حتى يحدث الكلام بشكل طبيعي ويكون أداة للتخاطب والتفاهم بين أفراد المجتمع ، وكذلك الأمر نفسه بالنسبة للغة المكتوبة والا حدثت اضطرابات لغوية عديدة كما سبق .

٦ - تحدث الاخوان عن حركات الانسان وقسموها الى قسمين: ارادية وغيرها ، وخصروا الحركات الارادية في مائة ونيف وعشرين حركة ، ورأوا أن للحركات المتطلبة لعملية الكلام تعد من تلك الحركات الارادية ، اذ يقولون :

« اعلم أن حركات أعضاء البدن نوعان : طبيعية وارادية . فالتطبيعية مثل حركات نبض العروق الضواري ، وحركات عضلات صدره وفؤاده ورئته وحلقومه عند استنشاقه الهواء وارساله في حال النوم واليقظة من غير ارادة منه ولا اختيار . وأما الحركات الارادية والاختيارية فمثل القيام والقعود والذهاب والرجوع والصنائع والأعمال والكلام والاشارات بأعضاء بدنه ، فإنه لا يكون الا بارادة واختيار منه ، وهي مائة ونيف وعشرون حركة . . . » (١٠٤) .

وقد أوضحت الدراسة الحديثة - كما سبق - أن المخ يعتبر مركزا للسيطرة ، ويؤدي دوره بشكل فعال بالتعاون مع الأجزاء من الجهاز العصبي ، فتنتقل البواعث القادمة من المتسلطات الحسية

فنذهب الى المناطق المختلفة في المخ حتى تعود في النهاية الى الأنسجة العضلية التي تسيطر على حركة الجسم الارادية وغير الارادية •

وقد حددت الدراسة ذاتها مركز تلك الحركة في أعلى الفص الأمامي (أ الجبهى) في الشق الأيسر من المخ (١٠٥) • وهذا يتفق الى حد كبير مع ما ذكره الاخوان كما سبق: فقد نقلنا عنهم قولهم «انه ينتشر من مقدم الدماغ عصابات لطيفة لينة تتصل بأصول الحواس ويتفرق هناك وتنسج في أجزاء جرم الدماغ كنسج العنكبوت ...» •

وتتألف أعصاب الحركة التي تربط بين مراكز الكلام في المخ وأعضاء النطق من مجموعة من الأعصاب ، أهمها (١٠٦) :

(أ) العصب المسمى الحائر الذي يقوم بالاثارة العصبية بالحنجرة •

(ب) عصب الوجه الذي يتحكم في عضلات الوجه بما في ذلك الشفتين والخدين •

(ج) العصب تحت اللسان الذي يتحكم في العضلات المحركة للسان في عمليتي الكلام والبلع •

(د) العصب اللساني البلعومي الذي يتولى — بالاشتراك مع العصب الحائر — اثارة عضلات البلعوم والحنك اللين •

(هـ) العصب الحجابى الذي يتولى اثارة عضلات الجهاز التنفسي ، ويمتد من منطقة الرقبة الى عضلة الحجاب الحاجز •

(١٠٥) انظر في تفصيل تلك الحركات د. موقى الحميدانى : اللغة

: وعلم النفس ٧٠ - ٧٣ •

(١٠٦) انظر : د. سعد مصلوح : دراسة السمع والكلام ١٩٦٢

(و) العصب المسمى بمثلث التوائم الذى يتحكم فى حركة الفك الأسفل .

ففى أثناء عملية التواصل اللغوى تقوم الألياف المحركة بنقل الحوافز العصبية للمنكلم الى العضلات المتحركة فى جهاز النطق من منطقة (بروكا) التى تتحكم فى النشاط الحركى المعقد لأعضاء النطق ، وذلك عن طريق التحكم فى تقلص هذه العضلات واسترخائها وتوقيت الحركات فى تزامن أو بتتابعها . كما تتعاون الحوافز العصبية السمعية مع حركات أعضاء النطق فى ضبط أنماط التحركات التى تقوم بها تلك الأعضاء .

كما تقوم الألياف الحسية بمهمة عكسية ومكاملة لدور الألياف المحركة . حين تنقل الحوافز العصبية من المستقبلات الحسية فى أعضاء النطق الى المخ ، وهكذا تكتمل فى المخ دائرة الحركة والاحساس فى أثناء عملية التواصل .

٧ - رأى الاخوان أن الحواس الانسان دورا رئيسيا فى الادراك بعامة ، وأن لحاستى السمع والبصر نفس الدور فى الادراك اللغوى بخاصة .

ولا يزال المحدثون يرددون ما ذكره الاخوان وغيرهم فى أهمية هذه الحواس : ويؤكدون أن حاستى السمع والبصر أكثر الحواس نفعا فى ادراك واكتساب المعارف بعامة وأصوات اللغة رموزها المكتوبة بخاصة (١٠٧) .

(١٠٧) انظر : د . تمام حسان : اللغة بين المعيارية والوصفية ص ١٠٥ . وما بعدها ط المغرب . وقد تحدث بصراحة عن دور الرموز اللمسية والدوقية والشمية والسمعية والبصرية فى عملية الاجراء ، وتحدث عن موقع الرموز الصوتية والمكتوبة من بين تلك الانواع .

كما أثبتت بعض الدراسات الحديثة تميز العين على الأذن في القدرة على الاستقبال ، كما سبق في أثناء الحديث عن سماع الصوت العام ، فارجع اليه (١٠٨) •

٨ — رأى الاخوان أن للقلب دورا مهما ، ولولا قوة هذه الحاسة لبطأت بقية الحواس • والحقيقة أنى لم أعثر فيما اطلعت عليه من كتابات المحدثين ما يؤيد كلام الاخوان أو يرفضه ، بيد أنهم ينسبون الى القلب الأمور العاطفية • أما القدماء من الحكماء والفلاسفة والصوفية وغيرهم فإن نظرتهم الى القلب لا تبعد كثيرا عن نظرة اخوان الصفا •

لهما هو الحكيم الترمذى : " أبى عبد الله محمد بن على (ت ٣٣٠ هـ) يرى — مثلا — أن « القلب ليس في يد النفس رحمة من الله تعالى ، لأن القلب هو الملك ، والنفس هي المملكة » (١٠٩) •

ويرى أن « علم الأشياء مجتمعة منراكمة في الصدر بعضها على بعض ، فاحساس القلب من ذلك العلم هو علم القلب ، أداة الى الذهن والى الحفظ ، فالذهن قبله بما استودعه الحفظ حتى يؤديه عند الحاجة اليه » (١١٠) •

أما اللغويون وأصحاب المعاجم فنراهم يطلقون على العقل قلبا ، وعلى القلب عقلا وكذلك الأمر بالنسبة للـب (١١١) •

-
- (١٠٨) وانظر : كندرانوف : الاصوات والاشارات ٥٢ — ١٥٣ •
 (١٠٩) انظر : بيان الفرق بين الصدر والقلب والغزاد واللب ٣٧ تحقيق : د. نفو لاهير • دار احياء الكتب العربية ١٩٥٨ •
 (١١٠) انظر : علم الاولياء • تحقيق : د. سامى نصر ١٣٧ • القاهرة ١٩٨٣ •
 (١١١) انظر : ابن منظور : لسان العرب «عقل» ، قلب ، لب •

٩ - ربط الاخوان بين قوى الاحساس والادراك مختلف القوى ،
في الانسان وبين الأفلاك والكواكب ، يتضح هذا قولهم :

« اعلم أن البارئ تعالى جعل في تركيب جسد الانسان أمثلة
واشارات الى تركيب الأفلاك وأبراجها ، والسموات وأطباقها ، وجعل
سريان قوى النفس في مفاصل جسده ، واختلاف أعضائه كسريان قوى
أجناس الملائكة وقبائل الجن والإنس والشياطين في أطباق السموات
والأرض في أعلى عايين ، وأسفل سافلين » (١١٢) •

وقد أسهبوا في توضيح تلك العلاقة في مواضع متفرقة من
رسائلهم ، من ذلك حديثهم عن القوى الجسمانية والروحانية للنفس ،
وأن هذا يشبه الكواكب ، اذ هي ذوات نفوس وأجسام ، ومن ثم فإن
لها أفعالا جسمانية في الأجسام ، وأفعالا روحانية في النفوس • ومن
ذلك حديثهم عن القوة الناطقة ، وأن نسبتها الى القوة العاقلة كنسبة
القمر الى الشمس ، وذلك أن القمر يأخذ نوره من الشمس في جريانه
من نازل القمر الثمانية والعشرين ، كذلك القوة الناطقة تأخذ معاني
الفاظه بجريانه في الحلقوم فيمهر عنها بثمانية وعشرين حرفا • ومن
ذلك حديثهم عن صلة العقل بالجسم كصلة العالم العلوى بالعالم
السفلى ، فكما ينحط من الروحانيات الى العالم ما يكون به صلاحه
فكذلك تنحط من القوة العاقلة من الرأس الى الجسم ما يكون به
صلاحها • ومن ذلك حديثهم عن الحاسة السامعة وأنها مناسبة لطبيعة
الفلك الذى هو مسكن الملائكة الذين شعارهم وشغلهم ليوم ونهارهم
وكلامهم كله تقديس وتسبيح وتهليل ويأتذ بعضهم بسماع بعض ،

• ويقدم لهم في ذلك العالم العلوى مقام الغذاء في العالم السفلى •
• وهكذا (١١٣) •

وهذا الاعتقاد منبثق من فكرتهم العامة التى مفادها أن كل الكائنات التى دون فلك القمر مربوطة بحركات الأشخاص الفلكية • وقد سبق أن عرفنا بطلان هذا الاعتقاد وذلك فى الفصل الثالث •

ونتساءل كيف يكتسب الانسان لغة مجتمعة ؟ ومتى ؟ وما طرقا هذا الاكتساب ؟ وما عوامله ؟ وهل يختلف تصور الاخوان فى ذلك عن تصور المحدثين • وللإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها عقدنا الفصل التالى •

(١١٣) انشر هذا بالتفصيل فى المرجع السابق ج٢/٤٦٣ - ٤٦٨ •

ج ١٢٣/٢ - ١٢٥ ، ج ٢٣١/٤ - ٢٣٥ •

الفصل السادس

الاكتساب اللغوى

يمثل لاكتساب اللغة (أو التنشئة اللغوية) أحد الموضوعات التي حظيت باهتمام العلماء وبخاصة علماء النفس الارتقائيون واللغويون .
وتجد في رسائل اخوان الصفا اشارات تتصل بهذا الموضوع ،
وطك الاشارات لا تمثل الا قدرا ضئيلا مما كتب عن هذا الموضوع في
العصر الحديث . ويهمننا أن نتعرف على تلك الاشارات في ضوء ما كتب
عنها حديثا . فقد عقد الاخوان فصلا في الرسالة الخاصة بالآراء
والحيانات ، بعنوان « بيان ما يخص الانسان من المعلومات » (١)
قالوا فيه :

« ان الله لما خلق الانسان الذى هو آدم أبو البشر ، عليه السلام ،
وفضله على كثير ممن خلق قبله تفضيلا ، جعل احدى فضائله كثرة
العلوم وغرائب المعارف ، وجعل له اليها عدة طرق : فمنها طرق
الحواس الخمس التى بها يحرك الأمور الحاضرة في المكان والزمان ، كما
بيننا في رسالة الحاس والمحسوس . ومنها طريق استماع الأخبار التى
ينفرد بها الانسان دون سائر الحيوانات ، يفهم بها الأمور الغائبة عنه
بالزمان والمكان جميعا ، كما ذكر الله تعالى ومن به عليه فقال : « خلق
الانسان . علمه البيان » (٢) . ومنها طريق الكتابة والقراءة يفهم بها
الانسان معانى الكلام واللغات والأقاويل ، بالنظر فيهما عن لم يره من

(١) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣ / ٤١٤ - ٤١٥ .

(٢) الآيةان ٣ - ٤ الرحمن .

أبناء جنسه مع الزمان ، أو من هو غائب عنه بالمكان ، كما قال الله ومن
 به على الانسان ، فقال لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام : « اقرا وربك
 الآخر • الذي علم بالقلم • علم الانسان ما لم يعلم » (٢) • وبهده
 الفضيلة شارك الانسان الملائكة الكرام ، كما قال الله تعالى : « وان
 عليكم لحافظين • كراما كاتبين • يعلمون ما تفعلون » (٤) • واعلم أن
 فهم القراءة والكتابة ومعرفتها متأخرة عن فهم الكلام والأقوال ، كما
 أن فهم الكلام والأقوال ومعرفتها إنما هي متأخرة عن فهم
 المحسوسات ، كما هو بين ظاهر لا يخفى على العقلاء ، وذلك أن الطفل
 إذا خرج من الرحم فإنه في الوقت والساعة تدرك حواسه محسوساتها ،
 فيحس بالقوة اللمسة الخشونة واللين ، وبالقوة الباصرة النور
 والضياء ، وبالقوة الذائقة طعم اللبن ، وبالقوة الشمامة الروائح ،
 وبالقوة السامعة الأصوات ، ولكنه لا يعلم معاني الكلام والأصوات
 إلا بعد حين • فأول شيء يحس باللمس فيتألم ، لأن حاسة اللمس
 أعم الحواس ، ثم يحس بالطعم فيميز لبن أمه من غيره ، ثم يميز
 بين الروائح فيعرف الشم ، ثم يميز بين الصوت التشديد الجهر وبين
 الصوت الضعيف الخفيف ، ثم يفرق بين الصور ، ثم يميز على ممر
 الأوقات بين نعمة الأم ونعمة الأب والاخت والاقرباء
 وغيرهم ، ثم شيئاً بعد شيء على التدريج • وعلى هذا المثال فهم
 ومعرفته بسائر الحواس ومحسوساتها ، الى أن تنتم سن التربية ،
 ويعلق باب الرضاع ويفتح الكلام والنطق ، ثم بعد ذلك تجيء أيام
 الكتابة والقراءة والآداب والصنائع والرياضيات وسماع الأخبار
 والروايات والفقه في الدين والنظر في العلوم والمعارف ، وطلب حقائق
 الموجودات والبحث عن الكائنات ، والاستدلال بالناظرات على

(٣) الآيات ٣ - ٥ الملق •

(٤) الآيات ١٠ - ١٢ الانفطار

« الغائبات ، والمحسوسات على المعقولات وبالجسمانيات على الروحانيات ، وبالرياضيات على الطبيعيات ، وبالطبيعيات على الإلهيات التي هي الغاية القصوى في العلوم والمعارف والسعادة الأبدية والحوام السرمدي ، بلغك الله وإيانا هذه الغاية وشرح صدرك وفتح قلبك ونرر فهمك ، وصفى نفسك ، وحسن أخلاقك وأصلح شأنك ، وزكى أعمالك ، وأنعم بآمالك ، وآكرمك مما أنعم به على أوليائه وأنبيائه بما علمهم من البيان والكتاب ، كما قال تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » (٥) .

وعقد الاخوان فصلا آخر في رسالة الحاس والمحسوس بعنوان « بيان المحسوسات بعضها بالذات وبعضها بالعرض » (٦) قالوا فيه :

« اعلم أن الانسان اذا رأى ثمرة من بعيد ، يعلم من وقبة أنها حلوة أو مرة أو طيبة الرائحة أو ممتنة ، أو أنها خشنة أو لينة أو صلبة أو رخوة أو حارة أو باردة أو رطبة أو يابسة ، وليس علمه بهذه الصفات كلها بطريق البصر ، ولكن بالقوة المفكرة وبرؤيتها وتجاربها وما جرت لها به العادة . وكذلك اذا أخطأ في حكم شيء من هذه فليس الخطأ من قبل الباصرة ، ولكن من قبل المفكرة اذا حكمت من غير روية ولا اعتبار . مثال ذلك اذا رأى الانسان السراب فظن أنه الماء فليست الباصرة هي المخطئة ، ولكن المفكرة حكمت بأن ذلك المثلون يناله اللامس والذوق ، وهو جسم سيال رطب ، فلما جاءه لم يجده بهذا الوصف ، فبان خطأها ، فسبيل المفكرة اذا أدت اليها التخييلة أثر حاسة واحدة ألا تحكم أو تستخبر حاسة أخرى ، فان شهدت لها حكمت عند ذلك بأنها كيت وكيت . مثال ذلك اذا رأت الباصرة تفاحة معرلة من

(٥) الآية ٣٢ فاطر .

(٦) انظر : رسالة اخوان الصفا ج ٢ / ٤١١ - ٤١٢ .

الكافور ، مصبوغه دليون التفاح فأوردت خبرها الى المتخيلة ، فأوردتها
 هي الى المفردة ، فليس سبيلها أن تحكم أن طعمها ورائحتها وملسها
 مثل التفاحه التي هي الثمرة ، أو تستخير قوة الرائحة والشامة
 اللامسة . فإذا أخبرت كل واحدة منها بما لها أن تخبر به حكمت عند
 ذلك المفكرة بأنها كيت وكيت حتى يكون حكمها صوابا لا خطأ فيه .
 ثم اعلم أن من أجل هذه العلة منعت القوة الناطقة أن تعبر على السنة
 الأطفال حكم شيء من معاني المحسوسات ، لأن المفكرة بعد لم تحكم
 معانيها ، ولم تميزها تمييزا صحيحا ، فإذا مضت سنون التربية ،
 ودفع القمر التدبير الى عطارده صاحب المنطق والتمييز ، أطلق لسان
 المولود بالعبارة والبيان عن معاني المحسوسات التي أدت الحاسة
 الى المفكرة » .

وعلى ضوء ما نقلناه عن الأخوان نستطيع أن نلقى الضوء على
 معنى اكتساب اللغة ، وطرقه ، والفترة الزمنية التي يتحقق فيها ،
 ومستوياته ، وعوامله ، وأسباب تفاوت الناس فيه ، وأفضلية الانسان
 على ما سواه بقدرته على اكتساب اللغة وتعلمها .

معنى اكتساب اللغة :

ان اكتساب لغة من اللغات ما هو الا عملية فهم (٧) ملك اللغة
 ثم القدرة على استخدامها نطقا وكتابة ، فهو عمليتا فهم وتعبير ،
 ويرتبط الاكتساب بهما معا ، اذ القدرة على تلفظ اللغة يعتبر مهارة

(٧) ينظر البعض الى فهم اللغة باعتباره العملية النهائية التي
 تبدأ بالادراك وتنتهي بالاستيعاب والفهم ، ويرى البعض أن الادراك عام ،
 والفهم ينضوئ تحته ، ويرى البعض أنهما مترادفان . راجع : د . جمعة
 سيد يوسف : سيكولوجية اللغة والمرض العقلي ، ص ٦٥٠ وما بعدها .

أساسية لفهمها ، فالذى يفقد القدرة على التحكم في حركة فمه وشفتيه
ولسانه نتيجة عطب في مخه يعافى أيضاً من اضطراب في فهم اللغة
واصدارها (٨) ، والذى يفقد القدرة على التحكم في حركة اليدين نتيجة
عطب في المراكز المخية المختصة بهما يفقد القدرة على التعبير
بالكتابة (٩) .

وعمليتا الفهم والتعبير يتضمنهما قول الاخوان السابق : « فاذا
مضت سنون التربية ... أطلق لسان المولود بالعبارة والبيان عن معانى
المحسوسات التى أدت الحاسة الى المفكرة » .

طرق اكتساب اللغة :

ويكتسب الطفل السوى بتفاعله مع الأفراد المحيطين به في
بيئته ، وتحدثه معهم ، وسماعه اللغة منهم ، وتقليدهم ، وتشجيعهم
له ، بالإضافة الى ما لديه من استعداد لمهارة لغوية فطرية تسمى جهان
الكساب اللغة ، تمكنه من اكتساب اللغة وتعلمها .

وقد أشار الاخوان الى أثر البيئة في الفرد واكتسابه المعارف
عامة ، فائلين :

« وكل من يكون من الناس مخالفاً لسيرة أبويه وأهله وأقاربه
وعشيرته في صناعتهم ومذهبهم ورأيهم وتجاربههم وجميع أحوالهم الا
أن يبعد عنهم ويفارقهم ويصير الى غيرهم لأسباب وعلل تحدث من
أمر الزمان وتغاير الأيام » (١٠) .

(٨) انظر : المرجع السابق ١٠٢ - ١٠٣ .

(٩) انظر : د . مصطفى فهمي : أمراض الكلام ص ٦٨ .

(١٠) انظر : الرسالة الجامعة ج ١/ ٧٠٩ ، والرسائل ج ١/ ٣٠٧ .

وكذا نشم الاستعداد الفطرى الغريزى فى قولهم :

« اعلم يا أخى أن نفس العلماء علامة بالفعل ، وأنفس المتعلمين علامة بالقوة ، والتعليم ليس شيئاً سوى إخراج ما فى القوة إلى الفعل ، والتعلم هو الخروج من القوة إليه ، وإن كل شيء بالقوة لا يخرج إلى الفعل إلا لشيء هو بالفعل يخرج به إليه » (١١) •

وفى قولهم :

« نفوس الصيبيان علامة بالقوة ، ونفوس الأستادين علامة بالفعل ، وكل نفس علامة بالقوة لأبد لها من نفس علامة بالفعل تخرجها من القوة إلى الفعل » (١٢) •

وقد رأوا أن النفس تتألف من ثلاث طرق المعلومات من ثلاث :
أولها الحواس ثم العقل والفكر والروية ، ثم البرهان (١٣) •

ويولى الإخوان اهتماماً خاصاً بحاستى السمع والبصر فى عملية اكتساب المعارف بعامة واللغة بشقيها المنطوق والمكتوب بخاصة ، فراهم يقولون :

« اعلم أن الإنسان مع استماعه الأصوات وتمييزه بالتلغيمات يفهم معانى اللغات والأقاويل ، كما أنه عند نظره إلى الخطوط والكتابات يفهم ما يتضمنها من معانى الكلام والعبارات ما لا يفهم عليها غيره من الحيوانات ، ثم اعلم أن من هاتين الطريقتين أكثر معلومات الإنسان التى ينفرد بها دون سائر الحيوانات » (١٤) •

(١١) انظر : رسائل الإخوان الصفا ج ١/ ٣٩٩ •

(١٢) انظر : المرجع السابق ج ١/ ٢٧٧ ، ج ٢/ ٣٩٦ ، ج ٣/ ٤٢٤ •

(١٤) انظر : رسائل الإخوان الصفا ج ٣/ ٤١٢ - ٤١٣ •

(م ٢٢ - الإخوان الصفا)

ونرى في تراثنا أيضا ما يؤكد أهمية السماع من البيئة في اكتساب اللغة ، فها هو ابن فارس يقول :

« تؤخذ اللغة اعتيادا كالصبي العربي يسمع أبويه وغيرهما ، فهو يأخذ اللغة عنهم على مر الأوقات » (١٥) •

ونجد صدى هذه الفكرة يتردد في عصرنا الحديث ، إذ نرى البعض يعول على المحاكاة والتفائل بين الطفل وبيئته في اكتساب اللغة ، فيما يعرف بنظرية المحاكاة أو النظرية المعرفية • بينما نجد نظريات حديثة أخرى ترفض هذا ، فبعضها يرجع الاكتساب اللغوي الى وجود تنظيمات موروثية لدى الطفل ، وأنه مزود بجهاز نظري يساعد الطفل على اكتساب لغته ، فيما يعرف بنظرية تحليل المعلومات أو النظرية المعرفية • وبعض النظريات ترى أن المهارة اللغوية ينمو وجودها عن طريق التقليد لكلمات وجمل معينة ينطق بها الطفل في سياقات معينة ، ويتم تدعيمها عن طريق المكافأة ، فيما يعرف بنظرية التعليم والتشريط.

وقد بنى أصحاب كل نظرية وجهة نظرهم على انتقاداتهم لأصحاب النظريات الأخرى • ومن الأفضل أن ننظر الى كل نظرية على أنها مكملة للأخرى ، وأن ننظر الى عملية اكتساب اللغة على أنها نتاج كل النظريات مكتملة (١٦) •

(١٥) انظر : الصاحبى : ٤٨ ، والسيوطى : المزهر ج ١ / ١٤٤

(١٦) انظر : د. موفق الحمدانى : اللغة وعلم النفس ١٣٣ - ١٣٧

د. محمد حسن عبد العزيز : مدخل الى اللغة ٣٨ - ٥١ •

د. جمعة سيد يوسف : سيكولوجية اللغة والمرضى العقلي ٤٧ - ٥١ ،

١١٦ - ١٢٤ •

د. نايف خرما ، د. علي حجاج : اللغات الأجنبية : تعليمها

وتعلمها ص ٥٥ وما بعدها سلسلة عالم المعرفة : العدد ١٢٦ شوال

١٤٠٨ هـ / يونيو ١٩٨٨ م •

مراحل اكتساب :

ولا يتحقق اكتساب اللغة دفعة واحدة ، وإنما يأتي بالتدريج ، وعلى مراحل من حياة الإنسان وبخاصة السنوات الخمس المبكرة من عمره التي تنمو فيها قدراته العقلية (١٧) .

وقد أشار الإخوان الى هذا التدريج ، فبالتأصل فيما نقلناه عنهم ، نرى أن هناك مرحلة ما قبل كلام الطفل ونطقه ، وهي تبدأ بأدراك المحسوسات اللمس ، ثم الطعم ، ثم الرائحة ، ثم يدرك المسموعات ، فيستطيع أن يميز بين أنواع الأصوات ، ثم يدركها ، يضعيفها ، جهيرها وخفيها ، كما يستطيع أن يميز بين نغمات أفراد بيتته التي يعيش فيها : أبيه ، أمه ، أخيه ، أخته . . الخ ، ثم ينمو عقلا تدريجيا حتى يستطيع أن يعبر عما يحسه ويدركه من معاني المحسوسات ، ثم بعد ذلك يكتسب اللغة في شكلها المكتوب حين يتعلم الكتابة والقراءة ، ويحصل العلوم والمعارف المختلفة في أرقى صورها العقلية .

وقد فصل المحدثون من علماء اللغة والنفس والاجتماع وغيرهم في المراحل التي تنمو فيها قدرات الطفل العقلية والتي يستطيع من خلالها اكتساب لغة مجتمعه .

فتشير بعض الدراسات الى أن عملية الاكتساب اللغوي تتم في ثلاث مراحل متتالية من عمر الطفل : المرحلة الاعدادية ، وهي مرحلة وجود الطفل وسط أسرته ، والمرحلة الموجهة ، وهي مرحلة وجود الطفل وسط معلميه وفي مدرسته ، والمرحلة التي تبدأ ببلوغ الطفل .

وتكون لغة الطفل — في مرحلة الأولى — معبرة في معظمها عن

(١٧) انظر : كندراخوف : الأصوات والاشارات ١٧٥ - ١٧٧ .

الموجدان والنزوع ، ثم تتطور تدريجياً إلى التعبير عن الإدراك وعندئذ. تصبح لغته وسيلة للدلالة على الموضوعات والمواقف ، ويصبح الطفل قادراً على إيصال تفكيره إلى الآخرين .

ويمكن الطفل — في مرحلته الثانية ، حين تنمو قواه الإدراكية — من أن يكتسب من لغته طرق التفكير الشائعة في مجتمعة ، إذ إكتساب اللغة إكتساب بالضرورة لطرق التفكير الشائعة ، والفروض الأساسية التي ينبني عليها التفكير والجراءات الاستقرائية والقياسية التي يشيعها تطور العلوم . وحين يصل الإنسان إلى سن البلوغ — وتلك هي المرحلة الثالثة — فإن كان في مجتمع بدائي تظل لغته على حالها نظراً لثبات مدى التجربة وعدم تغيرها ، وإن كان في مجتمع متحضر ، قارئ ، كاتب ، فإنه لا يكاد ينتهي إكتسابه اللغة طوال حياته (١٨) .

وقد انتقد هذا التسلسل الزمني الذي يكتسب الطفل من خلاله لغة مجتمعه ، إذ الطفل في سن الثالثة من عمره ربما يكون قادراً على التفكير المنطقي ، وبخاصة الطفل الشديد الذكاء ، إذ الأطفال يتفاوتون في قدراتهم وظروفهم الاجتماعية (١٩) .

ونلمح لهذه النظرة الحديثة شبهة في ربائل أخوان الصفا ، إذ نجدهم يذكرون أن الإنسان يمر بثلاث مراحل في إكتسابه المعارف والمعلومات المحسوسة والمعقولة والمبرهنة بصفة عامة : أول الصبا ، وفيها يدرك الصبي المحسوسات عن طريق حواسه الخمسة وعند البلوغ

(١٨) انظر : لويس : اللغة في المجتمع ص ٢٨ — ٩٥، ترجمة د. تمام حسن ، د. إبراهيم أنيس . دار احياء الكتب العربية ١٩٥٩م .
(١٩) انظر : المرجع السابق ٥٢ — ٥٣ .

وفيها يدرك الإنسان المعقولات عن طريق قوة الفكر ونضجه ، وما بعد البلوغ ، ومنها ينفرد قوم من العلماء دون غيرهم بإدراك الأمور المبرهنة عن طريق البرهان • يتضح هذا في قول الاخوان :

« ان علم الانسان بالمعلومات يكون من ثلاثة طرق : أحدها طريق الحواس الخمس الذي هو أول الطرق ، ويكون جمهور علم الانسان ومعرفته بها من أول الصبا ، ويشترك الناس كلهم فيها ، وتشاركهم الحيوانات والثاني طريق العقل الذي يتفضل به الانسان دون سائر الحيوانات ومعرفته به تكون بعد الصبا عند البلوغ • والثالث طريق البرهان الذي يتفرد به قوم من العلماء دون غيرهم من الناس ، وتكون معرفتهم بها بعد النظر في الرياضيات الهندسية والمنطقية » (٢٠) •

وقد حصرت بعض الدراسات الحديثة الأخرى مراحل اكتساب اللغة في أربع مراحل متداخلة : مرحلة ما قبل الكلام ، ثم مرحلة ادراك الأصوات واصدارها ، ثم مرحلة الكلمة الواحدة ، ثم مرحلة الكلمتين وما بعدها •

ففي المرحلة الأولى لا تكون الأجهزة الإدراكية والصوتية للوليد متاحة على اصدار الكلام ، وان كانت مهيأة لذلك ولديها القدرة على الاكتساب بناء على عملية نضج للجهاز العصبي المركزي والذي يتم على مراحل •

وفي المرحلة الثانية تنمو قدرة الطفل على الكلام تبعا لنمو قدرته على الانتباه اليه ، ملايح الأصوات وأدائها •

وفي المرحلة الثالثة ينطق الطفل كلمته الأولى بين الشهرين العاشر والثالث عشر •

وفي المرحلة الرابعة يستطيع أن يعبر بجملة مكونة من كلمتين فأكثر فيما بين الشهرين الثامن عشر والعشرين • ثم تستمر عملية الاكتساب والنمو في التزايد والثراء والخصوبة (٢١) •

ومع تداخل الفترات الرمزية التي يستطيع الطفل في أثناءها اكتساب اللغة ، ومع تعدد الدراسات حول هذا الموضوع فإنها تشير في جملتها إلى أن الطفل في عامه الأول يستعمل في تعبيره كلمة في معنى الجملة ، وفي سن العامين يستعمل كلمتين معا ، وفي عامه الثالث يستطيع أن يعبر عن أفكاره في جمل قصيرة بسيطة ، وقد تتكون من ثلاث كلمات وفي عامه الرابع والخامس تطول الجمل ويزداد عدد الكلمات ، وكل هذا وفق فكره ونموه ودرجة ذكاءه ، والبيئة التي يعيش فيها ومستواه الاجتماعي (٢٢) •

مستويات اكتساب اللغة :

ولعلنا من خلال ما تقدم نرى أن مستويات اللغة المكتسبة تبدأ بالأصوات ثم تتحول إلى كلمات ذات معنى ، ثم تصير جملا تحمل دلالات ، وكل تلك المستويات تكتسب وتنمو بشكل متآزر •

وإذا كانت الدراسات الحديثة وفقّت إلى حد كبير في معرفة الحصيلة اللفظية التي يكتسبها الطفل في سنواته المبكرة فإنها لا تزال عاجزة عن توضيح المستوى الدلالي الذي تنطوي عليه تلك الحصيلة المكتسبة ، فلا يزال الارتقاء الدلالي الجانب الأكثر عرضا من جوانب

(٢١) انظر : د. محمد حسن عبد العزيز : ملخص إلى اللغة ٥١-٥٧ ،

د. موفق الحمداني : اللغة وعلم النفس ١٤٠ - ١٦٨ •

د. جمعة سيد يوسف : سببولوجية اللغة والمرض العقلي ١١٢-١١٥ •

(٢٢) انظر : د. مصطفى فهمي : أمراض الكلام ٢٧ •

اكتساب اللغة على الرغم من المحاولات العديدة التي تعرضت له ،
 فبعض الباحثين يرى أن عملية تكوين المفاهيم تبدأ منذ الولادة ، ولا
 يستطيع الطفل أن يكتسب معاني الكلمات إلا إذا تكونت لديه المفاهيم.
 التي تربط بها الكلمات أولاً . في حين يرى باحثون آخرون أن الطفل
 في سن العام والنصف إلى العامين يتمتع بفهم العلاقة بين الرمز
 والمعنى ، وقد رفض هذا الرأي ، لأن عقل الطفل في هذا الوقت من
 العمر قد لا يسمح له بالعمليات المرعبة (٢٣) .

عوامل اكتساب اللغة :

أما العوامل التي تدفع الطفل إلى اكتساب اللغة بمستوياتها فقد
 حصرها الاخوان في اثنين : أحدهما يتصل بالأفلاك وتأثيرها في الإنسان
 « فإذا مضت سنون التربية ودفع القمر التدبير إلى عطارده صاحب
 المطلق والتميز أطلق لسان المولود بالعبرة والبيان عن معاني
 المحسوسات التي أدت المحاسة إلى المفكرة » . وثانيهما يتصل بالفكر
 وقوته ونضجه ورؤيته وتجاربه وما جرت له به العادة ، وما يلزم ذلك
 من سلامة الحواس من الآفات العارضة ، وبخاصة حاستي السمع
 والبصر كما سبق .

أما العامل الأول فزعم مرفوض واعتقاد باطل كما رأينا في الفصل
 الثالث . وأما الثاني فمقبول ومسلم به .

(٢٣) انظر : د. جمعة سيده يوسف : سيكلوجية اللغة والمرضى

تفاوت الناس في اكتساب اللغة وأسبابه :

ويتفاوت الناس في اكتسابهم اللغة بشقيها المنطوق والكتوب
مثل ما يتفاوتون في اكتساب المعارف عامة * وقد أشار الى ذلك الاخوان
في أكثر من موضع اذ يقولون :

« اعلم أن لكل أهل ملة وشريعة. كتاب بأمر ونهى وحلال وحرام
وقضايا وأحكام ، وصناعة من الكلام والكتابة والألحان والنغمات ،
وفيه من هو عارف بكلية ذلك ، ومنهم دونه في المعرفة ، ومنهم من
قد عدم صناعة الكتابة الا أنه عارف بالأسماء والمسميات ، وينطق
بحروف الأسماء ، ولا يعرف صورها ولا يحسن أن يخطها بيده ولا أن
يؤلف بينها بنظره ويأخذ جميع ما يلقي اليه تلقينا ، وربما تجده جيد
المخط قليل المعرفة ولا حسن سوى الخط المسطور من غير تصور ،
ويكون منفعة ذلك لغيره لا له * ومنهم من يكون جيد المعرفة قليل
النسيان ، فغرضه أن يعرف الأشياء التي يحتاج اليها مخافة أن
ينساها ويستظهر منها ما تدعو حاجته اليها » (٢٤) *

ويقولون في تفاوت الناس في اكتسابهم اللغة نتيجة تفاوتهم في
القوتين السامعة والباصرة *

« واعلم أن بنى الانسان في هاتين القوتين متفاوتوا الدرجات
تفاوتا بعيدا جدا ، وذلك أن من الناس من لا يفهم الا لغة واحدة ،
ولا يعرف أيضا من معانى تلك اللغة من الأشياء والألفاظ والأصوات
الا شيئا قليلا ، ومن الناس من يفهم عدة لغات ويحسن أن يقرأ عدة

كلمات ، ويفهم من كل لغة أسماء وأقوال وكثير ، ويفهم معاني دقيقة ما لا يفهم غيره من الناس . وهذه أحد أسباب اختلاف الناس في المعارف ، واختلاف العلماء في الآراء والمذاهب « (٢٥) » .

ومن الملاحظ من خلال هذا النص أن الإنسان قد يتكلم بلغات متعددة وهذا أمر ممكن ، إذ نلاحظ أن بعض الأطفال الذين يعيشون في بيئات تتكلم لغتين يمكنهم بسهولة اكتساب اللغتين ، وكذلك الأمر إذا ولد الطفل لأبوين مختلفي اللغة .

ومن ناحية أخرى فإن تعلم اللغة الأجنبية يختلف صعوبته تبعاً لسن المتعلم والبيئة التي يعيش فيها أثناء تعلمه للغة ، كما تختلف صعوبته تبعاً لطبيعة تلك اللغة من حيث مشابهتها أو مخالفتها نطقاً وكتابةً للغة المتعلم الأصلية .

وفقد تعددت طرائق تدريس وتعليم اللغات الأجنبية ، فمنها « طريقة الترجمة » التي تعتمد على تعليم حروف الهجاء بالطريقة التقليدية ثم تعليم الكتابة والقراءة ثم حفظ كلمات من اللغة الأجنبية من معانيها بلغة المتعلم الأصلية ، وهي طريقة عميقة ، ومنها « الطريقة المباشرة » التي تركز على تعاليم اللغة بالطريقة التي يتعلم بها الطفل لغته الأصلية ، وذلك باختلاق بيئة اللغة وعدم استخدام اللغة الأصلية للمتعلم أو أية لغة وسيطة ، كما تستعين بالحركة والصورة والوسائل المختلفة للربط بين اللفظ ومعناه . وهذه طريقة بطيئة وتتجاهل العادات التي يكونها المتعلم من استعمال لغته الأصلية ، وأيضا لا تمين على فهم المعاني المجردة .

ومن هنا « الطريقة السمعية الشفوية » وهي تبدأ بتعليم الكلمة

المسموعة قبل الكلمة المرئية ، أو بتعبير آخر تعليم الوحدة والأنماط الصوتية قبل محاولة تعليم القراءة والكتابة ، وتوجب استخدام الوسائل الصوتية والبصرية من أشرطة تسجيل وأملام تعليمية وغيرها للاستماع والنطق والتدريب على الكلام والمقارنة لتصحيح الأخطاء . ولا تستبعد هذه الطريقة الاستعانة باللغة الأصلية أو الوسيلة المختصرة للوقت وتحديد المعنى . وتعد هذه الطريقة أحدث الطرق وأنفعها للبالغين (٢٦) .

وقد وضع الاخوان بذور تلك الطريقة حين قالوا كما سبق « اعلم أن فهم القراءة والكتابة ومعرفتها متأخرة عن فهم الكلام والأصاويل ، كما أن فهم الكلام والأصاويل ومعرفتها انما هي متأخرة عن فهم المحسوسات كما هو بين ظاهر لا يخفى على العقلاء » . وحين أكدوا أهمية السمع والبصر في اكتساب اللغة والمعارف ، وأن من هاتين الطريقتين أكثر معلومات الإنسان التي ينفرد بها دون سائر الحيوانات .

وقد أرجع الاخوان التفاوت في اكتساب اللغة والمعارف عامة الى عدة أسباب ، بعضها يرجع الى الأفراد ذاته ، كتفاوت آلات قوتهم الداركة في الجودة والرداءة ، وتفاوت تركيب أدمغتهم ومزاج أبدانهم . وبعضها يرجع الى البيئة التي يعيشون فيها ، كتشوّئهم على سنن آبائهم وأستاذيهم ومعلميهم ، ومن يصحبونهم في الطلب طول أعمارهم.

(٢٦) انظر : محمود مرسى راشد في تقديمه لكتاب الدكتور على الحديدي : مشكلة تعليم اللغة العربية لغير العرب ٣ - ٧ داء الكتاب العربي للطباعة والنشر .
وانظر د . نايف خرما ، على حجاج : اللغات الاجنبية : تعليمها وتعلمها ١٦٥ وما بعدها .

من اخوانهم وأصدقائهم ، مما يترتب على ذلك اختلاف طبائعهم وأخلاقهم ولغاتهم وتفاوتهم في تحصيل العلوم والمعارف (٢٧) •

وقريب من هذا ما ذكره المحدثون ، فقد أرجعوا تفاوت الأطفال في محصولهم اللغوي في سنوات حياتهم المبكر الى عدة عوامل ، منها : امكانية الطفل العقلية ، ومدى استجابة حواسه لما يدور حوله من منبهات سمعية وبصرية ولمسية ، والمستوى الثقافي للأسر ، والطريقة التي يعامل بها الطفل (٢٨) •

كما أرجعوا تطور لغة الطفل من التعبير عن الاحساس والرغبة والوجدان والنزوع الى نضج قوى الطفل العقلية وازدياد قدرته على الاتصال بالمجتمع (٢٩) •

كما أرجعوا تأخر الكلام الى عدة أسباب ، منها ما يتصل بنقص في القدرة العقلية لعوامل وراثية تتصل بالنساجية التكوينية المؤثرة في تكوين الخلايا أو عوامل بيئية تؤثر في الجنين بعد تكوينه ، سواء كان ذلك في أثناء الحمل أو الوضع أو بعده •

كما أرجعوا فقد القدرة على التعبير بالكتابة الى وجود عطب في مركز اليمين في الفص الأمامي (الجبهي) ، كما أرجعوا بعض اضطرابات الكتابة الى اضطرابات الفص الخلفي (الجداري) (٣٠) •

(٢٧) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣ / ٤٠٧ ، ٤١٨ ، ٤٢٦

وانظر أيضا : الرسالة الجامعة ج ١ / ٧٠٩ •

(٢٨) انظر د. مصطفى فهمي : أمراض الكلام ٤٤ - ٤٧ •

(٢٩) انظر : لويس : اللغة في المجتمع ٤١ •

(٣٠) انظر : د. مصطفى فهمي : أمراض الكلام ٦٨ ، ٩٣ - ٩٥ •

اكتساب اللغة من خصائص البشر :

لقد فضل الانسان على ما سواه بقدرته على اكتساب اللغة • وقد أشار الاخوان الى تلك الأفضلية فيها نقلناه عنهم آنفا ، وأيضا في مواضع متفرقة من رسائلهم • فقد حبا الله الانسان بحواس يستطيع بواسطتها أن يدرك أموره وأمور غيره الماضية والحاضرة والمستقبلية ، ويعبر عنها نطقا وكتابة ، « فالإنسان اذا سمع صوت الخشب والحديد والماء والريح أمكنه أن يخبر عن صوت كل واحد منها وينسبه الى ما حدث عنه وخرج منه ، والحيوان لا يعرف ذلك ، ولا يمكنه أن يعبر عنه ويفصل ، كما عبر الانسان بقوة النطق والبيان عما سمع ، وبهذا فضل الله الانسان على غيره من الحيوان » (٣١) •

وقد رد الاخوان على من يزعم أن بعض الحيوانات تدرك معانى الكلام ، ولكنها لا تقدر على التعبير ، مؤكدين أفضلية الانسان على غيره حين قالوا :

« اعلم أن الله تعالى خلق في حواس الانسان زيادة قوة وجودة تمييز ما لم يجعل في حواس سائر الحيوانات ، وبخاصة في القوة اللامسة فضله عليها وكرمه بها ، كما جعل في قوة يديه من الصنائع العجيبة ، وفي قوة لسانه من اللغات المختلفة ما لم يجعل في أيديها ولا في ألسنتها ، كما هو بين ظاهر جلى لا يخفى على أحد من العقلاء ، وقد يظن كثير من الناس العقلاء أن بعض الحيوانات يفهم معانى الكلام ويمثل الأمر والنهى ولكن لا يقدر على الكلام كمثل الفيل والفرس والجراد ، والجمال ، والنعيم ، والبقر ، والكلب ، والسنور والقردة البيغاء ، وأمثالها من الحيوانات المسخرة للانسان المستأنسة

به ، المنتقاة لخدمته ، ولعمري انها تفهم معنى بعض الكلام كالزجر .
والأمر والنداء وما شاكلها التى هى بعض أقسام الكلام ، فاما أن تفهم ،
معانى الخبر والسؤال والجواب والاستفهام فلا « (٣٢) » .

وقد ذكر الاخوان بعض الخصائص التى تميز لغة الانسان عن .
الحيوان ، منا :

١ - الإصوات التى يصدرها الانسان أصوات منطقية يمكن تقطيعها .
بالحرف بخلاف غيره . . . يقول الاخوان : وأصوات الحيوانات على .
ضاربين منطقية وغير منطقية ، فغير المنطقية هى أصوات الحيوانات غير
الناطقة ، وهى نغمات تسمى أصواتا ولا تسمى منطقا ، لأن النطق لا يكون
الا فيصوت يخرج من مخرج يمكن تقطيعه بالحروف التى اذا خرجت عن .
صفة الحروف أمكن اللسان الصحيح نظمها وترتيبها ووزنها ، فتخرج
مفهومة باللمعة المتعارفة بين أهلها ، فيكون بذلك النطق الأمر والنهي
والأخذ والاعطاء والبيع والشراء والتوكيل وما شاكل ذلك من الأمور
المخصوصة بالانسان دون الحيوان ، فهذا فرق ما بين الصوت .
والنطق « (٣٣) » .

وعلى الرغم من أن معظم الحيوانات تمتلك جهازا نطقيا يقترب .
من جهاز نطق الانسان الا أنها لا تستطيع تقطيع أصواتها ليصير
كلاما ونطقا ، وعن ذلك الجهاز النطقى يقول الاخوان :

« فأما مخارج الأصوات من سائر الحيوانات فاما من الرئمة الى
المصدر ثم الى الحلق ، ثم الى الفم ، ثم يخرج من الفم شكلا على .
مقدار عظم الحيوان وقوة رئته وسعة شحقيه ، وكلما اتسع الحلقوم .

(٣٢) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣ / ٤١٢ .

(٣٣) انظر : المرجع السابق ج ٣ / ١٠١ .

وأنفجر الفكان وعظمت الرئة زاد صوت ذلك الحيوان على قدر قوته
وضعفه « (٣٤) » .

٢ - صوت الانسان يسمى كلاما ولفظا متكما ، ومنطقا . أما
صوت الحيوان فإنه يسمى بأسماء مختلفة حسب نوع مصدره ، يقول
الاخوان :

« فالصوت في الحيوان يسمى بأسماء مختلفة مثل قول القائل
صهيل الفرس ، ونهيق الحمار ، ونباح الكلب ، وخوار الثور ، وزئير
الأسد ، ونعيب الغراب ، وغير ذلك ، وأما الصوت المخصوص به
الانسان فإنه يقال له كلام ولفظ متكلم ، كقول القائل : فلان يتكلم
بالعربية والفارسية والرومية وغير ذلك » (٣٥) .

وإذا كان صوت الانسان يقال له كلام ولفظ ومنطق فإن هذا
على سبيل الاجمال ، أما عند التفصيل فإنما يقال « كلام الخطيب ،
وانشاد الشعر ، وقراءة القرآن ، وما شاكل ذلك ، وينسب ذلك
الكلام الى المعنى المقصود اليه به » (٣٦) .

٣ - أصوات الانسان لها معان عامة ، وأما أصوات الحيوان
فإنها ارادات طبيعية ، يوضح الاخوان هذا بقولهم :

« اعلم أن الكلام الدال على المعانى مخصوص به عالم الانسان ،
وهو النطق المتام بأى حروف كتب . والحيوان لا يشرك الانسان فيه
من الجهات المنطقية والعبارة اللفظية ، لكن من جهة الحركة الحيوانية

(٣٤) انظر : المرجع السابق ج ١٠١/٣ - ١٠٢ .

(٣٥) انظر : المرجع السابق ج ١١٤/٣ .

(٣٦) انظر : المرجع السابق ج ١١٦/٣ - ١١٧ .

والآلة الجسمانية ، والحاجة فيها الى ذلك ، لانتك تجد كثيرا من الحيوانات تريد بأصواتها دفع المضار وجذب المنافع ، تارة لأنفسها وتارة لأولادها مثل صياح البهائم اذا احتجت الى الأكل ومنعت منه ، والى شرب الماء وزيدت عنه ، ومثل استدعاء أولادها وما غاب عنها ، وما نسأل ذلك من الطيور التي تحاكي الانسان ، ومحاكاة القرد للانسان في جميع أفعاله وأكثر أعماله . فهذه الأشياء لما يريد الحيوان التطريب والتصويت والصياح لها ومن أجلها فانه لا يقال لها معان علمية وانما يقال لها ارادات طبيعية ، فأجساد الحيوانات مجبولة عليها ، وانما استدعاؤها اياها بالتصويت في بعض الأوقات اذا عدمتها وحيل بينها وبين ما تريد ، وقل ما يكون دالا بأصواتها على الأمر الإجم ، ولا معنى لها ، ولا يعرف المراد منها ولا القصد بكصياح الطيور في أكثر أوقاتها ، منها ما يصوت بالليل ومنها ما يصوت بالنهار ، وكذلك الحيوانات أكثرها ، ولكن المراد منها كلها اجتماع الجنس وقيام الشكل الى الشكل ، وبحسب ما في كل شخص من أشخاص من قوة الحرارة الغريزية وحركة الأنفس الحيوانية ، فان كل شخص أكثر حرارة وأقوى حركة وأحيا نفسا كان أكثر صوتا وأدوم كلاما في عموم الأوقات ، وما كان دون ذلك كان بحسب ما فيه وما هو مجبول عليه» (٣٧) .

وعقل الانسان بطبيعة الحال هو الذى يحكم ويميز بين المعانى العملية التى يحملها صوت الانسان ، والارادة الطبيعية التى يحملها صوت الحيوان :

« لهماية صوت الانسان أنه غرض مفهوم دال على معنى ، فاحتاج القوة المفكرة الى أن تفكر فيه وتفتش عن معناه ، وأصوات

الحيوانات غير مفهومة ، لكن القوة المفكرة تنقضى عليها أنها ما صوتته
الاحتاجة ، وما أرادت به إلا سبب أكل وشرب ونكاح » (٣٨) •

٤ - لغة الانسان مكتسبة ، أى يتعلمها الأبناء من الآباء ،
ولابد للانسان - لكن يكون ناطقاً - أن يعيش في مجتمع ، فإذا لم
يتوفر له ذلك يسيظل محروماً من اللغة ، ويرجع الاكتساب كما عرفنا
الى حواس الانسان وقواه الدراكة التى خلق الله فيها زيادة قوة
وجودة تمييز ، كما نقلنا عن الاخوان أنفسا • أما لغة الحيوان فهى
سلوك غريزي يتوارثه أفراد النوع الواحد كما يتوارثون أنواع السلوك
الأخرى كالطعام والحركة وغير ذلك •

أما في الحديث فقد عكف العلماء المتخصصون في علم النفس
اللغوي والعصبي ، وعلم اللغة العصبي - منذ ما يزيد على نصف
قرن - على دراسة لغة الحيوان وسلوكه ، ومقارنته ما ينتهون اليه
بلغه الانسان وسلوكه • وتشير نتائج الدراسات على تعددها الى
أفضلية الانسان على غيره بقدرته على اكتساب اللغة ، وأنه هو
الحيوان الوحيد الذى يستخدم تلك الظاهرة الانسانية (٣٩) •

فمن المتفق عليه أن لغة الانسان تعد من الخصائص التى اختصه

(٣٨) انظر : المرجع السابق ج ٣ / ١٣٠ •

(٣٩) انظر : ميسنت • سلسام : لغة الحيوان • ترجمة : د. كامل

منصور • دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، وتلخاوتوف : الاصوات

والاشارات ١٣ - ١٥ ، ٢٦ - ٢٩ ، ١٩٤ - ١٩٦ ، د. محمد حسن

عبد العزيز : مدخل الى اللغة ٩ ، ٣٧ ، د. موفى الحمدانى : اللغة وعلم

النفس ١٦ - ٢٥ ، د. جبهة سيد يوسف : سيكلوجية اللغة والمرض

العقل : ٩ - ١٣ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٢٢ •

١٥٩ - ١٦٤ •

الله بها بنى الانسان ، وينفرد بها عن سائر المخلوقات ، وأنه وحده هو القادر على استخدام اللغة منطوقة ومكتوبة لتحقيق التواصل والاتصال بأبناء جنسه على اختلاف بيئاتهم ، وأنه وحده هو القادر على أن يعبر عن أفكاره ومشاعره وتجاربه وخبراته ومعارفه وأموره الماضية والحاضرة والمستقبلية بألفاظ وعبارات مفهومة لدى أبناء مجتمعه وعشيرته .

وقد أرجعوا هذا التفرد الى ما يمتلكه الانسان حين يولد من قدرة فطرية من استخدام اللغة ، حيث يولد مزودا بأعضاء صوتية وجهاز عصبى يمكنه من النطق والادراك . وأكدوا أن ملامح جهازه العصبى فى المخ تجعل تواصله اللغوى ميزة ينفرد بهما ، حيث يتميز بمخ أكبر ، يتركز فيه عددا كبيرا من مناطق الاحساس والحركة ، التى تعمل فى توافق وترايط لا نظير له ، حيث تقوم بتحويل الاشارات البصرية والسمعية الى تكوينات لفظية .

واذا كانت معظم الحيوانات تمتلك وسائل للتواصل والتفاهم القدرة على اصدار الأصوات المقطعة تقطيعا كلاميا ، حيث يمتلك مجموعة متعددة من العضلات الوجهية التى تسمح بحركة كبيرة للشفيتين والوجنات والفكين ، كما يمتلك لسانا مرنا يتحرك فى كل الاتجاهات ، وأسنانا متراصة وبلعوم أطول من غيره من الحيوانات .

واذا كانت معظم الحيوانات تمتلك وسائل للتواصل والتفاهم فيما بينها ، وبخاصة الببغاوات والنمل والقردة والنحل ، التى تبهر الناس بما تحققة من اتصال ، فانها لا تمتلك المقدرة اللغوية التى حبا الله بها الانسان التى بواسطتها يكتسب لغته من مجتمعه ويعبر تعبيرا مقصودا عن المحسوسات والمعنويات والتجارب والخبرات وغير ذلك بنظام من رموز مكتوبة وكذا لغوية متنوعة بتنوع البيئات ، بلغة الدقة والتعقيد والتركيب على الرغم من قلتها .

فبعض الحيوانات — كالشمبانزى — يظهر أنماطا من السلوك تجعلها تحتل مرتبة أعلى من حيث الذكاء ، ولكنها تعاني من نقص القدرة على تحويل الاشارات الصوتية التي تصدرها الى رموز لغوية . فتمكثها من تأدية الوظائف اللغوية التي يقوم بها الانسان (٤٠) . وهذا يرجع الى فروق تشريحية في تركيب المخ بين الانسان والحيوان . وقد أثبتت الدراسات أن الطفل البشري في السنة الثانية من عمره يتفوق في قدراته الذهنية على أذكى الحيوانات وعلى رأسها قرودة الشمبانزى » .

وإذا كانت معظم الحيوانات على رأسها قرودة الشمبانزى — تمتلك جهازا صوتيا يقترب كثيرا من جهاز الانسان فإن تصويتها لا يعدو أن يكون فطريا غير مكتسب ولا يؤثر فيها التعلم الا في نطاق محدود ، ولا تعبر الا عما هو موجود في الوقت الحاضر ، ولا يظهر الا كاستجابة لموقف محدد .

وهكذا تؤكد نتائج الدراسات الحديثة تلك الفكرة التي طرحها اخوان الصفا منذ القدم وهي أفضلية الانسان على غيره بتحصيل اللغة واكتسابها .

(٤٠) استطاع بعض العلماء أن يعلموا القرودة في سن خمس سنوات اللغة عن طريق الاشارات اليدوية التي يستعملها الصمم والبكم . واستطاعت أن تكتسب — كما يزعمون — (٢٠٠) كلمة ، ولكن هذا لا يشكك في لغة حقيقية ، ان هي لا تستطيع ان تتركب الفاظا وجملًا ، أو ان تعبر بها عما يعبر عنه الانسان من مشاعر وأحاسيس ونقل تجارب ... الخ .

الفصل السابع

اللفظ والمعنى

لقد سبق أن تحدثنا في الفصل الأول عن تصور الاخوان للغة والفكر ، وصلة كل منهما بالآخر ، وآراء العلماء في تلك الصلة .
ونتحدث هنا عن تصورهم لمفهوم اللفظ ومعناه ، والعلاقة بينهما .

وموضوع هذا الفصل له ارتباط وثيق بموضوع الفصل الأول ، غير أنا أرجأناه الى هنا حتى يكون القارئ قد وقف على كيفية أدراك المخ البشرى الأصوات اللغوية واكتسابها ، وعلى تصور اخوان الصفا لهذه الكيفية .

والحقيقة أن مسائل اللفظ والمعنى متعددة ، وقد شغلت أذهان اللغويين والنقاد والأدباء والفلاسفة وغيرهم في القديم والحديث .

ولاخوان الصفا تمور لبعض تلك المسائل في اللغة بمعناها العام ، وفي اللغة العربية بشكل خاص . ولكننا سنرجئ المسائل المتعلقة بالعربية الى الفصل القادم تمثيلاً مع خطتنا .

ومن أهم المسائل المتعلقة باللفظ والمعنى في اللغة بمعناها العام ، ماهية وأهمية كل منهما .

١ - ماهية كل من اللفظ والمعنى :

يقول الاخوان : « الألفاظ تدل على المعاني ، والمعاني هي المسميات والألفاظ هي الأسماء ، وأعم الألفاظ والأسماء قولنا « الشيء » (١) » .

(١) انظر : رسائل اخوان الصفا ج١/٤٩ .

ويقولون — كما سبق في الفصل الأول — :

« الألفاظ هي سمات دلالات على المعاني التي في أفكار النفوس، وضعت بين ليعبر كل انسان عما في نفسه من المعاني ليعبره من الناس
تعد الخطاب والسؤال » (٢) •

ويرون أيضا أن المعاني هي صور ورسوم في أفكار النفوس
تناولتها بطريق الحواس (٣) •

وقد سبق في الفصل الأول أن النطق في تصورهم ينقسم الى
قسمين : لفظي وفكري ، وقد عرفوا النطق الفكري بأنه تصور النفس
معاني الأشياء في ذاتها ورؤيتها لرسوم المحسوسات في جواهرها ،
وتمييزها لها في فكرتها » •

أما معاني الأشياء التي تتصورها النفس فهي في نظر الاخوان
جواهر وأعراض ، وصور وأعيان (٤) ، أو محسوسات ومعقولات •
وليتوقف ادراك الأمور المعقولة على معرفة الأمور المحسوسة كما سبق
نقله عن الاخوان في أثناء الحديث عن ادراك الصوت اللغوي ، وكما
أكدوه في مواضع متفرقة من رسائلهم ، ومن ذلك قولهم :

« اءلم يا أخى أن الباري جل جلاله جعل الأمور الجسمانية
المحسوسة كلها مثالاً ودلالات على الروحانية العقلية ، وجعل طرق
الحواس درجا وبراقي يرتقى بها الى معرفة الأمور العقلية التي هي
الغرض الأسمى في بلوغ النفس اليها • فإذا أردت يا أخى أن تبلغ الى

(٢) انظر : المرجع السابق ج ١ / ٣٩٨ •

(٣) انظر : المرجع السابق ج ١ / ٣٩٢ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ •

(٤) انظر المرجع السابق ج ١ / ٤٠١ •

أفضل المطويات وأشرف العايات التى هى الأمور العقلية فاجتهد في معرفة الأمور المحسوسة فانك بذلك تتدل الأمور العقلية ، وقد بينا في رسائلنا الطبيعية طرفا من ذلك . ثم اعلم أن معرفة الأمور الجسمانية المحسوسة هى غنى النفس وشدة الحاجة ، ومعرفة الأمور المعقولة الروحانية هى غناها وتعليمها ، وذلك أن النفس فى معرفة الأمور الجسمانية محتاجة الى الجسد وحواسها وآلاتها لتدرك بتوسطها الأمور الجسمانية ، وأما ادراكها الأمور الروحانية فبكيها ذاتها وجوهرها بعدما تأخذها من الحواس بتوسط الجسد ، وإذا حصل لها ذلك فقد استغنت عن الجسد وعن التعليم بالجسد بعد ذلك « (٤) » .

ومعانى الأشياء التى تتصورها النفس قد أطلقوا عليها حروفا فكرية — كما سبق — حين جعلوا الحروف أنواعا ثلاثة : فكرية ولفظية وخطية ، وعرفوا الفكرية بأنها « صورة روحانية فى أفكار النفوس مصورة فى جواهرها قبل اخراجها معانيها بالالتقاط » ، وعرفوا الحروف اللفظية بأنها « أصوات محمولة فى الهواء ، مدركة بطريق الأذنين بالقوة السامعة » ، وعرفوا الحروف الخطية بأنها « نقوش ختت بالأقلام فى وجوه الألواح ويطون المطامير ، مدركة بالقوة الباصرة بطريق العينين » (٥) .

وقد عرفنا أيضا أن البحث فى الأفكار أو ما سموه بالمنطق الفكرى أو الحروف الفكرية مجاله — فى تصورهم — علم المنطق الفلسفى الذى يعنى بمعرفة كيفية ادراك النفس معانى الموجودات فى ذاتها بطريق الجواس ، وكيفية انقذاج المعانى فى فكرها من جهة العقل الذى يسمى الوحى والالهام ، وعبارتها عنها بالفاظ بأى لغة كانت .

(٤) انظر : المرجع السابق ج ٢٤٦/٣ - ٢٤٧

(٥) انظر : المرجع السابق ج ٣٩٣/١ .

أما البحث في الألفاظ والأسماء أو ما سموه بالمنطق اللفظي فمجاله علم المنطق اللغوي كما سبق •

وقد ذكروا أن الحكمة حصروا معاني الموجودات كلها في عشرة ألفاظ وهي : الجوهر ، والكم ، والكيف ، والمضاف ، والأمين ، ومثلي ، والنسبة « الوضع » ، والمالكة ، ويفعل ، وينفعل •

وكل لفظة من هذه الألفاظ اسم الجنس من الأشياء الموجودة ، وكل جنس ينقسم الى عدة أنواع ، وكل نوع الى أنواع أخر ، وهكذا دائما الى أن تنتهي القسمة الى الأشخاص (٦) •

وربما اجتمعت هذه المعاني في شخص واحد ، والمثال على ذلك — كما يقولون — زيد ، فانه جوهر ، وفيه كمية ، لأنه طويل ، وفيه كيفية ، لونه أسود ، وفيه مضاف ، لأنه ابن ، وأمين ، لأنه في مكان ، ومثلي ، لأنه في زمان ، ونسبة ، لأنه قائم أو قاعد ، ومالكة ، لأنه ذو مال ، ويفعل اذا ضرب ، وينفعل اذا ضرب « بضم الصاد » (٧) •

وذكروا أن كلا من الجوهر والكيف قد يكون جسمانيا يدرك بالحواس ، وقد يكون روحانيا يدرك بالعقول كالعام والقدرة والشجاعة والأخلاق بعامة ، والعلوم ، والاعتقادات والآراء والأعمال (٨) •

وقد شبروا هذه الألفاظ العشرة وما تدخل من معاني ببستان . اذ يقولون : « اعلم يا أخى بأن مثل هذه العشرة الألفاظ وما يتضمنها من المعاني التي هي عشرة أجناس ، المحتوية على جميع معاني الأشياء وما تحت كل واحد من الأنواع ، وما تحت تلك

(٦) النظر : المرجع السابق ج ١ / ٤٠٥ •

(٧) النظر : المرجع السابق ج ١ / ٤٠٨ •

(٨) النظر : المرجع السابق ج ١ / ٤٠٩ •

الأنواع من الاتسخاص ذمئل بستان نمة عشر أئجار ، على كل شجرة عدة فروع وأغصان ، وعلى كل غصن عدة قضبان ، وعلى كل قضيب عدة أوراق ، وتحت كل ورقة عدة أنوار (أزهار) وثمار ، وكل ثمرة لها طعم ولون ورائحة لا تشبه الأخرى ، وأن مثل النفس اذا هى عرفت معانى هذه العشرة الأجناس وتصورتها فى ذاتها ، وتأملت فنون تصاريفها وما تحتوى عليه من المعلومات المختلفة الصور المنة الهيئات المثلونة الأصباغ ، كمثل صاحب ذلك البستان اذا فتح بابه ونظر الى ما فيه من الألوان والأزهار ، واستم من روائح تلك الأنوار وتذول من تلك الثمار ، وتطعم من تلك الطعوم وتمتع بنتائج ذلك البستان ، فاجتهد يا أذى فى طلب العلوم وفنون الآداب ، فان العلوم بسائين النفوس ، وفنون معانيها وفوائدها ألوان الثمار» (٩) •

والمعنى سببها اللفظ ، والفكرة حين يعبر عنها باللفظ فانها تسمى فى هذه الحالة معنى •

وحين يقتزن اللفظ بالمعنى فأنه يأخذ مصطلحات عديدة ، تلمح بعضها فى قول الأخوان ، فى فصل عقوده للالفاظ الدالة على المعانى :

« أولا : ما الاسم ، وما المسمى (بكسر الميم) ، وما التسمية . وما المسمى (بفتح الميم) ؟ ونقول ، أيضا : من الواصف ، وما الوصف ، وما الموصوف ، وما الصفة ؟ وأيضا : من الناعت ، وما المنعوت ، وما النعت ؟

تفسيرها : الاسم : كل لفظة دالة على معنى من المعانى يلزمها ، والمسمى (بكسر الميم) هو القائل ، والتسمية هى قول القائل ، والمسمى (بفتح الميم) هو المعنى المثار اليه ، والواصف هو القائل ، والوصف

هو قول القائل ، والموصوف هو الذات المشار اليه ، والصفة هي معنى متعلق بالموصوف ، والناعت هو القائل ، والنعت هو قول القائل ، والمنعوت هو الذات المشار اليه ، وليس له لفظة رابعة ، تدل على معنى متعلق بالمندرجات كما كانت الصفة متعلقة بالموصوف « (١٠) » .

وللنحويين والمناطق مصطلحات تدل على المعاني ، ذكرها الاخوان في قولهم :

« ان السلام ثلثة دلالة أنواع : فمنها ما هي سمات دلالات علي الأعيان ، يسميها المنطقيون والنحويون الأسماء ، ومنها ما هي سمات دلالات على تأثير الأعيان بعضها في بعض ويسميها المنطقيون الكلمات ، ومنها ما هي سمات دلالات على معان ثنائها أدوات للمتكلمين تربط بعضها ببعض ، كالأسماء بالأمعال والافعال بالأسماء ، ويسميها النحويون الحروف ، ويسميها المنطقيون الربادات . فالأسماء كل لفظة دالة على معنى يلازم لكقولك : زيد وعمرو وحجر وخشب وما شاكلها من الألفاظ ، والفعل مثل ضرب بضرب ، وعمل بعمل ، وهو كل لفظة دالة على معنى في زمان ، والحروف مثل هذه من وقى على وما شاكلها من الألفاظ مذکور شرحها في كتب النحو ، وبالجملة ينبغي لمن يريد أن ينظر في المنطق الفلسفي ، أن يكون قد افاض أولاً في علم النحو قبل ذلك واعلم يا أخى أن الكلمات والأسماء اذا اتسعت صارت أقاويل ... » (١١) .

ثم نراهم يذكرون المصطلحات التي أوردها المناطقة مثل الإيجاب والسلب والصدق والكذب والحكم والشرط والصور الكلي والصور الجزئي ، والمجهول والمخصوص ... الخ (١٢) .

(١٠) انظر : المرجع السابق ج ١/٣٩٤ - ٣٩٥ .

(١١) انظر : المرجع السابق ج ١/٤١٤ - ٤١٥ .

(١٢) انظر : المرجع السابق ج ١/٤١٥ - ٤١٦ .

وهكذا نخلص مما تقدم الى أن الأفكار — في نظر الاخوان — هي صور مختزنة في الذاكرة ، مكتسبة بطريق الحواس ، وتلك الأفكار تسمى معان حين يمبر عنها بالألفاظ ، والأقوال .

وقد أطلقوا على الأفكار نطقاً فكرياً ، وحروفاً فكرية ، ومجال بحثها علم المنطق الفلسفي . بينما أطلقوا على الألفاظ أو الكلام (سواء كان اسماً أو فعلاً أو حرفاً) نطقاً لفظياً ، وحروفاً لفظية ، ومجال بحثها علم المنطق اللغوي .

وكثير من الفلاسفة قد نظر نفس نظرية اخوان الصفا للمعنى (١٣) .

هذا ويمكن أن نطلق على الألفاظ « الدال » ، وعلى الأفكار (أو المعانى) « المدلول » ، وعن العلاقة القائمة بين الألفاظ والمعانى « النسبة » (١٤) ، أو « الدلالة » (١٥) .

وإطلاق القول على اتساق الكلمات والألفاظ لا يعد خلطاً : كما يقال ، « لا عيب أن نلتقى معانى الألفاظ الثلاثة لاستتمال الأصوات عليها ، فكل لفظ يمكن أن يطلق عليه قول ، لأن القول هو كل ما يتلفظ به ،

-
- (١٣) النظر : الجرجاني : التعريفات ١٩٦ ط الحلبي ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م ، د : محمد حسن جيل : المعنى اللغوي ٤٦ دراسة نظرية وتطبيقية . الطبعة الاولى ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- (١٤) النظر : د . عبد الغفار هلال : علم اللغة بين القديم والحديث ٢٠٣ الطبعة الاولى ١٩٧٩ م .
- (١٥) النظر : الجرجاني : التعريفات ٩٣ . وقد عرف الدلالة بأنها « كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر ، والشيء الاول هو الدال ، والثاني هو المدلول » .

وكل لفظ بهذا المعنى قول ، والكلمة ليست إلا لفظا ، فلا مانع من إطلاق اسم القول عليها ، وهذا لا يعد خلطا » (١٦) •

ونرى أحد الباحثين المحدثين يفرق بين اللفظ والكلمة ، ويرى أن « اللفظ يشير بوجه خاص الى الناحية الصوتية من الخدمة ، وأن الكلمة تشير اليها والى المفهوم المعنوي للفظ معا ، وقد لاحظنا هذا المعنى نحائنا انقدماء حين عرفوا الكلمة بأنها لفظ مفيد لمعنى ، على أن العرف جرى على استعمالهما في معنى واحد واعتبارهما مترادفين ، والاغضاء عما بينهما في الأصل من فرق دقيق » (١٧) •

كما يرى أن اللفظ « يؤثر في ذهن السامع صورة الشيء الذهنية ومفهومه لا الشيء نفسه ، ويكون الانتقال الى الأشياء الحسية عن طريق هذه الصور الذهنية أو المفاهيم أو المعاني القائمة في أذهان الناس والمتكونة فيها بنتيجة تجاربهم » (١٨) •

كما يرى أن الدلالة (وهي اثار اللفظ للمعنى الذهني ، أو لمدلوله ، ليست مرادفة للمعنى ، فهي الاتصال اللغوي رمز دال هو اللفظ ، ومدلول هو المعنى ، ودلالة هي الارتباط بينهما •

ويرى أن العالم الباحث في صلات الألفاظ بعضها ببعض هو النحو ، والعالم الباحث في ما بين المعاني من صلات هو الفلسفة ، والعالم الباحث في ما بين الألفاظ والمعاني من صلات هو مبحث الدلالة من علم اللغة •

وبعد أن عرفنا تصور الاخوان المفهوم اللفظ والمعنى ، نتساءل :

(١٦) انظر : د. عبد الغفار هلال : علم اللغة بين القديم والحديث .

٢٠٤ - ٢٠٥ •

(١٧، ١٨) انظر : محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ١٦٧ .

الطبعة الثالثة ١٩٦٨ بيروت •

هل الألفاظ موضوعة بازاء المعانى التى هى الأفكار والصور الذهنية ، كما هو المستخلص من نظرية الاخوان ؟ أم هى موضوعة للأشياء الخارجية ؟

لقد ناقش العلماء هذه الفكرة فى القديم والحديث :

فقد خصص السيوطى فى النوع الأول من مزمرة مسألة لهذه الفكرة ونقل عن أقولا عديدة لتوضيحها (١٩) ، فهمن ذهبوا الى أن الألفاظ موضوعة بازاء الصور الذهنية الامام فخر الدين الرازى (ت ٦٠٦ هـ) وأتباعه واستدلوا عليه بأن اللفظ يتغير بحسب تغير الصورة فى الذهن ، فان من رأى سبحا من بعيد وظنه حجرا أطلق عليه لفظ الحجر ، فاذا دنا منه وظنه شجرا أطلق عليه لفظ الشجر ، فاذا دنا وظنه فرسا أطلق عليه اسم الفرس ، فاذا تحقق أنه انسان أطلق عليه لفظ الانسان ، فبان بذلك أن اطلاق اللفظ دائر مع المعانى الذهنية دون الخارجية ، فدل على أن الوضع للمعنى الذهنى لا الخارجى .

وممن ذهبوا الى أن الألفاظ موضوعة بازاء الماهيات الخارجية أبو اسحاق الشيرازى ، وذكر السيوطى أنه هو المختار ، وأجيب عن الدليل الذى ساقه الرازى وأتباعه بأنه « انما دار مع المعانى الذهنية لا اعتقاد أنها فى الخارج كذلك ، لا لمجرد اختلافها فى الذهن » .

وينقل السيوطى عن الأسنوى فى شرح مناهج الامام البيضاوى ، أيا ثالثا وهو أن اللفظ موضوع بازاء المعنى من حيث هو مع قطع النظر عن كونه ذهنيا أو خارجيا ، فان حصول المعنى فى الخارج والذهن من الأوصاف الزائدة على المعنى ، واللفظ انما وضع للمعنى من غير تقييده .

بوصف زائد ، ثم ان الموضوع له قد لا يوجد الا في الذهن فقط كالعلم
وتحسوه » •

ويفصل الزركشى في البحر المحيط بين وضع المفردات والتراكيب
— على ما ذكره السيوطي ، فيرى أن المفردات عقلية ، بلا خلاف ، أما
المركبات نحو « قام زيد » ، « وعمر ومنطلق » ففيل عقلية ، وهو ظاهر
كلام ابن مالك ، وقيل غير عقلية ، وهو ظاهر كلام ابن الحاجب ، وقيل
هو رأى الجمهور •

هذا ويعاد ابن سينا من المتقدمين الذين يرون ما رآه اخوان الصفا
أن اللفظ وضع للصورة الذهنية • ويعاد الامام سعد الدين التفتازاني
(ت ٧٩٣ هـ) الذى رآوا نفس الرؤية (٢٠) •

ونرى الجدل نفسه في الحديث ، فنرى بعض النظريات تؤمن بأن
الكلمة تعبر عن الشيء الخارجى مباشرة (٢١) • ونرى من نظريات أخرى
بأن الكلمة تعبر عن المدلول أو الفكرة (الصورة الذهنية) ، ومن ثم فإن
الكلمات ترتبط بالأشياء الخارجية بوساطة تلك الصور • وهذه النظرية
الحديثة هي نفس النظرية التى استخلصناها من نظرة اخوان الصفا •

وأشهر من عنى بها في العصر عالم النفس «أوجدن، ريتشاردز» (٢٢)
وقد أوضحا العلاقة بين اللفظ والمدلول في شكل مئاث على النحو الآتى :

(٢٠) انظر : د • محمد حسن جبل : المعنى اللغوى : دراسة
نظرية وتطبيقية ٦٢ •

(٢١) انظر : د • محمد حسن عبد العزيز : مدخل الى اللغة
١٤٠ — ١٤٢ •

(٢٢) انظر : شيفن أولمان : دور الكلمة فى اللغة ٦١ — ٦٥
ترجمة : د • كمال محمد بشر ط القاهرة ١٩٧٥ •

(الفكرة ، المدلول ، الصورة الذهنية للشيء)



(الواقع ، الشيء الخارجى) (اللفظ ، المنطوق ، الرمز)

فالعلاقة بين الشيء والفكرة علاقة مباشرة ، وكذلك بين اللفظ والفكرة فكلاهما يستدعى الآخر •

وقد اعترف « ستيفن أولمان » بأن هذه الصورة كانت معروفة بالفعل لدى فلاسفة العصور الوسطى « (٢٣) » •

ويهتم عالم النفس والفيلسوف بالعلاقة بين الشيء وصورته الذهنية ، بينما اللغوى يركز اهتمامه على العلاقة بين الصورة الذهنية للشيء واللفظ •

وقد اعترض بعض اللغويين المحدثين على هذه النظرية لعدة أسباب منها (٢٤) :

١ — أن مصطلحات الفكرة ، والصورة الذهنية والربط الذهني الخ هي مصطلحات أولى بعلم النفس منها بعلم اللغة ، وإستعمالها في مجال الدراسات اللغوية يؤدي الى الخلط في مراحل البحث اللغوى وفى نتائجه •

(٢٣) انظر : المرجع السابق ٦٣ •

(٢٤) انظر ما قاله الدكتور "كمال بشر" فى التعليقة رقم (٣٥)

فى ص ٦٥ من المرجع السابق •

٢ - أنه ليس لدى اللغويين المقدرة على معرفة ما يجرى في الذهن
ومحتوياته .

وقد وجدت نظرية ثالثة تنسب الى العالم الأمريكى « بلومفيلد » ،
تفسر المعنى اللغوى على أساس النظرية السلوكية التى تعتمد فى بحوثها
على تصرفات الانسان وسلوكه فى المواقف المختلفة مع الاهتمام بعنصرى
الاثارة ورد الفعل أو الاستجابة .

وبناء على هذا يعرف المعنى بأنه عبارة عن الموقف الذى ينطق فيه
الحدث اللغوى المعين ، والاستجابة أو رد الفعل الذى يستدعيه الحدث
فى نفس السامع ، وبعبارة أخرى نقول ان المعنى هو الحوادث السابقة
للكلام (أى المثيرات والدوافع التى تدفع المتكلم الى أن يتكلم) ،
والحوادث التالية (أى الاستجابة التى يبديها السامع) .

وقد حكم على هذه النظرية بأنها تفسر المعنى تفسيرا آليا
(ميكانيكيا) وفقا لعلم النفس على الرغم من محاولة تلك النظرية
التخلص من آراء العقليين الذين يهتمون فى دراستهم على الفكر أو
الصورة الذهنية للأشياء .

وقد أخذ على تلك النظريّة إهمال العوامل الانسانية كالدوافع
والرغبات التى ينبى عنها المعنى (٢٥) .

وقد وجدت نظرية رابعة تنسب الى العالم الانجليزى « فيرث »
لا تهمل تلك العوامل الانسانية فى دراسة المعنى وتعالجها بطريقة لغوية
ودون افتراض أو تخمين لما يجرى فى ذهن المتكلم كما يفعل علماء

(٢٥) انظر التعليقة السابقة فى نفس المرجع السابق ٦٥ - ٦٦ ،
د . كمال بشر : علم اللغة : الاصوات ١٠ - ١٦ .

٢٠٧

النفوس • وبناء على هذا لا يتأتى المعنى اللغوى العام للكلمة ما الا بدراستها صوتيا وحرفيا ونحويا ومعجميا واجتماعيا (٢٦) •

(ب) أهمية اللفظ والمعنى :

لقد تحدث الاخوان عن أهمية اللفظ للمعنى ، والمعنى لللفظ ، وأثرهما في النفوس أما عن أهمية كل منهما للآخر وللإنسان فنراها في قولهم :

« والغرض من الكلام تأدية المعنى ، وكل كلام لا معنى له فلا شائدة للسامع منه ، والمتكلم به • وكل معنى لا يمكن أن يعبر عنه بلفظ ما في لغة ما فلا سبيل الى معرفته ، وكل حيوان ناطق لا يحسن أن يعبر عما في نفسه فهو كالعدم الزائل والجماد الصامت » (٢٧) •

والمعنى روح واللفظ جسده ، اذ يقولون :

« الحروف التى هى أصوات مفردة اذا ألقت صارت ألفاظا ، وأن الألفاظ اذا ضمنت المعانى صارت أسماء ، وأن الأسماء اذا ترادفت صارت كلاما ، وأن الكلام اذا ألصق صار أقاويل ، واعلم أن المعانى هى الأرواح ، والألفاظ كالأجساد لها ، وذلك أن كل لفظة لا معنى لها فهى بمنزلة جسد لا روح فيه ، وكل معنى في فكر النفس لا لفظ له فهو بمنزلة روح لا جسد له » (٢٨) •

ويوضح الاخوان حاجة المعنى الى اللفظ في فصل عنوانه « حاجة الانسان الى المنطق » نقلنا منه جزءا في الفصل الأول ، ومنه قولهم •

(٢٦) انظر المرجعين السابقين •

(٢٧) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣ / ٢٠٨ - ١٠٩ •

(٢٨) انظر : المرجع السابق ج ١ / ٤٠٠ ، وراجع ج ٣ / ١٠٩ •

« اعلم أيها الأخ أنه لو أمكن الناس أن يفهم بعضهم من بعض المعاني التي في أفكار نفوسهم من غير عبارة اللسان لما احتاجوا إلى الألفاويل التي هي أصوات مسموعة ، لأن في استماعها واستفهامها كلفة على النفوس من تعليم اللغات ، وتقويم اللسان ، والافصحاح والبيان ٠٠٠ الخ » (٢٩) .

وأما عن تأثير الكلام وما يحمل من معنى في نفوس البشر فيوضحه الاخوان في قولهم :

« فإما النطق فإن الموضوع فيه جواهر النفس الجزئية الحية ، وتأثيراته فيها روحانية ، مثل الوعد والوعيد والترغيب والترهيب والمدح والهجاء ، والدليل على ذلك ما يتبين لنا من تأثيرات الكلام في النفوس ، مثل ما يرى من تأثيرات الأجسام بعضها في بعض ، وذلك أن تأثيرات الأجسام بعضها في بعض نوعان : مفسد ومصلح ، فالمصلح مثل الطعام والشراب المصلحين لأجساد الحيوانات ، ومثل العقاقير والأودية المصلحة لأجساد المرضى ، والمفسد مثل النار المهلكة لأجساد الحيوانات وأجساد النبات ، ومثل الضرب بالسيف والسكين وما شاكله من الأجساد المفسدة المهلكة لأجساد الحيوانات ، فكذا حكم الكلام والألفاويل في النفوس نوعان : مصلح ومفسد ، فالمصلح كالمدح والثناء الجميل الباعثين للنفوس على مكارم الأخلاق ، ومثل المواعظ والمواعيد الزاجرين للنفوس عن الأفعال القبيحة وعن مساوئ الأخلاق ، والمفسد من الكلام للنفوس كالشتيمة والتهديد والقبيح من الألفاويل الجالية إلى النفوس العداوة والبغضاء ، كما يقال : رب كلمة جلبت فتنة وحروبا ، كما قيل في المثل : أن سبب العداوة بين الغربان والبوم كلمة تكلم بها الغراب يوم اجتماع الطير على تهليك البوم ، ورب كلمة أطفأت نيران الحروب ، كما قيل في قصيدة :

٣٠٩

لفظ يثبت في النفوس مهابة يكفى كناية قائد القواد
لا تبلغ الأسيايف باستهلاكها ما تبلغ الأتلام بالإيعاد

ومن فضيلة النطق أيضا أنه كاد أن يكون مطابقا للموجودات كلها
كمطابقة العدد للمعدودات ، والدليل على ذلك كثرة اللغات ، واختلافه
الأقنابل ، وفنون تصارييف الكلام مما لا يبلغ أحد كنه معرفتها الا الله
عز وجل « (٣٠) »

ونظرتهم الى كون النطق مطابقا للموجودات كلها نابعة من نظرتهم
الى الكواكب والايمان بتأثيرها في الكائنات التي دون فلك القمر ، وهى
نظرة مرادودة وباطلة كما سبق في فصل التطوير اللغوى .

الباب الثاني

اللغة العربية

وقفلنا فيما سبق على تصور اخوان الصفا للغة والفكر وعلاقة كل منهما بالآخر ، ونسأة اللغة بشقيها المنطوق والمكتوب ، وتطورت اللغة وأسبابه واتجاهاته ، والصوت العام وأنواعه ومراحل تكوينه ، والصوت اللغوي ومستويات أدائه والمراحل التي يمر بها في أثناء عملية التواصل، والاكتساب اللغوي وطرقه وعوامله ثم مفهوم اللفظ اللغوي ومعناه ، وعلاقة كل منهما للآخر ، وأهمية كل منهما •

وقد تعرض الاخوان — في أثناء تصور ما سبق وفي غيره — للغة العربية • وقد أثرت أن أجمع ما يتعلق بها وحدها وأناقشها من خلال فصل مستقل •

ومن خلال النصوص التي جمعت شتاتها رأيت أنهم يتحدثون عن عدد من المسائل اللغوية العربية ، يمكن ادراجها — تيسيرا لمناقشتها — في خمس قضايا رئيسية : (أفضلية اللغة العربية ، أصلها وتطورها ، أصواتها ، خطها ، عدد من مسائلها الراجعة الى اللفظ والمعنى) :

الفصل الأول

أفضلية العربية

بين اخوان الصفا أن العربية أتم اللغات الانسانية ، وعلّة هذه الأفضلية ، وما يتميز به القرآن الكريم من اختصار وإيجاز يجعل الأمم عاجزة على نقله الى لغاتها القاصرة •

أما أن لغة العرب أتم اللغات ، فيقولون في هذا الصدد :

« اللغة التامة لغة العرب ، والكلام الفصيح كلام العرب ، وما سوى ذلك ناقص • فاللغة العربية في اللغات مثل صورة الانسان في الحيوان ، ولما كان خروج صورة الانسان آخر صور الحيوانية كذلك كانت اللغة العربية تمام اللغة الانسانية وختام صناعة الكتابة ، ولم يحدث بعدها شيء ينسخها ولا يغيرها ولا يزيد عليها ولا ينقصها » (١) •

أما العلة في أن العربية أفضل اللغات ، والاسلام أفضل الأديان فانها ترجع الى تشریف الله العربية حين أنزل بها القرآن الكريم الذي هو ، أشرف كتاب أحكمه الله ، وعجز الأمم عن ترجمته الى لغاتها على ما هو به من الاختصار والإيجاز • يقول الاخوان :

« واطهار دين النبي على جميع الأديان ، ولغته على سائر اللغات من أجل أن القرآن أكرم قرآن أنزله الله تعالى ، وأشرف كتاب أحكمه ، وأنه لا يقدر أحد من الأمم على اختلافهم في لغاتهم أن يحيله عما هو به من اللغة العربية الى لغة غيرها ، لأنه لا يمكن أن ينقل البتة الى لغة على ما هو من الاختصار والإيجاز ، وهذا لا يخفاء به » (٢) •

(١) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣ / ١٤٤

(٢) انظر : المرجع السابق ج ٣ / ١٦٤ - ١٦٥

ولا يرضى الاخوان أن يكون أبناء هذا الدين وتلك اللغة مختلفين،
فإن اتحدوا ظهر دينهم على جميع الأديان ، ولغتهم على جميع اللغات .
اذ يقولون :

« وأما الاختلاف المذموم فهو ما كان منه في المذاهب والآراء ، فإذا
زال الخلاف ظهر دين الاسلام على جميع الأديان ، واللغة العربية على
جميع اللغات ، ويكون الدين واحداً ، كما قال الله تعالى : « هو الذى
أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره
المشركون » (٣) »

أن مسألة كمال العربية وتفخيلها على غيرها من اللغات التى عرفها
البشر قول يكاد ينال اجماع الباحثين من علماء العربية :

لقد قال به الامام الشافعى (ت ٢٠٤ هـ) وهو من اكبر اللغويين
والفقهاء ، وأكد أن لسان العرب واسع سعة بيئة قد تكون خاصة له دون
غنية (٤) .

وقال به الجاحظ ، بل ذهب الى أن التسعر والتعنى به أفضل مما
هو عند العجم (٥) .

وقال به ابن جنس (ت ٣٩٢ هـ) ، اذ نراه يبين فى حديث طويل عن
فضيلة العربية على العجمية قائلًا :

« لو أحست العجم بلطف صناعة العرب فى هذه اللغة وما فيها من .

(٣) انظر : المرجع السابق ج ٣ / ١٦٤ .

(٤) انظر : د . عبد الله ربيع محمود : من ملامح المنهج العلمى عند
علماء العربية ٣٧ - ١٣٨ ط ١٤٠٤ هـ .

(٥) انظر : البيان والبيان ج ١ / ٣٨٤ تحقيق : عبد السلام
هارون . ط ٤ الخانجي .

الغموض والرقعة والحققة لاعتذرت من اعترافها بلغتها فضلا عن التقديم لها والتنويه منها » (٦) •

ثم نراه يؤيد كلامه في فضل العربية باعتراف العالمين بها وبالعجمية قائلا :

« ولهم نر أحدا من أسيافنا فيها كآبى حاتم ، ويندار ، وأبى على ، وفلان ، وفلان ، يسوون بينهما ولا يقربون بين حالتهما • وكأن هذا موضع ليس للخلاف فيه مجال ، لوضوحه عند الكافة • وإنما أوردنا هذه هذا القدر احتياطا به • واستظفارا على مورد له عسى أن يورده » (٧) وقال بتفضيل العربية أيضا ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) ، حيث عقد في كتابه الصحاح فصلا بعنوان « باب القول في أن لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها » (٨) بين فيه فضل العربية وسعتها ، وأن سائر اللغات تناصرة عن اللسان العربي وواقعة دونه لأن الله جل ثناؤه خص هذا اللسان بالبيان •

ثم نراه ينطرق تلك الفكرة التي طرقها اخوان الصفا وهي عجز سائر الأمم عن نقل القرآن الكريم إلى لغتها على ما هو به من الاختصار والايجاز ، اذ يقول :

« وقد قال بعض علمائنا حين ذكر ما للعرب من الاستعارة والتمثيل والقلب والتقويم والتأخير وغيرها من سنن العرب في القرآن فقال : ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من اللسان كما نقل الانجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية ، وترجمة التوراة إلى الزبور وسائر كتب الله عز وجل بالعربية ، لأن العجم لم تتسع في الإيجاز

(٧) انظر : الخصائص ج ١ / ٢٤٢ ، ٢٤٣ •

(٨) انظر : الصحاح ١٦ - ٢٥ •

اتساع العرب . ألا ترى أنك لو أردت أن نتقل قوله جل ثناؤه : « وأما تخامن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء » (٩) لم تستطع أن تأتي بهذه الألفاظ المؤدية عن المعنى الذي أودعته حتى تبسط مجموعها ، تصل مقطوعها ، وتظهر مستورها فتقول : ان كان بينك وبين قوم هذنة وعهد فخفت منهم خيانة ونقضاً فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطته لهم ، وأذنهم بالحرب لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على استواء . وكذلك قوله جل ثناؤه : « فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا » (١٠) .

ثم قال :

« ولو أراد معبر بالأعجمية أن يعبر عن الغنيمة والاختفاق ، واليقيين والشك ، والظاهر والباطن ، والحق والباطل ، والمبين والمشكك ، والاعتزاز والاستسلام ، « لقربه » . والله جل ثناؤه أعلم حيث يجعل الفضل » .

ثم قال :

« ومما لا يمكن نقله البتة أوصاف السيف والأسد والرمح وغير ذلك من الأسماء المترادفة ، ومعلوم أن العجم لا تعرف للأسد اسماً غير واحد ، فأما نحن فنخرج له خمسين ومائة اسم » .

وقد افنتح أبو منصور الثعالبي (ت ٤٣٠ هـ) كتابه « فقه اللغة وسر العربية » قائلاً :

« من أحب الله تعالى أحب رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، ومن أحب الرسول العربي أحب العرب ، ومن أحب العرب أحب العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب ، ومن أحب العربية عصى بها ، وثابر عليها ، وصرف همته إليها ، ومن هداه الله للإسلام ،

(٩) الآية ٥٨ / الانفال .

(١٠) الآية ١١ / الكهف .

وشرح صدره للإيمان ، وآتاه حسن سريرة فيه ، اعتقد أن محمدا ﷺ خير الرسل ، والاسلام خير الملوك ، والعرب خير الأمم ، والعربية خير اللغات والألسنة ، والاقبال على تفهمها من الحيانة » (١١) •

ويؤيد السيوطي (ت ٩١١ هـ) هؤلاء وينقل عنهم وعن غيرهم في مزهره في النوع الثاني والعشرين معرفة خصائص اللغة (١٢) •

ولو تفحصنا ما قاله العلماء القدماء والمحدثون في تفضيل العربية على غيرها لما حوته أجلاذ وأجلاذ كما قال ابن فارس • ولا نكاد نجد انكارا لهذه الفكرة فيما نعرف الا عند الفقيه الأندلسي أبي محمد بن حزم (ت ٤٥٦ هـ) من القدماء ، وتلقفها منه في عصرنا الحديث الشيخ أمين الخولي : فقد رأى ابن حزم أنه لا معنى للقول بأن العربية أفضل اللغات لأنه بها نزل كلام الله ، وعلى ذلك بقوله : « لأن الله أخبرنا أنه لم يرسل رسولا الا بلسان قومه ، فبكل لغة نزل كلام الله ووحيه » (١٣) •

وقد رضى الشيخ الخولي كلام ابن حزم ، وجنح به القلم حين عدا القول بكمال العربية وتفضيلها خطرا يعطل الإصلاح ويمنع التقدم اللغوي ، ورأى أن هذا التفضيل الذي قال به العلماء ذابح من تعصبهم القومي والديني (١٤) •

وقد راد عليه أستاذنا الدكتور عبد الله ربيع بأن تفضيل العربية لم يقيم على أساس قومي أو ديني فقط ، وإنما قام أيضا على أساس فكري

-
- (١١) انظر : فقه اللغة وسر العربية ص ٢١ • تحقيق مصطفى السقا وآخرين • الطبعة الأخيرة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م •
 (١٢) انظر : المزهر في علوم اللغة وأنواعها ص ٣٢/١ - ٣٤٥ •
 (١٣) انظر : د • عبد الله ربيع : من ملامح المنهج العلمي عند علماء العربية ص ٣٩ •
 (١٤) انظر : المرجع السابق ص ٤٤ •

ولغوى مثل ما فعل ابن جنى وغيره في القديم ، وعباس العقاد وغيره في الحديث ، بل شهد لهذا التفصيل كثير من غير المسلمين ومنهم من هو مشهور عنه بخلاء العربية والاسلام .

وقد رد عليه أيضا بأن تفصيل لغة على أخرى على أساس قسومي أو ديني مسألة فطرية وقضية طبيعية من طبائع نفوس البشر ، وفكرة قديمة ولم تخل منها الحياة العلمية في عصرنا الحديث :

فقد يما فضل اليونانيون لغتهم ، ومثلهم فعل اليهود ، ولا يزالو يتحدثون عن أولية العبرية وآخريتها ، وحديثا نرى الأوروبيون يفعلون .

« فهل نطلب من العربى وحده أن يكون بدعا بين جميع أبناء الأمم فلا يرى لغلته فضلا ولا يحس نحوها بمزيد من التقدير » ، « وما يضر المنهج العلمى عندما ترتبط العربية بالاسلام ، وخاصة وقد أراد الله أن تكون معجزة هذا الدين الخالدة لغوية محضة » ، « وهل دفع الدين علماء العربية الى ازدياد اللغات الأخرى أو احتقارها » ، « وإنما يعد هذا التفصيل عيبا إذا خرج عن المعقول وجاوزه الى الاسراف والطغيان واحتقار الأجناس أو اللغات » (١٥) .

وهكذا نظهر الحقائق صدق ما ذهب اليه علماء العربية ومنهزم اخوان الصفاء .

وسوف يتضح لنا في أثناء الحديث عن الأبجدية العربية أن العربية أغنى اللغات بالأصوات ، وأن أبجديتها أكمل الأبجديات .

أما مسألة عجز الأمم على نقل وترجمة القرآن الى لغاتها المختلفة على ما هو به من الاختصار والإيجاز ، والتي أثارها اخوان الصفا وغيرهم من العلماء ، فقد شغلت أذهان المسلمين من قضاة ومحدثين

٣١٩

ومفسرين ولغويين وغيرهم على مر العصور وبخاصة الربع الأول من هذا القرن حيث حدث ضجة بين الكتاب في حكم ترجمة القرآن باللغات الأجنبية ، وقد تشعبت الأهواء واختلفت الآراء ما بين موجب لتلك الترجمة ، ومجوز ، ومانع لها .

وبعضهم يراها جائزة شرعا اذا كان المقصد من تلك الترجمة تبليغ ألفاظه أو تفسيره بالعربية أو ترجمة تفسيره بلغة أجنبية لمن لا يحسن العربية . أما اذا كان المقصد من تلك الترجمة نقل ألفاظه وأساليبه الى لغة أخرى والتعبير عن معنى تلك الألفاظ ومقاصدها بألفاظ غير عربية مع الوفاء بجميع هذه المعاني والمقاصد ، فان ذلك غير ممكن عادة ويحرم محاولتها شرعا ، اذ ترجمته الحرفية بالمثل غير مقدورة ، وبدون المثل لا تجوز ولا تجدى .

وقد اتجه الأزهر اتجاها قويا الى بحث هذا الموضوع وأنتهى الأمر بعد طول النقاش والحوار الى أن قررت مشيخته ترجمته وتفسيره ، ووضعت دستوراً تلتزمه في هذا العمل .

وموضوع الترجمة القرآنية واللغوية بحاجة الى بحث مستقل ، وللمتعجل أن يرجع الى بعض ما كتب حديثا في هذا الموضوع (١٦) .

(١٦) انظر : الشيخ : محمد حسين مخلوف العدوي : حكم ترجمة القرآن وكتابته وقراءته بفكر اللغة العربية . شوال ١٣٤٣ هـ ، عنوان البيان في علوم التبيان ١٢١ - ١٢٢ . الطبعة الثانية ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م .
ابن الخليل : الفرقان ١٦٩ - ٢٣٦ . الطبعة الاولى ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ ، وقد حكم بمصادرة هذا الكتاب في مصر .
د. ابراهيم أنيس : دلالة الألفاظ ١٦٨ - ١٨٦ ، ومحمد عبيد العزيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن ج ١/٢ - ١٧٣ ط دار احياء الكتب العربية ١٩٨٠ .

الفصل الثاني

أصل العربية وتطورها

ويرى اخوان الصفا أن أصل العربية يرجع الى « يعرب بن سام »
 « ثم تطورت واتسعت نتيجة لعوامل فلكية وجغرافية ونفسية وعضوية
 (فسيولوجية) » .

يقول الاخوان :

« اعلم أنه قيل ان أول من نطق باللغة العربية كان يعرب بن سام ،
 ثم لم تزل تنتسح مع الزمان وتتزايد على كثرة العرب وانتشارهم في
 الأرض بحسب انفعالات تقع لهم في مواليدهم ، وبقاعهم ، وامزجتهم
 وطبائعهم ، وأبدانهم ، وأهويتهم ، حتى صارت أنواعا كثيرة ، وصار
 لكل قبيلة من قبائل العرب لغة يعرفون بها ، وكلام ينسب اليهم ،
 ويتميزون به عن غيرهم . واختلفوا في أسماء الأشياء حتى صار الشيء
 الواحد من الموجودات له في لغة العرب أسماء كثيرة يعرف بها ويشار اليه
 بها كلها ، ولذلك صار علم اللغة العربية من العلوم الكبار وصار الناس
 من الحاجة اليه بحيث لا يسعهم تركه ، بل يجب عليهم علمه ، ولا ينبغي
 الجهل بشيء منه ، وذلك من حكمة البارئ تعالى أنه خلق الموجودات
 وألقى عليها الأسماء والصفات وجعل لها في كل طائفة وفي كل لغة أسماء
 تعرف بها ويشار بها اليها بخلاف ما في لغة أخرى . ولو تأملت واعتبرت
 لغات العرب لرأيتها من العجائب الطريفة والحكمة الشريفة ، فانظر كيف
 اختلفوا في كثير من كلامهم وما هم محتاجون اليه من أسماء
 مأكولهم ومشروبهم ، وقد جمعتهم لغة واحدة ، وشريعة واحدة ، حتى

ان القراء اختلفوا في قراءاتهم وتباينوا في رواياتهم • وكذلك تجد في اللغات غير اللغة العربية أكثر ، والأمر فيها أصعب ، وعلى هذا المثال في الآراء والديانات أيضا ، حتى ان كثيرا من العرب الذين يسكنون البراري البعيدة من العمران من يجري في لغته أسماء كثيرة لا يعرفها من باقى العرب أكثرهم ، ولا يعرفها العرب الحاضرة الا بعد البيان والايضاح ، ويحتاج فيه الى معرفة اشتقاقاتها حتى تتصور له ، ثم يسمى ذلك الشيء بذلك الاسم ، كل ذلك لعلة وأسباب يطول شرحها » (١) •

وعندما تلقى الضوء على أصل اللسان العربى ، والتسمية بالعرب ، وما ذكره الاخوان بصده فنانا نرى أن مؤرخى العرب يختلفون في هذا كما يختلف فيه غيرهم كما يذكر الأستاذ العقاد ، فهل سموا بذلك لأنهم كانوا يسكنون مواقع الغرب من أمة أخرى يحل فيها حرف (العين) محل حرف (النين) كما يحدث في بعض اللهجات ؟

أو هل أطلق عليهم هذا الاسم من (العرابة) بمعنى الجفاف أو الصحراء في لغة بعض الساميين بشمال الجزيرة ؟ أو هل أطلق عليهم نسبة الى (يعرب بن قحطان) أو نسبة الى (عربة) من أرض تهامة كما يقول ياقوت (٢) •

وينقل السيوطى في مظهره أقوالا متعددة في أصل اللسان العربى (٣) ، ومن تلك الأقوال : أن هذا اللسان كان لسان آدم ثم انتقل

(١) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣ / ١٥١ - ١٥٢ •

(٢) انظر : العقاد : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونانيين ٧٠ •

- د • عبد الله ربيع ، عبد العزيز علام : في لغة ٩٢ - ٩٣ •

(٣) انظر : السيوطى : المظهر ج ١ / ٣٠ - ٣٤ •

الى رجل يقال له « جرهم » ، ثم صار عن طريق المصاهرة — إلى ولد « أرم من سام » ثم صار إلى « بنى قحطان » ، اذ يقول :

« قال عبد الملك بن حبيب : كان اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة عربيا الى أن بعد العهد وطال حرف وصار سريانيا ، وهو منسوب الى أرض سوري أو سوريانه ، وهي أرض الجزيرة ، بها كان فترح عليه السلام وقومه قبل الغرق، قال، وكان يشاكل اللسان الغربي، الا أنه محرف ، وهو كان لسان جميع من في سفينة نوح ، الا رجلا واحدا يقال له جرهم ، فكان لسانه لسان العربي الأول ، فلما خرجوا من السفينة تزوج ارم بن سام بعض بناته ، فمنهم صار اللسان العربي في ولده عوص أج عاد ، وعبيل ، وجائر ، أج ثمود ، وجديس ، وسميت عاد باسم جرهم ، لأنه كان جدّهم من الأم ، وبقي اللسان السرياني في ولد أرفخشذ بن سام ، الى أن وصل يشجب بن قحطان من ذريته وكان بانييمن ، فنزل هناك بنو اسماعيل فتعلم منهم بنو قحطان اللسان العربي » •

وينقل السيوطي عن ابن دحية أن العرب ثلاثة أقسام : (عاربة وعرباء) ، وهم الخالص ، وهم تسع قبائل من ولد أرم بن سام من نوح ، ومنهم تعلم اسماعيل عليه السلام العربية ، (وعرب متعربة) : وهم الذين ليسوا بخالص وهم بنو قحطان ، (وعرب مستعربة) وهم الذين ليس بخالص أيضا ، وهم بنو اسماعيل ، وهم ولد معد بن عدنان بن آدم

وينقل السيوطي عن ابن حريد قوله : « وسمى يعرب بن قحطان : واسمه مهزم ، لأنه أول من انعدل لسانه عن السريانية الى العربية » •
وينقل كذلك عن الجافظ عماد الدين بن كثير في تاريخه قوله :
« قيل : ان جميع العرب ينتسبون الى اسماعيل بن ابراهيم عليه

المسلم ، والصحيح المشهور أن العرب العاربة قبل اسماعيل ، وقد
تقدمنا أن العرب العاربة هم عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وجهم
والعمالق وأمم آخرون لا يعلمهم إلا الله ، كانوا قبل الخليل عليه
السلام وفي زمانه أيضا • فأما العرب المستعربة وهم عرب الحجاز فمن
ذرية اسماعيل عليه السلام ، وأما عرب اليمن وحمر فالمشهور أنهم من
قحطان ، واسمه مهزم ، قاله ابن مأكولا ، وذكروا أنهم كانوا أربعة
أخوة : قحطان وقاحط ومقط ، وفالغ ، وقحطان بن هود ، وقيل هود ،
قيل هود أخوه ، وقيل من ذريته ، وقيل أن قحطان من سلالة اسماعيل ،
حكاه ابن اسحاق وغيره • والجمهور على أن العرب القحطانية من عرب
اليمن ، وغيرهم ليسوا من سلالة اسماعيل •

ويرجح بعض الباحثين المحدثين نسبة العرب الى (يعرب) جد هم
الأعلى بناء على أن البنية الاجتماعية لقدماء العرب وحفظهم للتواتر
للإنساب ، وحرصهم الأكيد عليها يعرزان هذا الرأي أيما تعزيز (٤) •

أما عن تطور تلك اللغة واتساعها مع الزمان وتزايدها على كثرة
العرب وانتشارهم فقد أرجعه الإخوان — كما سبق نقله — الى عوامل
مناخية وجغرافية ونفسية وفسيولوجية •

وقد سبق في الفصل الثالث عرضنا وجهة نظر الإخوان في التطور
اللغوي، بعامية ، وعرفنا بجلال العاميل الفيلكى وفساد اعتقادهم في
الكواكب وتأثيرها على كل الكائنات التي دون تلك القمر •

كما عرفنا أيضا صحة العوامل الأخرى وتمشيها مع النظرية
الحديثة ، ولك أن ترجع الى ذلك مفصلا هناك •

(٤) انظر : د • عبد الله ربيع ، عبد العزيز عليم : في لغة

الفصل الثالث

أصوات اللغة العربية

تحدث الاخوان عن أصوات اللغة العربية من حيث عددها ، ومخارجها ، وصيغها الناشئة عن اضطرابات التكلم واخراج المقاطع ، كما تحدثوا عن الألفبائية العربية وعدد الرموز فيها ، وميزتها .

وفيما يلي توضيح لهذه النقاط :

(١) عددها :

أرجع اخوان الصفا عدد أصوات العربية الى ثمانية وعشرين صوتا أو حرفا لفظيا (١) .

ومن خصائص تلك الحروف — كما ذكروا — أن منها ما يدغم فيه لام التعريف ، ومنها ما لا يدغم فيه :

أما الحروف التي تدغم فيها لام التعريف فهي أربعة عشر حرفا : التاء والثاء والذال والذال والراء والزاي والسين والشين والصاد والضاد والطاء والظاء واللام والنون .

أما الحروف المتبقية وهي التي لا تدغم فيها لام التعريف فهي أربعة عشر حرفا أيضا : الألف والباء والجيم والحاء والخاء والعين والغين والفاء والقاف والكاف والميم والنهاء والواو والياء (٢) .

(١) انظر : رسالة اخوان الصفا ج ١ / ٣٩٣ .

(٢) انظر : المرجع السابق ج ٣ / ٣٨١ . وقدر ذكر الشيخ

الاشبيلي (ت ٦٥٤ هـ) هذه الخصوصية في كتابه « في تجويد

القرآن » ومخارج الحروف ، انظره ص ٥٧ تحقيق د . أبو السعود احمد

الفخراني . الطبعة الاولى — مطبعة الامانة (١٤١١ هـ ١٩٩٠) .

، وبالصقيفة أن عدد الأصوات الرئيسية — أو ما يسمى بالنونيمات —
في العربية أربعة وثلاثون صوتاً رئيساً أو أصلياً (أ أو فونيماً) ، حيث
لم يذكر الاخوان الا ما يسمى بالحروف الصامتة ، أما الحركات أو ما
يسمى بالحروف الصائتة فلم يذكرها الاخوان ، وهي ست :

الفتحة بنوعيتها : القصيرة ، والطويلة ، وهي ألف المد ، والكرمة.
بنوعيتها : القصيرة ، والطويلة وهي ياء المد ، والضمه بنوعيتها : القصيرة ،
والطويلة وهي واو المد .

ولم يعن الاخوان — كغيرهم من قدامى اللغويين العرب —
بالحركات ، حيث نظروا اليها على أنها تابعة للأصوات الصامتة ، لا
تستقل بنفسها في النطق تماماً كاستقلال الأصوات الصامتة ، ولذا
عددها أصواتاً ثانوية بالنسبة لتلك الأصوات الصامتة (٣) .

ومما تجدر الإشارة اليه أن للعدد « ثمانية وعشرين » فلسفة عند
الاخوان حين رآه من الأعداد الثامة ، وحين رأوا مطابقتها لعدد منازل
القمر ، وعدد أعضاء الجسم الانساني كما سبق في الفصل الثالث من
الباب الأول ، فارجع اليه .

وسوف نناقش قريباً في أثناء الحديث عن الرموز الكتابية
للأصوات العربية (٤) مدى استيعاب الألفبائية العربية لألفبائيات
اللغات الأخرى .

(ب) مخارجها :

لقد ذكر اخوان الصفاء مكونات آلة النطق الرئيسية ، وهي التي

(٣) انظر : د. رمضان عبد التواب : فصول في فقه اللغة العربية
٣١٥٢ وما بعدها ، الطبعة الاولى ١٩٧٣ المأهز .
(٤) انظر : المرجع السابق ج ٣/٣٨٢ .

تشتمل على الرئة والصدر والحجاب والحلقوم والمنخرين والفم وما
يشتمل عليه من لسان وشفتين كما سبق توضيحه في فصل الصوت
اللقوى •

وقد ذكر الاخوان أن اللسان يتدخل في تقطيع واخراج أربعة عشر
حرفا وهي : التاء والتاء والمدال والذال والراء والزاي والسين والشرين
والصاد والضاد والطاء والظاء واللام والنون • وذكروا أن الأربعة عشر
المتبقية مخارجها مختلفة ، ليس للسان فيها مدخل (ه) •

ان اللسان يحظى بنصيب وإقر في اخراج الأصوات ، ولا يقتصر
دوره على تلك الأصوات التي ذكرها الاخوان •

فاذا نظرنا نظرة قديمة لوصف الأصوات واستبعدنا الحروف
الحلقية الستة (الهمة والهاء والعين والحاء والغين والخاء) ، وحروف
الثقة الأربعة (الفاء والباء والميم والواو) يصير للسان ثمانية عشر
حرفا صامتا هي المتبقية ، بالإضافة الى الدور الذي يقوم به في تشكيل
الحركات المختلفة •

واذا نظرنا نظرة حديثة واستبعدنا صوتي الحنجرة (الهمة والهاء)
وصوتي الحلق (العين والحاء) ، وأصوات الثقة (الفاء والباء والميم)
يصير للسان واحد وعشرون صوتا صامتا هي المتبقية ، بالإضافة الى
دوره في الحركات كذلك •

فهل القاف والكاف والواو والجيم والياء ليس للسان فيها مدخل ؟
كلا ، وهذا ما نأخذه على الاخوان •

على أن الاخوان أنفسهم قد ذكروا في مواضع أخرى ما يفيد

أهمية اللسان ومدخله في كل الأصوات حين ذكروا دوره الأساسي في الكلام الفصيح الذي يرجع الى احكام اللسان تقطيع الحروف على مستوى الافراد والتركيب ، اذ نراهم يقولون في بعض المواضع :

« اعلم أن لسان الانسان اذا كان متحركا الى جهة كل حرف من هذه الحروف الثمانية والعشرين ، يخرجه من تلك الجهة ، ولا يعدل به الى غيرها ، ولا يخلط بعضها ببعض ، ولا يحيلها عما هي به في اللفظ ، فلهو لسان صحيح ، وكلام فصيح ، من جهة بيان الحروف ووضعها على ما هي به في أى كتابة كانت وبأى لغة اتفقت كان الكلام بها » (٦) •

ومعنى كلامهم هذا أن اللسان تكييفات أخرى — أو صفات كما يقول علماءنا غير عملية الاخراج — مع كل الأصوات ، حتى الأصوات الحلقية والشفوية ، وأصوات الحركات :

فهو من أبرز الأعضاء التي تتحكم فيما تسميه الدراسة الحديثة « الصندوق الرنين » الأمامي في تجويف الفم أو فراغه • فهو بهرورته وقدرته على الحركة المتنوعة يصنع عددا كبيرا من صناديق الرنين المختلفة في أشكالها وأحجامها وأطوالها مع الأصوات المختلفة ، وتختلف النغمات أو المكونات النغمية للأصوات باختلاف تلك الصناديق :

فعندما يستعلى مؤخره توصف بعض الأصوات باستعلاء مثل الصاد والضاد والطاء والنظاء والخاء والقاف والغين •

وعندما يستفل توصف بقية الأصوات بالاستفال •

وعندما يستعلى مؤخره ومقدمه حتى يصير مثل الطبق توصف بعض الأصوات بالاطباق مثل الصاد والضاد والطاء والنظاء •

وعندما يكون بخلاف ذلك توصف بقية الأصوات بالانفتاح .

وعندما يكون على صورة حروف الاستعلاء مع انجذابه الى الخلف ، توصف بعض الأصوات بالتفخيم مثل حروف الاستعلاء واللام والراء وبعض الحركات كالفتحة والضمة في بعض أحوالهما .

وعندما يكون بخلاف ذلك توصف بقية الأصوات بالترقيق (٧) .

وتعد الوظيفة اللغوية للسان وظيفة ثانوية بجانب وظيفته الحيوية الأخرى وهي المساعدة في مضغ الطعام وبلعه ، قد أشار اليها الاخوان حين قالوا :

« وللسان حركات الى ست جهات لمضغ الطعام وتقليبيه تحت أسنانه للقطع والكسر والدق والطحن والقطع بالثنايا ، والكسر بالرباعيات والأنياب والدق والطحن بالأضراس والطواحين » (٨) .

ولعلك تلاحظ معي أن النص يشتمل كذلك على الوظيفة الحيوية للأسنان ، وتلك الأسنان تختلف وظيفتها تبعاً لاختلاف أنواعها ، فهي إما ثنايا أو رباعيات أو أنياب أو أضراس أو طواحين ، ومنها ما هو مخصص للقطع ومنها ما هو مخصص للكسر ، ومنها ما هو مخصص للدق والطحن .

(٧) راجع : التجويد القرآني في ضوء علم الصوتيات الحديث ص ٢٠٩ - ٢٣٢ وهي رسالة دكتوراه للباحث بمكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة .

(٨) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣ / ٣٢٩ .

١٠ (ب) العيوب الصوتية :

سبق أن ذكرنا في الفصل السابق أن الإخوان أدرکوا أهمية مخارج الحروف وأثرها في صحة النطق حين تحدثوا عما سموه اتساع الحروف وسهولة التصرف في المخارج ، وخفة اللغة ، وعرفنا تصورهم للعوامل ذلك ، وعرفنا أيضا أن فساد الكلام — في نظرهم — إنما هو من اختلاف مخارج الحروف في قوتها وفي ضعفها ، وهو فساد في اللسان بقلب ويعدل الحروف عن مخارجها ، وأن من مظاهر هذا الفساد ما سهوه بالخلصة والنافاة والتمتمة والعقلة والحكمة والبرثة واللثغة ، وما أشبه ذلك .

وقد وعدنا القارىء هناك أن نلقى الضوء عليها هنا من خلال أمثلة من أصوات لغتنا العربية .

ويمكن أرجاع تلك الاضطرابات التي تحدث في التكلم واخراج المخاطع وتقطيعها — تبعاً لمظهرها الأدائي — إلى ما يأتي :

- ١ — عيوب استبدالية .
- ٢ — عيوب تشويهية .
- ٣ — عيوب الخفاء وعدم الوضوح .
- ٤ — عيوب تتعلق بالتزمين وسرعة الأداء .

تأولاً : العيوب الاستبدالية :

- وتتحقق هذه العيوب بجعل صوت مكان صوت آخر .
- وهن تلك العيوب : اللثغة ، والمكثة .

(أ) اللثغة :

لم يذكر الاخوان شيئاً عن هذا المعيب ، ويرجع ذلك — في نظري — الى معرفة الخاصة والعامة بمظهره الصوتي • وقد ألقى ابن منظور الضوء عليه حين قال (٩) :

« اللثغة أن تعدل الحرف الى حرف غيره • والألثغ الذي لا يستطيع أن يتكلم بالراء ، وقيل هو الذي يجعل الراء غينا أولاً ، أو يجعل الراء في طرف لسانه ، أو يجعل الصاد ثاء ، وقيل : هو الذي يتحول لسانه عن السين الى الثاء ، وقيل : هو الذي لا يتم رفع لسانه في الكلام وفيه ثقل ، وقيل : هو الذي لا يبين الكلام ، وقيل هو الذي قصر لسانه عن موضع الحرف ولحق موضع أقرب الحروف من الحرف الذي يعثر لسانه عنه ••• » •

وللثغة آثار لغوية واجتماعية ، اذ يترتب على حدوث الاضطراب والتداخل في الألفاظ والمعاني سوء الفهم وصعوبة الافهام الى جانب قبح الأداء وما يترتب عليه من نفور السامع ووحشة المخاطبين (١٠) •

(ب) اللكنة :

يقول اخوان الصفا : « اذا أدخل الرجل بعض حروف العرب في بعض حروف المعجم قيل في لسانه لكنة » (١١) •

وقد أكد ابن منظور هذا حين قال : «اللكنة عجمة في اللسان وعي»

(٩) انظر : لسان العرب (لثغ)

(١٠) انظر : د • عبد الله ربيع محمود : الملامح الادائية عند

الباحظ في البيان والتبيين ٢٥٢ •

(١١) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣ / ١١٩ •

ونقل عن ابن سيدة أن اللكن الذي لا يقيم العربية من عجمة في لسانه ،
ونقل أيضا عن المبرد أن اللكنة هي أن تعترض على كلام المتكلم باللغة
الأعجمية ، يقال : فلان يرتضخ لكنة رومية أو حبشية أو سندية ، أو ما
كانت من لغات العجم (١٢) . ويرجع السبب في حدوث هذا العيب إلى
تأثر المتكلم بنظام لغته التي نشأ عليها عندما يحاول نطق لغة أجنبية
عنه عند تعلمها ، أو إلى تأثير المتكلم بنظام لغة غير لغته نظرا لنشأته
وتأثره ببيئة ناك للغة الأجنبية .

ويمكن أن تعترض اللكنة كل نظم اللغة ، صوتية كانت أو صوفية أو
نحوية أو دلالية .

ومن مظاهرها الصوتية لدى الخاصة نطق السين شيئا ، ونطق
الطاء ثاء ، ونطق الشين سينا ، ونطق الحاء أو الخاء هاء ، ونطق القاف
كافا .

ومن مظاهرها لدى العامة نطق الذال دالا ، ونطق القاف كافا ،
ونطق السين شيئا ، ونطق الجيم (١٣) .

ثانيا : العيوب التشويهية :

وهي التي تحدث بتشويه بعض أصوات الكلام . ومن تلك العيوب
التي ذكرها الاخوان : الفأفة ، والتمتمة :

(١) الفأفة :

لم يذكر الاخوان عنها شيئا ، اعتمادا على وضوح مظهرها فيما

(١٢) انظر : لسان العرب (لكن) .

(١٣) انظر : د . عبد الله ربيع : الملامح الادائية عند الجاحظ في

البيان والتبيين ٣٦٦ - ٢٦٩ .

أظن ، وقد ذكر ابن منظور أنها حسية في اللسان وغلبة الفاء على الكلام، ونقل عن المبرد في معناها أن يتردد في الفاء إذا تكلم (١٤) •

وترجع الفأفة الى اضطرابات في تقطيع حرف الفاء نتيجة للاضطرابات في الجهاز العصبي في المخ •

(ب) التمتمة :

وهي رد الكلام الى التاء والميم — كما ذكر ابن منظور — ونقل أمثالا عديدة فيها ، حيث قال : وقيل : أن يجعل بكلامه فلا يكاد يفهمك، وقيل : أن تسبق كلمته الى حنكه الأعلى ، والفأفة الذي يعسر عليه خروج الكلام • وقال الليث : التمتمة في الكلام ألا يبين اللسان يخطيء موضع الحرف فيرجع الى لفظ كأنه التاء والميم وان لم يكن بيانا ، ونقل عن المبرد أن التمتمة التردد في التاء (١٥) •

ثالثا : عيوب الخفاء وعدم الوضوح :

وهي لا تتحقق فيها الابانة ولا يظهر فيها ما ينبغي من الوضوح • ومن تلك العيوب : الحكلة والخلسة •

(١) الحكلة :

قال اخوان الصفاء : « الحكلة انما هي نقصان آلة المنطق وعجزها عن أداء اللفظ حتى لا يعرف معناه الا القليل ، وهو قريب من كلام البهائم والخرس ونحو ذلك » (١٦) •

(١٤) انظر : لسان العرب (فافا) •

(١٥) انظر : المرجع السابق (ا تمم) •

(١٦) انظر : رسائل لخران الصفا ج ١١٩/٣ •

وهو نفس ما قاله الجاحظ تقريبا ، ونصه : « فاذا تملوا في لسانه
حكمة فانما يذهبون الى نقصان آلة المنطق ، وعجز أداة اللفظ حتى لا
تعرف معانيه الا بالاستدلال » (١٧) .

وقال ابن منظور (١٨) : « الصكلة كالعجمة لا يبين صاحبها الكلام ،
والحكمة والحكيمة : اللثغة . ابن الأعرابي : في لسانه حكمة أي عجمة
لا يبين الكلام . والحكل : العجم من الطيور والبهائم . وكلام الحكل :
كلام لا يفهم (حكاة ثعلب) » .

(ب) (الخلسة (يضم الخاء) : .

قال اخوان الصفاء « اذا كان الكلام يثقل على الرجل قيل في لسانه
خلسة » وقد أرجعوا هذا الثقل الى فساد الحركة وبعدها من النسبة
المفصلة » (٢٠) .

وقد أطلق الجاحظ على هذا الثقل حبسه لا خلسة ، قال : « يقال في
في لسانه حبسه اذا كان الكلام يثقل عليه ، ولم يبلغ حد الفاقه
والتمتصام » (٢١) .

ولم نجد هذا العيب في لسان العرب ، وانما فيه « أخلست الأرض
والنبات : خالط يبيسهما رطبهما ، والخلسة الاسم من ذلك » (٢٢) .
بينما نجده يتكلم عن الحبسة ويقول (٢٣) : « والحبسة والاحتباس في

-
- (١٧) انظر : البيان والتبيين ج ١ / ٤٠ .
 - (١٨) انظر : لسان العرب (حكل) .
 - (١٩) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣ / ١١٩ .
 - (٢٠) انظر : المرجع السابق ج ٣ / ١٣٥ .
 - (٢١) انظر : البيان والتبيين ج ١ / ٤٠ .
 - (٢٢) انظر : لسان العرب (خلست) .
 - (٢٣) انظر : المرجع السابق (حبس) .

الكلام : التوقف • وتحبس في الكلام : توقف • قال المبرد في باب علل اللسان : الحبسة تعذر الكلام عند ارادته ، والغقلة التواء اللسان عند ارادة الكلام » •

وهذا يجعلنا نشك في أن الخلسة تصحيف وتحريف الحبسة •

وقد اهتم بالحبسة المحدثون ، سواء كانوا علماء لغة أو نفس ، أو متخصصين في أمراض الكلام ، ووضعوا لها مصطلح « أفيزيا » ، وجمعوا تحته أنواعا مختلفة ، ويمكن إيجازها في أربعة (٢٤) :

١ - حبسة حركية أو لفظية : ومن مظاهرها احتباس الكلام ، أو فقدان التعبير الحركي الكلامي • وهي تحدث نتيجة خلل في منطقة « بروكا » المسالك ذكرها في الفصل الماضي •

وفي الحالات الشديدة من هذه الحبسة يفقد المصاب القدرة على التعبير •

وهذا النوع يتلاقى في مفهومه مع ما ذكره اخوان الصفا •

٢ - حبسة حسية : وتتمدد مظاهرها ، ومنها : اضطرابات في القدرة الادراكية السمعية أو فقد القدرة على تمييز الأصوات المسموعة واعطاء دلالاتها اللغوية ، فيلجأ المتكلم الى ابدال حرف بآخر ، وأحيانا ليشمل الابدال معظم الحروف ، فيصبح الكلام غامضا غير مفهوم •

وهي تحدث نتيجة خلل في منطقة « فونيك » السابق ذكرها في الفصل الماضي •

(٢٤) انظر ذلك بالتفصيل : د. مصطفى فهمي : أمراض الكلام

٥٦ - ٧٤ ، د. جمعة سيد يوسف : سيكولوجية اللغة والمرض العقلي

١٧٨ - ١٨٢ •

٢٣٥

حبسة كلية : وهى تجمع بين الزرعين السابقين نتيجة اصابة
بجلطة دموية ، أو اصابة بنزف مخى .

٤ - فقد القدرة على التعبير بالكتابة نتيجة تلف فى مركز حركة
اليدين فى الفص الجبهى .

رابعا : عيوب تتعلق بالتزمين وسرعة الأداء :

وهى تتحقق اذا لم يراع المكلم نظام لغته التزمينى ، فيسرع ،
حين يجب الابطاء ، أو يبطئ حيث يلزم الاسراع ، أو بين هذا وذاك .
فى موقف يقتضى أحد الجانبين (٢٥) .

ومن العيوب التى ساقها الاخوان والمتعلقة بهذا الخل التزمينى:
العقلة ، والرتة .

(ا) العقلة :

قال اخوان الصفا : « اذا عجز الرجل عن سرعة الكلام قيل فى
لسانه عقله » (٢٦) .

وقد سبق أن نقل ابن منظور عن المبرد مفرقا بين الحبسة .
والعقلة ، أن الحبسة تعذر الكلام عند ارادته ، والعقلة التواء اللسان .
عند ارادة الكلام .

وترجع العقلة - على ما هو واضح - الى عدم قيام أعضاء
النطق بوظائفها النطقية والتقطيعية على الوجه المطلوب .

(٢٥) انظر : د. عبد الله ربيع : الملامح الادائية عند الجاحظ فى .

البيان والتبيين ٢٧٩ .

(٢٦) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١١٩/٣ .

(ب) الرتبة :

لقد ذكر ابن منظور لهذا العيب مظاهر متعددة ، ويمكن أن تكون هذه المظاهر آثارا سيئة ناتجة من العجلة وقلة الأناة •

فقد ذكر أن الرتبة عجلة في الكلام وقلة أناة ، أو قلب اللام ياء ، أو ردة قبيحة في اللسان من العيب ، أو العجبة في الكلام والحكمة فيه ، أو هي كالريح تمنع منه أول الكلام ، فإذا جاء منه اتصل به •

وذكر أن الأثر الذي في لسانه عقدة وحبسة ويعجل في كلامه ، فلا يطاوعه لسانه (٢٧) •

لقد ذم الاخوان الكلام المشوه الناتج من العيوب السالفة الذكر، حيث يكون منطق الانسان أقرب الى منطق الحيوان ، ومدحوا الكلام الفصيح المبرأ من تلك العيوب ، حيث يكون منطق الانسان متصلا بمنطق الملائكة ، اذ يقولون في أثناء حديثهم عن التغيير والاستحالة والزوال والانتقال من حال الى حال ، التي أرجبتها الحكمة الإلهية في الموجودات الطبيعية والأصوات :

« والانسان أيضا كلامه ذو طرفين : طرفه الأدنى متصل بالحيوان مثل الفأفأ والتمتمام والأخرس والألثغ وما شاكل ذلك • والطرف الأعلى منه متصل بمنطق الملائكة مثل كلمات الفصحاء والبلغاء وذوى النفحات والألحان المطربة مثل نغمات داود عليه السلام ، والقراء والمحنين في المساجد ، وقراءة المزامير مثل أصوات قراءة التوراة في الكنائس والبيع ، والقرآن في المساجد ، والخطباء على المنابر ، والرهبان في الصوامع ، وما شاكل ذلك » (٢٨) •

(٢٧) انظر : لسان العرب (رتت) •

(٢٨) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣ / ١٣٠ •

وقد وضع الاخوان شرائط معلومة وخصالا حميده لقراء القرآن ،
الكريم وحفظته ، وكان من أول تلك الشرائط « فصاحة اللفاظ » ،
وتقويم اللسان ، وطيب النغمة ، وجودة العبارة ، وسرعة الحفظ ،
وجودة الفهم ، ودوام الحرس والنشاط في القراءة « (٢٩) » .

(ج) وموزها الكتابية (الالفبائية العربية) :

فلقد أطلقوا على الرمز الكتابي للصوت حرفا خطيا ، للتفريق
بينه وبين الصوت الذي سموه حرفا لفظيا ، وبين المفكر الذي سموه
حرفا فكريا .

يفرق الاخوان هذه الأنواع من الحروف ، ويوضحون العلاقة
بينها في قولهم :

« ان الحروف ثلاثة أنواع : فكرية ولفظية وخطية : شالفكرية
هى صورة روحانية فى أفكار النفوس مصورة فى جواهرها قبل اخراجها
معانيها بالالفاظ، والحروف اللفظية هى أصوات محمولة فى الهواء فمدركة
بطريق الأذنين بالقوة السامعة كما بينا فى رسالة الحاس والمحسوس ،
والخطية هى نقوش خطت بالأقلام فى وجوه الألواح وبطون الطوامير
مدركة بالقوة الباصرة برىق العينين . واعلم أن الحروف الخطية انما
وضعت سمات ليستدل بها على الحروف اللفظية ، والحروف اللفظية
وضعت سمات ليستدل بها على الحروف الفكرية » (٣٠) .

وقد اصطلح على تسمية الرموز الكتابية للأصوات بالالفبائية أو
الأبجدية .

(٢٩) انظر : المرجع السابق ج ١/ ٣٢٤ .

(٣٠) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١/ ٣٩٢ - ٣٩٣ .

وللألفبائية العربية ترتيبان ، وقد ذكرهما اخوان الصفا :

الترتيب الاول :

وقد توارثت عن الكتابة السامية ، وهو : أبجد هوز حطي لكن
سعفس قرشت ثخذ ضظغ (٣١) •

وهذا هو الترتيب المشرقي • وقد ذكر الاخوان القيمة العددية لكل حرف •

أما الترتيب المغربي فهو : +++ سعفس قرست ثخذ ظغش (٣٢) •

الترتيب الثاني :

وقد وضعه أبو الأسود الدؤلي وتلميذاه يحيى بن يعمر ، ونصر
بن عاصم • وقد اتبع الاخوان فيه الترتيب الشرقي كالسابق وهو
أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م
ن ه و لا ي (٣٣) •

أما الترتيب المغربي فهو أ ب +++ ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ
ف ق س ش ه و لا ي (٣٤) •

ومما نأخذه على الاخوان - وعلى معظم علماء العربية - أنهم
لم يضعوا ضمن الألفبائية رموز الحركات القصيرة والتي بدأت أولا

(٣١) انظر : المرجع السابق ج ١/٥١ - ٥٢ •

(٣٢) انظر : القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣/٣٢ •

وانظر : حفى ناصف : تاريخ الادب أو حياة اللغة العربية ج ١/

٣٥ - ٣٦ • الكتاب الاول ١٩٠٦ م •

(٣٣) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١/٢١٩ •

(٣٤) انظر : القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣/١٨ •

بالحفظ المدور الذي وضعه أبو الأسود الدؤلى (ت ١٦٩ هـ) ثم صارت
بعد ذلك الى الشكل المستطيل على يد الخليل بن أحمد .

أما رموز الحركات الطويلة فلم يذكروا منها غير الف
المدة في « لا » (٣٥) ، إلا اذا اعتبرنا أن رمزى الواو والياء يدلان
على الصوتين الصامتين والصائتين بطريق المجاز أو الانسداد .
أما الألف التى فى صدر الألفبائية فيعنى بها الهمزة كما هو
معلوم .

صناعتها وميزاتها :

لقد أكد اخوان الصفا فى أكثر من موضع من رسائلهم أن عدد
الحروف الكتابية فى العربية ثمانية وعشرين ، وأنه العدد الذى وقفت
عنده اللغات ، اذ يقولون فى معرض حديثهم عن ظهور صناعة الكتابة
وتطورها مع الزمان ، كما مر فى الفصل الثالث :

« ولم تزل الحروف تزيد وتنقص ويظهر الشئ بعد الشئ
وصناعة الكتابة تتسع وتتفرع الى أن كل عدد الحروف ثمانية وعشرين
حرفا ، ثم وقفت على هذا العدد ولم تزد على ذلك » (٣٦) .

(٣٥) ذكر ابن جنى أن واضع حروف الهجاء لما لم يمكنه النطق
بالألف التى هى ملة ساكنة ، لان الساكن لا يمكن الابتداء به ، دعمها
باللام قبلها متحركة ليتمكن الابتداء بها ، فقال هـ و لا ي .
انظر : سر صناعة الاعراب ٤٨ - ٥٠ .

وذكر أحد المدارسيين المحدثين أن الألف كان يطلق على صوت
الهمزة فى فترة مبكرة ، وثم وضع للهمزة علامة مستقلة ، استغنى الألف
اسما ورمزا للدلالة عليه باعتباره مدا ، ثم وصلوا صورة الألف باللام
حتى يمكن الابتداء بها . راجع : د . كمال بشر : دراسات فى علم
اللغة ١٠٠ ، ١٠١ ط دار المعارف ١٩٧٣ م .

(٣٦) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣/٤٢٣ .

ثم يقولون :

« وكانت صناعة الكتابة في اللغة العربية خاتمة الكتابات وتمام. عدد الحروف ، كما أن شريعة الاسلام آخر الشرائع كلها ، ومحمد ﷺ خاتم النبيين وأصحاب الشرائع ، وعلى شريعته تقوم القيمة » (٣٧) .

وقد سبق أن نقلنا عنهم — في أثناء الحديث عن مكانة العربية — قولهم :

« فاللغة العربية في اللغات مثل صورة الانسان في الحيوان ، ولما كان خروج صورة الانسان آخر صور الحيوانات ، كذلك كانت اللغة العربية تمام اللغة الانسانية وختام صناعة الكتابة ، ولم يحدث بعدها شيء ينسخها ولا يغيرها ولا يزيد عليها ولا ينقصها »

وقد رأى الاخوان أن الألفبائية العربية تستوعب كل اللفبائيات اللغات المختلفة حين قالوا :

« وفي كل أمة وكل إقليم وجزيرة وموضع أهل خط وحروف وكتابات وعلامات ، يجمعها كلها هذه الثمانية والعشرون حرفا . ولولا خوف الاطالة لأتينا على ذكر كثير من اللغات وكتابات أهلها وأعداد حروفهم ، مثل ما يوجد في اللغة السريانية والعبرانية واليونانية والرومية ، وما يتفرع عنها في سائر الأجناس والأمم من بني آدم » (٣٨) .

كما رأى الاخوان أيضا أن الألفبائية العربية مشتملة على كل الأتسياء حين قالوا :

« اعلم أن الحكيم واصح الخط العربى اقتضى فيما وضعه من ذلك آثار حكمة الله تعالى وكان حكيما فاضلا • وقيل ان الحكمة هي التشبه بالإلاه بحسب طاقة البشر ، ومعنى هذه الحكمة أن يكون الرجل حكيما في مصنوعاته ، متحققا في معلوماته ، خبيرا في أفعاله • فوضع ذلك على موجب الحكمة في العالم لتكون حروف (أ ب ت ث) وهى حروف الجمل مشتملة على كل الأشياء ، مطابقة للأعداد الموجودات في الأصل وما تتفرع منه ويحدث عنه مما لا يحصى ذلك الا الله تعالى » (٣٩) •

وعندما ننظر في تصور الاخوان للألفبائية وعددها فتسائل : هل الألفبائية العربية ثمانية وعشرون حرفا ؟ وهل الألفبائيات اللغات الأخرى لا تزيد على هذا العدد ؟ وهل الألفبائية العربية مستوعبة الألفبائيات الأخرى ؟

لقد سبق أن ذكرنا أن عدد الأصوات الأصول في العربية أربعة ، وثلاثين صوتا ، وأن كل صوت من هذه الأصوات يقابله رمز كتابى (مع ملاحظة أن رمزى الواو والياء يدلان على الصائتين والصائتين) ، وأن الألفبائية العربية لم تتضمن رموز الحركات القصيرة التى وضعها الدؤلى ثم الخليل • • ولما كانت تلك الألفبائية متضمنة رمز الألف الطويلة فإن جمهور علماء العربية أرجع عدد الرموز الى تسعة وعشرين رمزا أو حرفا هجائيا ، أولها الألف (الهمزة) وآخرها ألف اء ثم الياء •

ولكن اخوان الصفا أرجعوا عدد الأصوات ورموزها الى ثمان وعشرين ، على الرغم من أنهم ذكروا ألف اء « لا » فى الترتيب السالف

(٣٩) انظر : المرجع السابق ج ٣ / ١٤٣ •

(١٦ - اخوان الصفا)

المذكر ، وبهذا التزم يصير عدد الرموز تسعة وعشرين رمزا كما ذكر علماء العربية .

والذي أوقع الاخوان هيمما وقعوا فيه محاولتهم التوفيق المتكلف بين العدد « ثمان وعشرين » وبين منازل القمر وأعضاء جسم الانسان وما شاكل ذلك من فلسفة أصبغوا بها هذا العدد كما سبق مفصلا في الفصل الثالث .

وأما كون الألفبائيات الأخرى لا تزيد على هذا العدد ففيه نظر ، فبينما نرى الاخوان يؤكدون هذا كما سبق ، نراهم أيضا يقولون عن حروف اللغات الأخرى « وانما في سائر اللغات فربما تزيد وتنقص » (٤٠) . وهذا لا ينقص من شأن الألفبائية العربية ، ولا من تمثيلها أصواتها أمثل تصديق ، ولا يطعن في اعتبارها أتم وأكمل الألفبائيات . ويمكن حمل تلك الزيادة على الأصوات الفرعية لا الأصلية .

ولذلك نرى ابن قتيبة — الذي يرى أيضا أن عدد الألفبائية للعربية ثمان وعشرون (٤١) — يقول .

(٤٠) انظر : المرجع السابق ج ١/٣٩٣ .

(٤١) أرجع علماء الخرون أيضا عدد حروف العربية الى ثمانية وعشرين حرفا مثل الرازي (ت ٦٣١ هـ) .

انظر الحروف : ٦٤ ، ومن قبله أيضا المبرد ، حيث جعل الباء أول الحروف ، وترك الالف (الهمزة) ، لانها همزة ولا تثبت على صورة واحدة ، وليس لها صورة مستقرة فلم يعتد بها مع الحروف التي أشكلها محفوظة معروفة . انظر : المقطضب ج ١/٣٢٨ تحقيق : عبد الخالق عضيمة . المجلس الاعلى للدراسات الإسلامية ١٣٩٩ هـ . وابن جنى : سر صناعة الاعراب ٤٦ .

٢٤٣

« وألفاظ جميع الأمم قاصرة عن ثمانية وعشرين ، ولست واجدا في كلامهم حرفا ليس في حروفنا معدولا ، عن مخرجة شيئا » (٤٢) •

وقد رأى الاخوان — كما سبق — اشتغال الألفبائية العربية على الألفبائيات السريانية ، والعبرانية واليونانية والرومية ، ولكنهم لم يفصلوا القول فيها وفي غيرها من اللغات الأخرى خوف الاطالة •

وعند مقارنة العربية باللغات الأخرى يتبين صديق علماء العربية فيهما قالوا ، سواء أكانوا اخوان الصفا أم ابن قتيبة أم غيرها •

بين الألفبائية العربية وغيرها :

وقد عورنت الألفبائية العربية بالألفبائيات كثير من اللغات ، وقد أكدت النتائج ببعيدا عن المفاخر القومية والنخوة العصبية — كمالاً تلك الألفبائية واستيعابها كثيرا من الألفبائيات الأخرى •

ومن تلك المقارنات ما قام به كل من الأستاذ العقاد — رحمه الله — والدكتور / محمد حسن جبل ، حفظه الله • واليك ملخصاً لأهم ما استخلصناه :

يرى العقاد أن الأبجدية الروسية أنقص حروفاً من الأبجدية العربية ، على خلاف ما كان يعرف ، وإن زادت علامات الأحرف بها عن علامات الأحرف عندنا ، وقد أرجع النقص الى عدة أمور ، منها (٤٣) :

(٤٢) انظر : تأويل مشكل القرآن ١٤ •

(٤٣) انظر : الأبجدية العربية آكل ، الأبجديات ٣٩٢ — ٣٩٣ •

مقال بمجلة الاذهر (ج ٤) السنة الرابعة والثلاثون • جمادى الآخرة

١٣٨٢ هـ / نوفمبر ١٩٦٢ م •

١ — عدم اشتغال الأبجدية الروسية على حروف تمثل أصوات النحاء والذال والصاد والضاد والطاء والظاء • ويعوضونها إذا كتبوا الأسماء العربية بوضع نقط تحت الحرف التي تؤدي عندهم أصوات الخاء والزاي والسين والذال والتاء •

٢ — كتابة حرفين متلاصقين لأداء المضارج الصوتية الملتبسة مع بعض •

٣ — تكرار علامات حروف المد لتؤدي حركات الألف والواو والياء عندنا ، وهي مصوتة أو صامتة يتغير نطقها بتغير حركات الضم والفتح والكسر أو السكون عليها •

٤ — تمثيل بعض الحروف أصواتا ملتبسة بين مخرجين ، ولا تمثل حرفا خالصا من مخرج واحد • وهذه الحروف — كلما قال رحمه الله — ليست بالناقصة في اللغة العربية ، ولكنها موجودة في لهجات القبائل وعايها زيادة من قبيلها ، وهي جميعا تدل على طور من أطوار النطق تخطئه العرب في سبيل سلامة النطق التي انتهت اليها قبائلهم الفصحى ، وخلص فيها النطق السليم من لبس المضارج والبس الحروف ، فلا يسيغون حرفا واحدا يختلط فيه مخرجان ، ولا يستسيغون مخرجا واحدا فيتعثر فيه اللسان بين حرفين ، ولا يقيمون في إهمال المضارج الصوتية المهمة التي يستقيم بها نطق الإنسان ، وأهمها مخرج الحروف الحاقية التي تلتبس الحروف عند الأمم غير العربية لإهماله في تقسيم حروف الكلمات •

وقد أحال — رحمه الله — القارئ إلى كتب النحو والصرف والقراءات ليوقف على الحروف الكثيرة التي تبلغ بها الأبجدية العربية فوق الأربعين لو أضيفت إليها •

ثم يذكر القارىء ببعض تلك الحروف الفرعية كحرف الياء التقريرية من الجيم في بعض لهجات قضاة ، والكاف القرية من الشين في بعض لهجات ربيعة ، والباء القرية من الميم في بعض لهجات مازن ، والكاف القرية من الجيم القاهرية في بعض لهجات اليمن ، وحرف بين الصاد والسين ، وحرف بين الطاء والتاء ، وحرف بين الظاء والثاء ، وحرف بين الباء والفاء ، وحرف بين الشين والجيم في بعض لهجات قميس وبنى أسد ، وبعض لهجات المتحدثين من تتحرف أسفتهم عن النطق السوى المتفق عليه بين قبائلهم التى اصطلحت على النطق الفصيح .

وقد انتهى رحمه الله الى نتيجة مهمة تتضح فى قوله :

« وقوام النطق الانسانى الفصيح أن فيه جميع مخارج الأصوات، وأن تخلص فيه مواقع الحروف بغير لبس ولا اختلاط ، وهذه هى مزية الأبجدية العربية التى يحق لنا من أجلها أن نحسبها أكمل الأبجديات » .

وقد استشهد لذلك بالشواهد العضوية الحيوية أو الشواهد البيولوجية الفزيولوجية — على حد تعبيره — لأن جهاز النطق الانسانى وتوزيع مخارج النطق عليه حقيقة من حقائق العلم والحياة لا تزيد عليها ولا تنقص منها مناخر الأجناس والأنساب ولا دعاوى اللغات واللغويين .

وقد أرجع استيفاء النطق بمخارج الحروف الحلقية الى مزية جوية فى الجزيرة ، تاريخية فى أهلها ، لأن مناخ الجزيرة لا يحول دون استخدام الحلق فى الكلام ، واستغال أهلها برعى الابل والشاة

٢٤٦

يعودهم سماع الأصوات التى تقارب حروف القاف والعين.
والخاء (٤٤) •

ثم نراه يعتد برسم الكتابة العربية ويجعله أساس كل تنقيح أو
توسيع نحتاج اليه ، ويقول :

« ان هذا الرسم نمط رفيع بين الأبجديات فى لغات الأمم التى.
لم تسلم بعد من العجمة أو اللكنة ، ولم تخلص فى تجربة المخارج
الصوتية من الاهمال والاختلاط الى فصاحة النطق السليم » (٤٥) •

« ونراه يؤكد — فى أبحاثه المختلفة (٤٦) — كمال الإبجدية العربية
على النحو السالف الذكر، وأنها أوفر عددا فى أصوات المخارج ولا تتكرر
بمجرد الضغط على المخرج الواحد كما يحدث فى الباء الخفيفة والباء
الثقيلة ، أو كما يحدث فى الفاء ذات النقطة الواحدة والفاء ذات النقط
الثلاث ، أو كما يحدث فى الجيم المعطشة وغيرها • كما يؤكد أن
العربية تمتاز بحروف لا توجد فى اللغات الأخرى كالضاد والطاء
والعين والقاف والحاء والطاء ، أو توجد فى غيرها ولكنها ملتبسة
مترددة لا تضبط بعلامة واحدة •

كلما يؤكد أيضا أن الزيادة فى حروف بعض الأبجديات الأخرى فى
اللغات الهندية الجرمانية، أو الطورانية، أو السامية، لا تبلغ مبلغ العربية
فى الوفاء بالمخارج الصوتية على تقديراتها الموسيقية ، لأن كثيرا من

(٤٥، ٤٤) انظر : المرجع السابق ٣٩٤ •

(٤٦) انظر : اللغة الشاعرة : ١٢ - ١٥ • مكتبة غريب •

١٩٧٧ م ، أشنت مجتمعات فى اللغة والادب ٥ - ١٣ ٢١ - ٢٨ ، ١٢
- ١١٨ - المطبعة الخامسة • دار المعارف ١٩٨٢ م : اللغة العربية بين لغات
الحضارة العصرية ١٠٥٦ - ١٠٥٩ • مقال بمجلة الأزهر ج ١٠ المجلد
(٣٢) شوال ١٣٨٠ هـ / مارس ١٩٦١ م

هذه الحروف الزائدة إنما هو حركات مختلفة لحرف واحد ، أو هو حرف واحد من مخرج صوتي واحد تتغير قوة الضغط عليه كما تتغير قوة الضغط في الآلات دون أن يسترعى ذلك افتدانا في تخريج الصوت الناطق من الأجهزة الصوتية في الإنسان .

كما يؤكد أنه لم يحدث لأبجدية أخرى غير الأبجدية العربية أنها جربت زمنا طويلا في كتابة اللغات من كل أسرة لسانية ، فلم تقصر في هذه التجربة عن شأو الأبجديات الأخرى ، اذ كتبت بها العربية والفارسية والتركية والأردية والاسبانية ، وهي تنتمي إلى الأصول السامية والطورانية والهندية الجرمانية ، وقد وجد فيها الكاتبون ما ينوب عن الحروف المتبسة ، ولم يوجد في الأبجديات المختلفة ما ينوب عن حروف العربية الصريحة في مخارجها بلما استوفته من جهاز النطق الانساني في كل آلة من آلاته .

* * *

أما الدراسة الأخرى التي قام بها أستاذنا الدكتور محمد حسن جبك فتؤكد ما انتهى إليه أستاذنا أعتقد .

فالعبرية ثلاثة وعشرون صوتا ، منها ستة أحرف لها بدائل تعوض نقصها ، فقد تنطق الباء فاء ، والجيم غينا ، والداال ذالا ، والكاف خاء ، والباء هاء ، والتاء ثاء . وفيها أيضا ثمانى حركات بعضها صور أدائية ، في العربية أمثالها وللفارسية الحديثة - بعد التأمل - ثلاثة وعشرون صوتا صامتا . وإذا كان لها عشر حركات فإن كثيرا منها صور أدائية بشروط خاصة بها ، في العربية نظائر تفوقها عددا .

ولكل من اليونانية واللاتينية أربعة وعشرون صوتا .

ولكل من الانجليزية والفرنسية تسبعة وعشرون صوتا .

وقد ذكر أن القيمة الأساسية في كثرة أصوات الأبجدية وتغطيتها لكل المادج الصوتية في الجهاز الصوتي الانساني هي زيادة بناء الكلمات الجديدة في تلك اللغة ، كما أن غزارة الثروة اللفظية المستعملة للغة هي مؤشر أكيد على غزارة فكر الأمة وتتساونه لكل المجالات التي يطرقتها الفكر (٤٧) •

وهذا يتمم من خلال ما ذكره اخوان الصفا ، وأكدت الدراسات المقارنة الحديثة أن العربية أثري اللغات بالأصوات ، وأن أبجديتها أكمل الأبجديات •

(٤٧) راجع : د. محمد حسن جبل : أصوات اللغة العربية : دراسة نظرية وتطبيقية ٦٠ - ٦٩ •
(طباعة أوفست بطنطا) •

الفصل الرابع

الخط العربى

لقد سبق أن عرفنا — فى فصل نشأة اللغة — تصور اخوان الصفا لظهور الكتابة ، والوقت الذى ظهرت فيه ، وعوامل ظهورها ، وهل هى توفيق من الله ، أم صناعة مدنية يفرضها اجتماع الناس وتمدينهم ، كما عرفنا أصل صورة الخطوط الكتابية بأجمعها ، ومعيار جودة الخط فى أى لغة كانت ، وأهمية الخط والكتابة فى حياة اللغة ونهضتها ، وفى حياة الناطقين بها •

ونتحدث هنا عن الخط العربى ونبين ما ذكره الاخوان بصده •
والحق أن الخط العربى صار علما ، ويستعمل على موضوعات متعددة ، منها اشتقاقه ومصدره ، وأصل صورته ، وأنواعه ، والمواد المستخدمة فيه ، وانتشاره وتطوره ، ومعايير جودته ، ومراكز تجويده ، وأشهر المدارس المجودة ، ومنهجها ، الى غير ذلك مما يثار فى هذا العلم •

ونجد اخوان الصفا يتحدثون عن اشتقاقه ومصدره ، وأصل صورته واستيعابها صور الكتابة بعامة ، ومعايير جودته ، وأسباب الخروج عن تلك المعايير ، ودوافع تجويده •

ونلقى — فيما يلى — الضوء على هذه النقاط :

(١) مصادر الخط العربى :

لقد صنع الاخوان لأنفسهم وتابعيهم لغة فيما بينهم لا يشاركون فيها سواهم ، ووضعوا بصدد ذاك علامات ورموز كتابية ، تستر ما

يريدون توضيحه ، وينتلق معناها على غيرهم ، هي ما يعرف الآن بلغة « الشفرة » ، حيث استبدلوا الحروف العربية بأشعارات غريبة لا يعرف ما يعادلها الا الذين وقفوا على صحيفة تلك الرموز ، وقد استخدموا لغة « الشفرة » هذه في بعض مقاطع رسالتهم الجامعة (١) ، كما أوردوا مفتاح هذه اللغة في الرسالة نفسها (٢) .

وفي هذا السياق تحدثوا عن مصدر الخط العربي واشتقاقه ، ورأوا أنه مأخوذ من الخط الحميري ، وأن الذي نقل شكله الى ما هو عليه الآن — كما يقولون — على بن أبي طالب (عليه السلام) ، اذ يقولون :

« وكان اناس قبل مجيء النبي ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم يكتبون كتبهم ومراسلاتهم بالخط الحميري ، فنقل شكل الحروف الى ما هي عليه الآن على بن أبي طالب عليه السلام ، وشكلها بهذا الشكل لاعلم الذي دفعه تحته ، عرفه وقد كتبوا شكل الخط الحميري — بازاء شكل الخط العربي المعروف — معللين لذلك بقولهم «لتعرف كيفيته» ولا تكون جاهلا به ، وليقع أيضا تحت حسك البصري » (٣) .

وهذه صورة الخط الحميري كما كتبوا (٤) :

٢	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠	٣١	٣٢	٣٣	٣٤	٣٥	٣٦	٣٧	٣٨	٣٩	٤٠	٤١	٤٢	٤٣	٤٤	٤٥	٤٦	٤٧	٤٨	٤٩	٥٠	٥١	٥٢	٥٣	٥٤	٥٥	٥٦	٥٧	٥٨	٥٩	٦٠	٦١	٦٢	٦٣	٦٤	٦٥	٦٦	٦٧	٦٨	٦٩	٧٠	٧١	٧٢	٧٣	٧٤	٧٥	٧٦	٧٧	٧٨	٧٩	٨٠	٨١	٨٢	٨٣	٨٤	٨٥	٨٦	٨٧	٨٨	٨٩	٩٠	٩١	٩٢	٩٣	٩٤	٩٥	٩٦	٩٧	٩٨	٩٩	١٠٠
---	---	---	---	---	---	---	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	-----

(١) انظر : الرسالة الجامعة : ج ١ / ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٨ .

٥٢٩ ، ٥٣١ ، ٥٣٣ .

(٢) انظر : المرجع السابق ج ١ / ٥٢٣ .

(٣) انظر : المرجع السابق ج ١ / ٥٢٤ .

ثم قالوا : « ولهذه الصورة المركبة على هذا المثال من الحروف أسماء آخر تظهر بلغة أخرى اذا تشكل الفلك في وقت القرآن الموجب لتغير الأشياء عما هي به الى النوع الذي يوجبه تكون مثل هذا فأعرفه لن شاء الله » (٥) •

هذا هو تصور اخوان الصفا لمصدر الخط العربى •

والحق أنه لم يتفق المؤرخون لمصدر الخط العربى على كلمة واحدة ، ومن ثم تعددت النظريات واختلفت :

فكثير من أصحاب المصادر العربية القديمة يرون أن الخط العربى توفيق من الله ، علمه آدم عليه السلام — كما سبق في أثناء الحديث عن نشأة اللغة — ثم صار من نصيب اسماعيل عليه السلام بعد الغرق •

وقد انتقد هذا رأى ، لعدم قيامه على أساس من العلم أو سند من التاريخ الصحيح ، وقيل انه جاء تأييدا للنظرية التى تذهب الى أن اسماعيل أول من تكلم بالعربية (٦) •

وينقل القلقشندي عن السهيلي أن اسماعيل عليه السلام أول من كتب بالعربية (٧) •

كما يرى المؤرخين أن الأصل في الخط العربى الحجازى الذى نكتب به انما هو خط « القباصة » فى اليمن ، المشهور بالسند الحميرى ، وانتقل منها الى الحيرة ومنها لانه أهل الطائف وقريش بوساطة

(٥) انظر : المرجع السابق ج ١ / ٥٢٤ - ٥٢٥ •

(٦) انظر : ابراهيم جمعه : قصة الكتابة العربية ٧ الطبعة الرابعة • دار المعارف :

(٧) انظر : صبح الاعشى ج ٣ / ١٤ •

سفيان بن أمية ، أو حرب بن أمية ، ويرى أن مصر تعلمت الكتابة العربية من حمير (٨) .

وقد انتقد أيضا هذا الرأي حيث « نفت المقارنة التي عقدت بين النقوش الحميرية المكتشفة في اليمن والنقوش العربية الأولى وجود علاقة بين الاثنين » (٩) .

ومن اللغويين الذين أيدوا اشتقاق الخط العربي من المسند الحميري اليمني العلامة ابن جني (١٠) .

وكثير من العلماء يسلم بأن جميع الخطوط السامية ومنها العربية - أخذت من الخط الكنعاني (الفينيقي) ، بيد أن العربية أخذت بوساطة الأحكام النبطية ، وقد اشتق خط المسند اليمني - الذي يعد أقدم الخطوط العربية - من التنعاني عن طريق النبط (١١) .
وقريب من هذا الرأي ما ذكره بعض المحدلين اعتمادا على ما اكتشف من نقوش حديثة من ان عرب النبط (١٢) - بعد ان اغاروا

(٨) انظر : ابن خلدون : المقدمة ٤١٨ .

(٩) انظر : ابراهيم جمعة : قصة الكتابة العربية ١٠ .

(١٠) انظر : سر صناعة الاعراب ج ١ / ٤٥ .

(١١) انظر : د . عبد الغفار حامد خليل : أصوات اللغة العربية

٦٧ - ٦٨ ط ١٣٩٩ هـ .

(١٢) قيل انهم قبائل يمتون الى عرب الجنوب بصلة وثيقة ، وعرفوا نوعا من التحضر والاستقرار في المنطقة الممتدة من شمال الحجاز وخليج العقبة واقليم شرق الاردن حتى منطقة دمشق ، وقد عظم شأنهم وكونوا وحدات عربية سياسية أهمها الاباجرة في « أذاسا » ، والارزاس في « البتراء » و « تلمر » ، وعرفت مملكة هؤلاء الارزاس باسم مملكة النبط ، وبقيت عاصمتهم « البتراء » مزدهرة زهاء خمسة قرون حتى سقطت في عام (١٠٦) بعد الميلاد .

راجع ابراهيم جمعة : قصة الكتابة العربية ١٥ - ١٦ .

أول أمرهم على أقنليم آرامية — ابتدعوا لأنفسهم خطا اشتقوه من الخط الآرامي الذي كان يميل الى التريبيع ، ثم تخلص من صورته الآرامية الى صورة نبطية خالصة بميله الى الاستدارة ، وهي تلك الصورة التي اشتق منها العرب الشماليون خطهم ، ولازال الخط العربي متأثرا بتلك الصورة النبطية حتى استعاره العرب الحجازيون وحولوه من صورته النبطية الى صورته العربية المعروفة لنا الآن ، وذلك فيما بين القرن الثالث الميلادي ونهاية القرن السادس (١٣) .

وقد ضمن ابن النديم (ت: ٣٨٠ هـ) « الفهرست » صورة الخط الحميري (١٤) ، وقد قابلتها بالصورة السابقة التي زعم اخوان الصفا أنها صورة الخط الحميري فلم أجد شباها بينهما الا في نطاق محدود . كما قابلت الصورة التي ذكرها اخوان الصفا بصورة الخط الحميري الذي نقشه أحد المحدثين (١٥) فرأيت الشبه نطاقه محدود جدا .

كما قابلتها بصورة الحروف الفينيقية ، واليونانية القديمة التي نقشها هذا الباحث نفسه (١٦) ، فرأيت تلاقيا بينهما في ثلث الحروف تقريباً .

أما ادعاء اخوان الصفا بأن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه هو الذي ثقل شكل الحروف الى ما هي عليه الآن ، وسكها بهذا الشكل .

(١٣) انظر : المرجع السابق ١٦ - ٢٠ باختصار .

(١٤) انظر : الفهرست : ص ٩ نحفيق رضا تجدد ط طهران .

(١٥) انظر : جرجس زبدان : الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية .

١٧١ .

(١٦) انظر : المرجع السابق ١٦٨ .

للعلم الذى دافنه ، فهذا ادعاء مردود ، وليس له سند من العلم ، ويتناقض مع المتعارف عليه فى تاريخ الخط العربى وتطوره قبل وبعد ظهور الاسلام .

ولم أعر على ما يزيّد زعمهم الا ما قاله القلقسندى : أول من وضع النقط الدوّلّى من تلقين أمير المؤمنين على « (١٧) » .

ومن المعروف ان الأبجدية العربية احتفظت بترتيبيها السامى القديم وهو « أبجد هوز ... الخ » حتى عهد عبد الملك بن مروان حيث أمر الحجاج بن يوسف الثقفى - والى العراق حينئذ - اصبر بن علم الليثى (ت ٩٠ هـ) ، ويحيى بن يعمر العجوانى (ت قبل ٩٠ هـ) تلميذى أبى الأسود الدوّلّى (ت ٦٩ هـ) باصلاح الخط وتمييز الحروف والحركات ورتبها الحروف حسب صورتها المعروفة لنا الان (١٨) ، الى أن جاء الخليل بن أحمد (ت ١٧٠ هـ) فاستبدل النقط المدور الذى وضعه أبوا الأسود الدوّلّى بعلامات توضع فوق الحرف أو تحته فيما يعرف بالشكل المستطيل الذى نستعمله اليوم ، وكذا وضع رموز الهمز والتشديد والردم والأشمام (١٩) .

أما ارجاعهم أسماء الحروف وصدرها الى العامل الفلكى فهو زعم باطل كما سبق فى فصل تطور اللغة .

(١٧) انظر : صبح الاعش ج ٣ / ١٥٥ .

(١٨) انظر : د. عبد الغفار هلال : أصوات اللغة العربية ٦٩ .
د. عبد الحميد محمد أبو سكين : دراسات فى التجويد والأصوات اللغوية ١٢ .

(١٩) انظر : أبو بكر عبد الله بن أبى داود السجستانى (ت ٣١٦ هـ) : كتاب المصاحف ١٤٤ ط دار الكتب المصرية ، والدائم (ت ٤٢٤ هـ) : كتاب النقط (فى ذيل كتابه المنع فى رسم مصاحف المصاحف)
المصاحف ص ١٢٩ تحقيق محمد الصادق قسحاوى ١٩٧٨ .

(ب) صورة الخط العربي .

يرى اخوان الصفا ان لكل لغة حروف وكتابة وصناعة تجتمع عليها حروفها ، ولكن اصل تلك الحروف كلها — عربية أو غيرها — هو الخط المستقيم الذى هو قطر الدائرة ، والخط المقوس الذى هو محيطها ، وسائر الحروف مرجبة بينهما * اذ يقولون :

« والسريرية لغة ولها حروف وكتابة وصناعة ونسبة تجتمع عليها الحروف أولها أسماء تختص بها موافقة للغتهم وهكذا أيضا للرومية لغة وكتابة أخرى بشكل موافق لكتابهم ولسانهم ، وهكذا لليونانيين ولأهل فارس وغيرهم من الأمم أجناس من اللغات وفنون من العبارات . ولكن أصل الحروف كلها فى أى لغة كانت وبأى نقش صورت وإن كثرت وتنوعت هو الخط المستقيم الذى هو قطر الدائرة ، والخط المقوس الذى هو محيط الدائرة كما ذكرنا قبل . وأما سائر الحروف فمركبة منهما ، ولو تأملت عند انفكاك الحروف العربية وجدت بعضها خطا مستقيما كالآلف ، وبعضها مدورا كالقاف والميم ، وبعضها مقوسا كالحاء والخاء ، وعلى هذا المثال توجد كتابات سائر الأمم الذين ذكرناهم وغيرهم ممن لم نذكرهم ، وقد استغنينا بذكر الأصل والمشهور المعروف عند الجمهور عن ذكر من سواهم لطول الشرح » (٢٠) *

ونراهم يؤكدون هذا فى أكثر من موضع ، فمثلا نراهم يذكرون أصل حروف الكتابات كلها فى أى لغة وضعت على النحو السابق ، ثم يمثلون لما يذكرون من حروف الكتابة العربية ، فيرسمون صور حروف الآلفبائية ثم يقولون :

« فانظر الآن واعتبر وتأمل يا أخى ، أيدك الله وإيانا بروح منه ،

(٢٠) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١٤٩/٣ وراجع ج ١٤٤/٣ .

فانك تجد هذه الحروف بعضها خطأ مستقيماً مثل هذا : أ ب ت ث ،
وبعضها مقوساً مثل هذا : د ذ ر ز ، وبعضها مركباً منهما مثل سائر
الحروف ، وعلى هذا المثال والقياس توجد حروف كتابات سائر الأمم
مثل الهندية فانها هكذا ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ، وكذلك السريانية ،
والعبرانية ، واليونانية والرومية ، فان لكل منها اصطلاحاً في أشكال
الحروف وصورها لا يخرج عما قلنا » (٢١) .

وقد سبق أن قلنا — في فصل نشأة اللغة — ان الاخوان عقدوا
فصلاً لآلواع الخط ، وصورة كل نوع ، ورسوموا صورة الخط المستقيم
هكذا : — ، وصورة المقوس هكذا : () ، وصورة المنحنى المركب من
المستقيم والمقوس هكذا : — ∩ — .

وقد سبق أن قلنا في نفس الفصل أن الاخوان يربطون بين
أصول الخطوط وصورها وبين عالم الكواكب . فاذا كان أصل الخطوط
كلها الخط المستقيم الذي هو قطر الدائرة ، والخط المقوس الذي هو
محيطها فان هذا موافق لما في العالم العلوى من العقل والنفس ، ومن
بينهما كان حدوث الأشياء كلها في العالم السفلى مثل آدم وحواء اللذين
من بينهما كان العالم . كما رأوا أن الحيوانات كلها وأشكال النبات
لا تخرج عن هذا الحد والشكل ، وصورة الانسان تشبه الخط المستقيم
وهى موافقة لصور العالم العلوى . وصورة الحيوانات وصور العالم
السفلى بعامة تشبه الخط المقوس المعوج .

وهذا التصور نابع — كما مر في فصل التطور اللغوى من الباب
الأول — من اعتقاد الاخوان في الأفلاك ، وإيمانهم بتأثيرها ، في كل
الكائنات فيما دون القمر . وقد عرفنا هناك بطلان هذا الاعتقاد .

١ ج) معايير جودة الخط :

لقد رأى اخوان الصفا أن أجود الخطوط وأصح الكتابات ، وأحسن المؤلفات ما كان مقادير حروفها بعضها من بعض على النسبة الأفضل ، وما توجبه قوانين الهندسة • وقد نقلوا عن أهل صناعة الكتابة القواعد والأصول التي ينبغي أن تراعى في الخطوط ، اد . يقولون :

« قال المحرر الحاذق المهندس : " ينبغي أن يريد أن يكون خطه جيداً وكتابته صحيحة أن يجعل لها أصلاً ويبنى عليه حروفه ، وقائونداً يقيس عليه خطوطه ، والمثال في ذلك في كتابة العربية هو :
أن يخط الألف أولاً بأى قدر شاء ، ويجعل غلظه مناسباً لطوله ، وهو الثمن ، وأسفله أدق من أعلاه •

ثم يجعل الألف قطر الدائرة ، ثم يبنى سائر الحروف مناسبة لطول الألف لمحيط الدائرة التي الألف مساو لقطرها •

وهو أن يجعل الباء والتاء والشاء كل واحد منها طوله مساو لطول الألف ، وتكون رؤوسها الى فوق الثمن مثل هذا : ا ب ت ث •

ثم يجعل الجيم والحاء والخاء كل واحد منها مدته من فوقه نصف الألف وتقويسه الى أسفل نصف محيط الدائرة التي الألف مساو لقطرها مثل هذا : ج ح خ •

ثم يجعل الدال والذال كل واحد منهما مثل طول الألف اذا قوس مثل هذا : د ذ •

ثم يجعل الراء والزاي كل واحد منهما كمثل ربع محيط الدائرة التي الألف قطرها •

ثم يجعل السين والشين كل واحد منهما رؤوسهما الى فوق
ثمن الألف ، ومدتها الى أسفل نصف محيط الدائرة مثل هذا : س ش •

ثم يجعل الصاد والضاد مدة طول كل واحد منهما الى قدام مثل
طول الألف ، وفتحتها مثل ثمن الألف ، ومدتها الى أسفل مثل نصف
الدائرة المقدم ذكرها مثل هذا : ص ض •

ويجعل الطاء والظاء كل واحد منهما طوله مثل طول الألف ،
وفتحتهما مثل ثمن الألف ورؤوسها الى فوق بطول الألف مثل : ط ظ •

ثم يجعل العين والغين كل واحد منهما تقويسه من فوق ربع
محيط تلك الدائرة وتقويسه من أسفل نصف محيطها ، مثل هذا : ع غ •

ثم يجعل مدة الفاء الى قدام مثل طول الألف ، وفتحته ثمن
الألف ، وحلقته وحلقة القاف والواو والميم والهاء كلها متساوية مثل
ثلث الألف اذا دور مثل هذا : ف ق و م ه •

ويجعل مدة القاف الى أسفل مثل نصف محيط الدائرة مثل هذا : ق

ثم يجعل مدة الكاف الى قدام مثل طول الألف وفتحته مثل ثمن
الألف وكسرتة الى فوق ربع الألف مثل هذا : ك •

ثم يجعل طول اللام مثل الألف ، ومدته الى قدام نصف الألف
مثل هذا : ل •

ثم يجعل مدة الميم والواو كل واحد منهما الى أسفل مثل
تقويس الراء والزاي مثل هذا : م و •

ثم يجعل تقويس النون مثل نصف محيط تلك الدائرة المتين الألف
مساو لقطرها مثل هذا : ن •

ثم يجعل الياء مثل الدال ، ومدته الى خلف مثل طول الألف أو
تقوييسه الى أسفل مثل نصف محيط الدائرة مثل هذا : ي (٢٢) •

ويحدثنا الذين أرخوا للخط العربى وتطوره أن تلك المرحلة التى
حدثنا عنها اخوان الصفا ظهرت فى أواخر القرن الثالث الهجرى فى
العصر العباسى على يد الوزير : « أبو على محمد بن مقله » (٢٣) ،
٢٧٢ - ٣٢٨ هـ / ٨٨٥ - ٩٠٨ م « حيث ينسب اليه هندسة الحروف
وضبطها على النسبة الفاضلة ، ان زادت عنها قيحت ، وان قصر دونها
سمج ، وكان ذلك فى الحراق على رأس الثمانئة (٢٤) •

ولابن مقله رسالة فى علم الخط والقلم بـخط يده حبيسه دار
الكتب المصرية (٢٥) ، وتحتوى على القوانين والقواعد فى رسم
الحروف العربية ، معتمدا على منهج قطر الدائرة التى تبنى عليها جميع
أقواس الحروف الأبجدية المفردة ، واعتبر الألف (قطر الدائرة) هو
الأساس الهندسى لضبط الحروف ، على النحو الذى سجله الاخوان
كما سبق •

(٢٢) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١ / ٢٢٠ -
٢٢١ ، ج ٣ / ١٤٦ - ١٤٧ •

(٢٣) استوزره الخليفة العباس : أبو الفضل جعفر المقتدر بالله
(٢٧٩ هـ) ثم استوزره الخليفة أبو منصور محمد القاهر بالله (٣٢٠
هـ) ، وقطع يده الخليفة أبو العباس أحمد الرضى بالله (٣٢٢ هـ)
وحبسه بداره بعد أن وصى به الواثقون ، ثم مات فى حبسه مقتولا •

انظر : محمود حلمى . الخط العربى بين الفن والتاريخ ١٨٠ -
١٨١ مجلة عالم الفكر المجلد (١٣) ، العدد (٤) ، ١٩٨٣ م •

(٢٤) انظر : القامشندى : صبيح الأعشى ج ٣ / ١١ •

(٢٥) انظرها : برقم ١٤ / صناعة فى (٢٣) ورقة ، وبرقم ١٨ /
تعلم تيمور فى (٧) صفحات •

وقد اعتمد كثيرا عليه وعلى اخوان الصفا المؤرخ المصرى أبى العباس أحمد بن على القلقشندى (٨٢١ هـ / ١٤١٨ هـ) فى كتابته مادته عن الخط العربى فى موسوعته العلمية التاريخية « صبح الأعشى » (٢٦) •

وإذا كان ابن مقلة هو أول من كتب الخط البديع الذى تطور بعد ذلك الى خط النسخ فله أيضا ستة أفلام هى : الجليل ، وخط الثلث ، والثلث الخفيف ، وقلم التوقيعات ، وقلم الرقاع ، وقلم الغبار •

وكانت مكانته بين معاصريه أستاذًا ومقننا فنون الخطوط العربية وموضع تقدير ، وقد سؤل عن خطه أبو حيان التوحيدي فقال : « ذلك نبي فيه أفرغ الخط فى يده ، كما أوحى الى النحل فى تدسيس بيوته » (٢٧) •

ومما يذكر أن لابن مقلة أخا أجاد نوعا من الخط المجود عرفه « بالنسخ » (٢٨) •

وتذكر المصادر المؤرخة للخط العربى أن جودة الخط التى انتهت الى الوزير ابن مقلة كانت قد بدأت قبل ذلك فى مراكز متعددة: فى الحجاز فى عصر النبوة ، ثم فى الكوفة عندما اتخذت مقرا للخلافة أيام سيدنا على بن أبى طالب ، واليهما فينسب خط معروف جاف ذو زوايا كتبت به المصاحف الأولى ، بجانب خط آخر لين ، حونت به

(٢٦) انظره : ج ٢٧ / ٥٠ •

(٢٧) انظر : محمود حلمى : الخط العربى بين الفن والتاريخ ١٨١ •

(٢٨) انظر : ابراهيم جمعة : قصة الكتابة العربية ٥٩ - ٦٠ الطبعة الرابعة • دار المعارف ١٩٨٤ م •

«الدراوين» وكتبت به المراسلات ، وكانت تنافس به الكوفة خط البصرة في تلك الفترة الزمنية التي احتدم فيها الجدل بين الكوفيين والبصريين .

ويانتقال الخلافة من الكوفة الى دمشق وقيام الدولة الأموية (٤١ - ١٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٥٠ م) عنى الأمويين بالخط ، واشتهر من مجوديههم « قطبة المحرر » ، الذي يعد أول من كتب في أيام بني أمية كما يقول ابن النديم (٢٩) . وينسب الى قطبة أربعة أقلام جديدة تبعد عن صورة الكوفي .

ثم ما ان أتى بنو العباس بخلافتهم العباسية حتى بدأت باكورة مرحلة هندسة الحروف العربية وتجويدها بظهور خطاطين شاميين أصلهما من دمشق الأموية : أولهما : الضحاك في عهد « أبي العباس عبد الله السفاح » ، وثانيها : اسحاق بن حماد في عهد « أبي جعفر المنصور » و « أبي عبد الله محمد المهدي » . ومن بعدهما ظهر ابراهيم السجزي (ت ٢١٠ هـ) ، تلميذ اسحاق ، وأخذ عنه قلمه الجليل ، واستتب من خطين جديدين متجانسين وهما : الثلث والثلثان . وكان للسجزي أخ يدعى يوسف الذي أبدع خطا جديدا عرف بخط التوقيع ويسمى بالقلم الرياسي ، وقد أعطانا القلقشندي نماذج من حروفه في كتابه .

وهكذا نرى أن جودة الخط وهندسته التي انتهت الى ابن مقلة كان لها جذور راسخة وسمتدة في ديار الاسلام عبر القرون الأولى .

وقد أخذ هندسة الخط عن ابن مقلة خطاطان يدعى أولهما محمد بن السمسمازي (٤١٥ هـ) وثانيهما محمد بن أسد البزاز البغدادى (ت ٤١٦ هـ) ، ومن بعدهما ظهر مجود عظيم عرف « بابن البواب »

وهو أبو الحسن علاء الدين علي بن هلال (ت ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م) الذي أكمل قواعد الخط وتممها وأسبغ عليه كثيرا من مظاهر الجمال دون إخلال بأصوله الهندسية والرياضية ، واخترع غالب الأقسام التي أسسها ابن مقلة (٣٠٠) . ثم تنوّل خط ابن البراب إلى ورثه ثلثه الثلاثة الكبار في العصر العباسي : ياقوت بن عبد الله الموصع المعروف بالمستعصي والبروحى (ت ٦٩٩ هـ - ١٢٩٩ م) ، والملقب بقبلة الكتاب .

وبعد سقوط بغداد في يد المغول (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) تحولت مسيرة تجويد فنون الخط إلى مصر المملوكية ، حين هب الخطاطون المصريون للحفاظ على هذا الفن الذي يعتبر أقدس الفنون الذي كتب به كلم الله المقدس ، والذي يعد أحد المظاهر الحقيقية للحضارة الإسلامية . ولذلك يقول ابن خلدون - الذي يربط بين جودة الخط وبين اجتماع الناس وكثرة العمران :

« لما انحلت نظام الدولة الإسلامية وتناقصت تنافس ذلك أجمع ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة ، فانتقل شأنها من الخط والكتابة ، بل والعلم ، إلى مصر والقاهرة ، فلم تنزل أسواقه بها نافقة لهذا العهد ، وله بها معلمون يرسمون اتعليم الحروف بقوانين في وضعها وأشكالها متعارفة بينهم ، فلا يلبث المتعلم أن يحكم أشكال تلك الحروف على تلك الأوضاع ، وقد لفتها حسنا وحذق فيها دربة وكتبا ، وأخذها قوانين علمية فتجىء أحسن ما يكون » (٣١) .

وكانت لدرسة الخطوط المجودة المصرية مكانتها قبل ذلك أيام

(٣٠) النظر : القلقشنلى : صبح الاعشى ج ٣ / ١٧ - ١٨ .

(٣١) انظر : المقدمة ٤٢٠ .

الطولونيين والأخشيديين في العصر العباسي ، ابلان الدولة الفاطمية
(٢٩٧ - ٥٦٧ / ٩١٠ - ١١٧١ م) ، والدولة الأيوبية (٥٦٩ - ٦٥٠ هـ /
١١٧٤ - ١٢٥٢ م) .

واستمرت تلك المدرسة تؤدي دورها بجانب ما أبدعته واستحدثته
المدارس السلجوقية الأتابكية ، والتركية العثمانية ، والفارسية (٣٣) .

(د) أسباب الخروج عن معايير الخط :

لقد رأى الاخوان أن الناس قد يخرجون عن القوانين الهندسية
للخط ، ونسبة الفاضلة السالفة الذكر ، ويستحدثون خطوطا ،
ويتعارفون عليها ويستحسنونها ، وهذا يرجع الى الذوق والعادة
والدربة والموضوع الذي يكتب فيه . يقول الاخوان :

« وهذا الذي ذكرناه من نسب هذه الحروف وكمية مقاديرها
طولا وعرضا بعضها عند بعض ، فهو شيء توجبته قوانين الهندسة
والنسب الفاضلة . وأما ما يتعارفه الناس ويستحسنه الكتاب فعلى
غير ما ذكرنا من المقادير والنسب ، وذلك بحسب موضوعاتهم
ومرضياتهم واختياراتهم دون غيرها ، وبحسب طول الدربة وجويان
العادة فيها » (٣٣) .

لقد سمي الخط الذي يجرى على النسبة الفاضلة محققا واستخدم
الخطاطون المسلمون في الأمور الجسيمة التي يقصد بها التخليد والبقاء .

(٣٢) انظر ذلك بالتفصيل عند : ابراهيم جمعة : قصة الكتاب
العربية ٧١ - ٨٦ ، محمود حلمي :
الخط العربي بين الفن والتاريخ ١٨٤ - ٢٠١
(٣٣) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١ / ٢٢١ .

على الأعقاب ، وكانت تكتب به أيضا مراسلات الملوك ، كما كانت تخط به المصاحف .

أما الخط الذى لا يلتزم هذه النسبة فقد سمي دارجا أو مطلقا وهو الذى تؤدى به الأغراض اليومية العاجلة .

ولكن الناظر فى تاريخ الخطوط العربية ومدارسها يرى أن بعض تلك المدارس قد جعلت من الحروف العربية وقواعدها للخطية ليس مجرد نقل للشئ يقتضى مراعاة الفروق الدقيقة لنسب الحروف ووزنها الشكى ، بل أصبحت الغاية القصوى لديها مراعاة الفروق الدقيقة لنسب الحروف مع ما تسره من هضمون روحى . ولذلك أخذ الخطاط المجدد العبرى يلتمس أنماطا جديدة غير معروفة طرح من حروفها الموزونة تعبيرا روحيا جعل من الخطاط صوفيا متمرسا من أرباب الأحوال والمقامات ، يفيض قلبه ولسانه ويده بحب الله ، فأكثر من كتابه لفظ الجلالة فى خط مميز جميل ليتقرب رتبة الى الله .

وهذا ما ابتدعته المدرسة الفارسية — وتأثرت بها المدرسة التركية فيما بعد — حين جعلت للحروف مذاقا فنيا له صورة بصرية موضوعية، وله صورة سمعية تتردد خفقاتها داخل الحروف وفى ذات المجدود المبدع ، ومن ثمة داخل نفس المتذوق (٣٤) .

ثم هيا لتلك المدرسة المصرية من ينهض بها ، وينبت مكانتها ، ويعلو من شأنها فى العصر الحديث ، الى أن صارت فى هذه الآونة قبلة القصاد لتعلم هذه الصناعة الفنية الرائعة .

وقد روى أن انبناء الحروف العربية على أصل هندسى ثابت ، وقاعدة رياضية معروفة يعد من محاسن تلك الحروف ، « وقد دل عدم

(٣٤) انظر : محمود حلمى : الخط العربى بين الفن والتاريخ

الترام هذه النسبة في الكتابة على كثير من الماسد ، فقد وجدت آلاف التي طولها بالنسبة لعرضها ١٢ : ١ هزيلة مفرطة في الطول ، كما وجدت آلاف التي طولها بالنسبة الى عرضها ٤ : ١ «مئة قبيحة» (٣٥) .

بل روى أن خطوط اللغات الأخرى لم تبلغ مبلغ الخط العربي الذي شام على هذا الأساس الهندسي « ومهما قيل في شأن حروف الأمم الأخرى من أنها تجرى بدورها على أساس هندسي أو جمال معين ، فليست كلها ببالغة ما بلغت الكتابة العربية في هذا المضمار . ولا نزن أمة من الأمم قد أولت الكتابة هذه العناية فجعلت منها فنا حقيقيا مفصل القواعد ، ثابت الأسس ، مفرد الضوابط مثل أمة العرب ، ولا نخال خطأ أفاض نقاد الفنون في وصفه وتقدير هيئته ونشرح أجزاءه ، وإبراز معايير الجمالية وإثبات خصائصه وما ينبغي أن يكون عليه مثل الخط العربي » (٣٦) .

وقد نقل ابن النديم عن الكندي قوله : « لا أعلم كتابة تحتل من تجليل حروفها وتدقيقها ما تحتل الكتابة العربية ، ويمكن فيها من السرعة ما لا يمكن في غيرها من الكتابات » (٣٧) .

(هـ) دوافع تجويد الخط العربي :

لقد أوضح الاخوان أن الهدف من تجويد الخط العربي صون القرآن الكريم عن التصحيف والخطأ والحن ، والحفاظ على اللغة العربية آلة نزل بها القرآن الكريم ، والتي بالفاظها يقرأ ، وبحروفها يكتب . يقول الاخوان :

« ولما كانت اللغة العربية والكتابة بحروفها التامة يحتاج اليها

(٣٦، ٣٥) انظر : ابراهيم جمعة : قصة الكتابة العربية ٩٠ .

(٣٧) انظر : الفهرست ١٣ .

في قراءة كتاب الله تعالى الذي ختم بنزوله كتب الأنبياء عليهم السلام ، وذكر فيه ما كان وما يكون الى يوم الوقت المعلوم ، فانه لا يجب أن يكتب الا بأحسن الخطوط وأقومها وأتمها وأكملها ، ولا يجب أن يكتب بالخطوط الذائقة التي ليست بموزونة ولا معتدلة ، لئلا يتصف على قارئه ويكثر الخطأ واللحن والزلل فيه عند القراءة » (٣٨) •

لقد عني المسلمون بالقرآن الكريم ولغته منذ أن نزل على رسولنا الكريم أول آيات الذكر الحكيم : « اقرأ باسم ربك الذي خلق • خلق الانسان من علق • اقرأ وربك الأكرم • الذي علم بالقلم • علم الانسان ما لم يعلم » (٣٩) •

ومنذ ذلك الوقت التزم المسلمون بالوحى المنزل حفظا وكتابة • وعلموا بالتركيب الحرفي للفظ المكتوب ليصلوا به الى المستوى الرفيع الذي كان عليه التركيب اللفظي المنطوق ، ولذلك لم يروا بأسا من كتابة القرآن بالذهب ، وتحسين كتابته وتبيينه وإيضاحه وتحقيق خطه حذرا من نقص في الحروف وإثباته في بعض الكلمات • ولذا لا نعجب حين ينقل السيوطي عن الزجاجي في شرح أدب الكاتب قوله : روى عن ابن عباس في قوله تعالى : « أو اثاره من علم » ، قال الخط الحسن • وقوله عن بعض المفسرين في قوله تعالى : « يزيد في الخلق ما يشاء » : هو الخط الحسن • كما ينقل عن بعضهم في قوله تعالى « علم البيان » أي الخط (٤٠) •

وما لبث أن تأسس خط اللغة العربية لفظها ، ونرى القلقشندي يوازن بينهما قائلا : « أما الموازنة بين الخط واللفظ فالأصل في ذلك أن الخط

(٣٨) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣ / ١٤٦ •

(٣٩) الآيات ١ - ٥ / سورة العلق •

(٤٠) انظر : المزهري ج ٢ / ٣٥٠ - ٣٥١ •

واللفظ يتقاسمان فضيلة البيان ويشتركان فيها : من حيث أن الخط-
دال على اللفظ ، والألفاظ دالة على الأفكار • ولاشتراك الخط واللفظ-
في هذه الميزة وقع التناسب بينهما في كثير من أحوالهما ، وذلك لأنهما
يهبران عن المعانى ، إلا أن اللفظ معنى متحرك والخط معنى ساكن ،
وهو وإن كان ساكناً فإنه يعمل فعل المتحرك بإيصاله كل ما تضمنه الى-
الافهام وهو مستقر في حيزه ، قائم في مكانه ، كما أن اللفظ فيه العذب-
الرقيقى السائغ في الأسماع ، كذلك الخط فيه الرائق المستحسن الأشكال
والصور » (٤١) •

وثمة أمر آخر شجع المسلمين على الاعتناء بالخط العربى ،
وتجويده ، حيث يقول أحد من أرخ له :

« ان الكتابة العربية كانت على طول القرون العشرة الهجرية-
الأولى محل عناية نفر من المنقطعين للتجويد ووضع الأصول واحكام-
المعايير ، والفضل في ذلك للعقيدة الاسلامية التى تلقى شيئاً غير قليل
من الشك على اتخاذ التصوير في الفنون الاسلامية ، وأغلب الظن أن
عبقريه رجل الفن المسلم قد وجدت في الكتابة خير بديل عن مزاولة
التصوير وتحمل أوزاره ، لما في التصوير من تقليد لصنعة الخالق » (٤٢) •
وثمة أمر ثالث شجع المسلمين على تجويد الخط وهو ما يناله-
الخطاط المجدد من علو في المكانة ، وسمو في المنزلة ، اذ ينقل السيوطى-
عن صاحب كتاب زاد المسافر قوله : « الخط لميد لسان ، وللخلد ترجمان ،
فردائه زمانة الأدب ، وجودته تبلغ بصاحبه شرائف الرتب ، وفيد-
المرافق العظام التى من الله بها على عباده فقال جل ثناؤه « وربك الأكرم-
الذى علم بالقلم » (٤٣) •

(٤١) انظر : القلقشنلى : صبح الاعشى •

(٤٢) انظر : ابراهيم جمعة : قصة الكتابة العربية ٦٨ - ٦٩ •

(٤٣) انظر : المزهر ج ٢ / ٣٥١ •

الفصل الخامس

من قضايا اللفظ والمعنى

لقد ألقى اخوان الصفا الضوء على عدة مسائل لغوية تتصل باللفظ ومعناه ، مثل الاشتراك اللفظي ، والترادف ، والتباين ، والتواطؤ ، والاستنتاج ، والقلب والتبديل ، وبلاغة الكلام . وقد أرجع السيوطي مثل هذه المسائل الى اللغة من حيث معناها (١) .

ونلقى الضوء فيما يلي على تصور الاخوان لتلك المسائل بعد تصنيفها الى ثلاثة أصناف :

- الاشتراك اللفظي والترادف والتباين والتواطؤ والاستنتاج ،
- القلب والتبديل .
- بلاغة الكلام .

(١) الاشتراك اللفظي والترادف ... الخ :

لم يتحدث اخوان الصفا عن هذه المسائل بطريقة اللغويين والمصوليين وغيرهما الذين يوضحون سبب وجودها ، وآراء العلماء فيها ، وتفسيرها ، الى غير ذلك مما هو معلوم للدارس اللغوي ، وإنما تحدثوا عنها من واقع نظرتهم العقلية للمعنى كما سبق .

وبناء على هذا أرجعوا الأقاويل المختلفة من جهة اللفظ أو من جهة المعنى الى خمسة أنواع ، وفرقوا بينها ، ومثلوا لكل نوع ، ثم

(١) انظر : المزهر ج ٣/١ .

أوضحوا حاجة المفسرين والقراء الى تلك النوع ، مؤكدين أن اختلاف هؤلاء المفسرين والقراء والفقهاء انما يرجع الى عدم الماهم بتلك الأنواع :

يقول الاخوان. موضحين الأقاويل المختلفة من جهة اللفظ أو المعنى:-

« ان الأقاويل تختلف تارة من جهة اللفظ ، وتارة من جهة المعنى ، وتارة منهما جميعا ، وهي خمسة أنواع ، فمنها المشتركة في اللفظ ، المختلفة في المعنى كقولك : عين الانسان ، وعين الماء • ومقابلتها هي المترادفة التي هي المختلفة في اللفظ المتفقة في المعنى ، كقولك : البر الحنطة ، ومنها المتباينة في اللفظ والمعنى جميعا ، كقولك : حجر وشجر ، ومقابلتها المتواطئة ، وهي المتفقة في اللفظ والمعنى جميعا ، كقولك : هذا انسان اسمه زيد ، وهذا اسمه عمرو • ومنها المشتق أسماءها وهي ، كقولك « الضارب والمضرب وما شاكلها من الاسماء المشتقة من الأفعال » (٢) •

كما يوضح الاخوان حاجة المفسرين للألفاظ المتنزلة الى معرفة تلك الألفاظ المشتركة وغيرها ، والالمام بها قائلين :

« وأما التي يحتاج اليها من هذه الخصال والاخلاق والسرائط المفسرون 'للإنفاذ' للنزول ، فأولها معرفة غرض صاحب الناموس في ايراده التنزيل ، واستعماله الألفاظ المشتركة المعاني ، ثم أن يخون له اتساع في معرفة تصاريح الكلام والأقاويل ، وما يحتملها من المعاني مما يؤكد غرض واضع الناموس ، ويكون له جودة بحث وبعد غور في استخراج المعاني ولطف العبارة عنها بحسب ما تحتمل عقول المستمعين ، ويقرب من فهم المتعلمين ، ويكون له من يقظة القلب ما لا

يناقض في أقاويله وعباراته ولا في المعاني التي يتشير اليها في تفسيره
الالفاظ تنزيه واضع الناموس وأقاويله وكلامه وبيانه • واعلم يا أخى
بأنه متى لم يكن المفسر عارفا بغرض واضع الناموس في إيراد الالفاظ
المشتركة المعاني في تنزيهه وأقاويله وعبارته وبيانته ، تخيل له من تلك
الالفاظ من المعاني غير ما أشار اليه واضع الناموس ، وتوهم سوى
ما أراد فيها ، فأفهم المستمعين من تفسيره ما تخيل هو ، وعظم المتعلمين
ما علم به ، فصار له ذلك ديناً ومذهباً غير دين واضع الناموس وطريقته ،
وكان مخالفاً له في اعتقاده في الشريعة وهو لا يشعر ، ويكون بذلك
مفسداً في أحكام الناموس وهو يظن أنه من المصلحين ، ولا يدري •
فاحذر يا أخى من هذا الباب ، فإن فساد ديانات واضع الناموس
وأحكام شرائعهم أكثرها من هذا الباب يكون « (٣) » •

كما يذكرون أن علة اختلاف القراء ترجع الى تلك الالفاظ المشتركة
وغيرها ، اذ يقولون :

« فعلة اختلاف القراء هي من أجل الالفاظ المشتركة المعاني
والمترادفة والمتباينة والمتواطئة والمشتبهة — كما بينا معاني هذه الخمسة
أنواع في رسالة المنطق — وإنما يستعمل صاحب الناموس هذه الالفاظ
في تنزيهه وخطبه ، لأن كلامه على العموم للناس : الخاص والعام ، وفي
المخاطبين : نساء وصبيان وعلماء وجهال ، وعقلاء وأغبياء ، أما بين ذلك
الالكي يعقل ويكمل كل انسان منهم معاني الالفاظ بحسب فهمه ، ذكائه
وصفاء جوهره ، فلا يخلو أحد منهم من فائدة اذا سمعوا قراءة التنزيل ،
وهذا هو من أجل المعجزات في كتب الأنبياء ، وخاصة القرآن : ٥٠ : ٥٠ »

أجل هذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف » ، « لكل آية لها ظاهر وباطن » (٤) .

كما أرجعوا اختلاف المفسرين في معاني ألفاظ التنزيل الى سببين أحدهما يرجع الى احتمال الالفاظ لتلك المعاني ، اذ يقولون :

« أما سبب اختلاف المفسرين المقرئين في معاني ألفاظ التنزيل فهو من جهتين : أحدهما احتمال الالفاظ لتلك المعاني ، والأخرى من جهة مراتبهم في المعارف وصفاء جوهر نفوسهم ، وذكاء أشغالهم ، فيسبح لكل واحد شيء خلافاً لما يسبح للآخر ، اذا نظر في معاني كتب الأنبياء عليهم السلام بحسب اجتهاده وفهمه ودقة نظره ومبلغ علمه ، كما قال تعالى « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » وقال : « وفوق كل ذي علم عليم » (٥) .

(٤) انظر : المرجع السابق ج ٣/٤٨٧ - ٤٨٨ وراجع ج ٣/١٥٢ . وقد روى الحديث الاول بروايات متعددة . انظر مسند الامام احمد ج ٤١/٥ ط بيروت ١٩٦٩ م صحيح الامام مسلم ج ١/٥٦٢ تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ط الرياضة ١٤٠ هـ سنن أبي داود ج ٢/٧٦ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . دار احياء السننه النبوية بالقاهرة ، سنن النسائي (بشرح السيوطي) ج ٢/١٥٤ ط بيروت ١٣٩٨ هـ .

أما الحديث الثاني فقد نقله السيوطي عن العريابي عن سفيان عن بونس بن عبيد عن الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « لكل آية ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ، ولكل حد مطلع » . انظر الاتقان ج ٤/١٩٦ . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم . الطبعة الاولى ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .

(٥) انظر : المرجع السابق ج ٣/٤٨٨ - ٤٨٩ .

وكذلك أرجعوا اختلاف العلماء والفقهاء الذين أصلوا الآراء والمذاهب في فقه الدين والأحكام والحدود ، الى عدة أسباب منها تلك الألفاظ المحتملة لتلك المعانى (٦) .

وقد ترددت الألفاظ المشتركة والمترادفة والمتواطئة والمتباينة في كتب الفلاسفة بنفس مفهومها الذي سجله الاخوان في رسائلهم (٧) .

أما اللغويون في القديم والحديث فقد سألوا وجالوا في توضيح تلك الألفاظ وبخاصة الألفاظ المشتركة والمترادفة بالاضافة الى المتضادة المعنى القى لم يتحدث عنها اخوان الصفا . ولم يهتم اللغويون بالألفاظ التي اختلفت صورتها ومعناها وهي ما سماها اخوان الصفا وشيهرهم من الفلاسفة بالمتباينة وما سماها اللغويون بالمختصة ، لأنها الأصل الذي وضعت من أجله اللغة . كذلك لم يهتموا بما سماه اخوان الصفا وغيرهم بالألفاظ المتواطئة المتفقة في اللفظ والمعنى .

أما المشترك فقد رأى أكثر اللغويين أنه واقع لنقل أهل اللغة ذلك في كثير من الألفاظ ، وبمنهم من أوجب وقوعه ، لأن المعانى غير متناهية ، والألفاظ متناهية ، فاذا وزع لزم الاشتراك .

ولك أن ترجع الى ما نقله السيوطى عن العلماء في تعريف المشترك وتوضيح معناه ، والأمثلة القى ساقها في هذا الباب ، ومن هؤلاء العلماء : ابن حريز ، وابن خاويه ، والجوهري ، وابن درستويه ، والإصمعي .

(٦) انظر : المرجع السابق ج ٣ / ٤٨٩ .

(٧) انظر - على سبيل المثال : الامام الغزالي : مقدمة شهافت

الفلاسفة المسماة : مقاصد الفلاسفة ص ٤٢ ' ٤٣ تحقيق د. سليمان

دينا ط ٢ دار المعارف .

وأبو عبد الله أنجدي ، والفاربي والتبريزي ، وابن فارس وأبو الطيب اللغوي ، وأبو علي القالي ، وأبو عبيد ، وأبو زيد (٨) .

والمحدثون يشترطون لتحقيق معنى الاشتراك أن تكون دلالة اللفظة الواحد على المعنيين أكثر على سبيل الحقيقة لا على سبيل المجاز كما ذكروا عدة أسباب لوقوع المشترك ، من أهمها الانتقال من الحقيقة الى المجاز (٩) .

أما الترادف فقد اختلف العلماء قديما وحديثا في تحديد معناه ، وقد نقل السيوطي آراء كثير منهم في وقوعه وسببه سواء أكان ذلك منه واضعين وهو الأكثر أم من واضح واحد وهو الأقل (١٠) .

ويرجع المحدثون الترادف الى عدة أسباب منها أن كثيرا من الألفاظ التي تدل على معان متقاربة ازدادت قربا ، واختلط بعضها ببعض ، وتوسيت الفروق بينها مما أدى الى وجود تلك الألفاظ التي سميت بالمترادفة (١١) .

أما حاجة مفسر القرآن الى الالمام بعلوم اللغة ومعرفته بنية الكلمات وهيئاتها ومدلولات الألفاظ على اختلاف أنواعها والاحاطة بمعاني التراكيب ، فهي أمر قرره علماء التفسير على اختلاف العصور ،

(٨) انظر : المزهر ج ١ / ٣٦٩ - ٣٨٦ ، د. أمين فاخر . دراسات

لغوية في الصحاح - الخصائص - المزهر ١٤٧ - ١٥٤ .

(٩) انظر : د. أمين فاخر : دراسات لغوية ١٥٧ .

(١٠) انظر : المزهر ج ١ / ٤٠٢ - ٤١٣ ، د. أمين فاخر :

دراسات لغوية ١٧٥ - ١٨٠ .

(١١) انظر : د. أمين فاخر : دراسات لغوية ١٨١ - ١٨٢ .

(م ١٨ - أخوان الصفا)

ولك أن ترجع الى النوع الثامن والسبعين من كتاب الاتقان للسيوطي
لنرى ما نقله عن العلماء في معرفة شروط المفسر وآدابه (١٣) .

فشرط المفسر — كما نقل السيوطي عن الطبري — أن يكون مهتئاً
من عدة الاعراب ، لا يلتبس عليه اختلاف وجوه الكلام ، فإنه إذا خرج
من البيان عن وضع اللسان اما حقيقة أو مجازاً ، فتأويله تعطيله . كلما
يشترط في المفسر ، علاوة على هذا ، صحة الاعتقاد ، ولزوم سنة الدين ،
معتمداً — على النقل — عن النبي صلى الله عليه السلام ، وعن أصحابه ،
ومن غاصرهم ، كما يشترط فيه صحة المقصد فيما يقول ليلقى التسديد ،
فقد قال الله تعالى « والذين جاؤوا فينا ليهديهم سبيلنا » ، وانما
يخلص له المقصد ، اذا زهد في الدنيا (١٣) .

كما نقل ابن تيمية أن الخلاف بين السلف في التفسير قليل ، وغالب
ما يصح عنهم من الخلاف يرجع نارة الى تنوع الأسماء والصفات (١٤) ،
ونارة الى ذكر بعض أنواع المسمى (١٥) .

كما نقل عنه أن من المتنازع الموجود عن المفسرين ما يكون اللفظ

(١٢) انظر الاتقان ج ٤ / ١٧٤ — ٢٠١ .

(١٣) انظر : السيوطي : الاتقان ج ٤ / ١٧٤ — ١٧٥ باختصار .

(١٤) مثل تفسيرهم « الصراط المستقيم » بالقرآن ، وبالإسلام ،

فالقولان متفقان ، ولكن كل منهما فيه على وصف غير الوصف الآخر ،

كما أن لفظ « الصراط » يشير بوصف ثالث . الاتقان ج ٤ / ١٧٦ .

(١٥) حيث يذكر بعض المفسرين من الاسم العام بعض أنواعه

على سبيل التمثيل وتنبية المستمع على النوع ، لا على سبيل الحمد

المطابق للمحدود في عمومته وخصوصه ، مثل تفسيرهم « المقصد » في

قوله تعالى « ومنهم مقتصد » ٣٢ / فاطر الذي يفعل الواجبات ويترك

المحرمات ، أو الذي يصلي في أثناء الوقت ، أو الذي يؤدي الزكاة

المفروضة . الاتقان ج ٤ / ١٧٧ .

هية محتضلا الأمرين ، اما لكونه مشتركا في اللغة (١٦) ، واما لكونه مطوإطاً في الأصل ، لكن المراد به أحد النوعين: أو أحد الشخصين (١٧) .

كما نقل عنه أن من الأقوال الموجودة عن المفسرين ويجهلها بعض الناس اختلافاً أن يعبروا عن المعاني بالفاظ متقاربة (١٨) .

كما نقل عنه أن الاختلاف في التفسير على نوعين : منه ما مستنده النقل فقط ومنه ما يعلم بالاستدلال وهذا هو أكثر ما فيه الخطأ من جهتين حدثت بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعهم باحسان : أحدهما : أن قوماً اعتقدوا أن المعاني أسبق وأرادوا جهل الفاظ القرآن عليها ، وهؤلاء ثارة يسلبون لفظ القرآن ما دل عليه وأريد به ، وتارة يحملونه على ما لم يدل عليه ولم يرد به ، وفي كلا الأمرين قد يكون ما قصدوا نفيه أو اثباته من المعنى باطلاً ، فيكون خطأهم في الدليل والمطلوب ، مثل تفاسير أهل البدع الذين اعتقدوا مذاهب باطلة ، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على زأبهم وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين .

وقد يكون ما قصصوا نفيه أو اثباته من المعنى حقاً ، فيكون خطأهم في الدليل لأن في المدلول ، مثل تفاسير كثير من الصوفية والوعاظ والفتهاء الذين يفسرون القرآن بمعان صحيحة في نفسها لكن القرآن لا يدل عليها .

وثانیهما : أن قوماً اعتقدوا أن اللفظ أسبق ، فراعوه مجرداً ، وما

(١٦) مثل « قسورة » يراد به الرامي ، والاسند . المرجع السابق .

(١٧) مثل لفظ الفجر ، والشفع ، والوتر ، فقد يجوز أن يراد

كل المعاني التي قالها السلف ، وقد لا يجوز المرجع السابق .

(١٨) كما إذا فسر بعضهم « تبسل » بـ « تحبس » وبعضهم بـ

« قرتهن » ، لأن كلا منهما قريب من الآخر . المرجع السابق ج

١٧٨/٤

يجوز أن يريد به العربى من غير نظر الى التكلم بالقرآن والمنزل عليه-
والمخاطب به وسياق الكلام (١٩) •

كما نقل السيوطى عن بعض العلماء خمسة عشر علما يحتاج المفسر
اليها وهى :

اللغة ، والنحو ، والتصريف ، والاستقناق ، والمعانى ، والبيان ،
والبديع ، والقراءات ، وأصول الدين ، وأصول الفقه ، وأسباب النزول ،
والقصص والناسخ المنسوخ ، والفقه ، والأحاديث المبينة لتفسير المجله
والمبهم ، وعلم الموهبة الذى يورثه الله لمن عمل بلا علم (٢٠) •

ولا يخفى على اللغوى أهمية هذه العلوم فى توضيح الألفاظ
وجدلالاتها •

وينبغى للمفسر أن يراعى — كما نقل السيوطى عن الزركشى فى —
البرهان — مجازى الاستعمالات فى الألفاظ التى يظن بها الترادف ،
والقطع بعدم الترادف ما أمكن ، فإن للتركيب معنى غير معنى الافراد ،
ولهذا منع كثير من الأصوليين وقوع أحد المترادفين موقعا الاخر فى
التركيب ، وان اتفقوا على جوازه فى الافراد (٢١) •

ويجب أن يعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه معانى .
القرآن ، كما بين لهم ألفاظه ، فقوله تعالى « لتبين للناس ما نزل
اليهم » (٢٢) يتناول هذو هذا ، كما قال ابن اثيرية ، ونقله عنه

(١٩) انظر : المرجع السابق ج ٤ / ١٧٨ — ١٨٠ باختصار •

(٢٠) انظر : المرجع السابق ج ٤ / ١٨٥ — ١٨٨ باختصار •

(٢١) انظر : المرجع السابق ج ٤ / ٢٠٠ •

(٢٢) الآية ٤٤ / النحل •

السيوطي (٢٣) ، وقد لفت اخوان الصفا النظر الى مثل هذا حين قالوا :

« وكان النبي صلى الله عليه وسلم يجيب السائل من آتته بلغته ويكلفه ويكلفه بلسانه ، فأما غيرهم فإنه يكلمهم صلى الله عليه وسلم بكلامهم ، وانما بعث اليهم وأقام فيهم وعلمهم وأرشدهم وسهل عليهم الألفاظ وضرب لهم المعاني ، وأخذهم بالملاطفة حتى فهموا الدين ، وتعلموا القرآن بلسان فصيح لا يخطئ فيه ولا يغيره ولا يبدله ، اذا كان صحيح الحفظ ، متقن التلقين » (٢٤) .

أما حاجة الناس الى تفسير القرآن ، والفائدة التي تعود عليهم من ذلك بحسب فهمهم ودكاتهم وصفاء جوهرهم كما سبق نقله عن اخوان الصفا فقد قررها علماء التفسير ، وقد نقل السيوطي عن بعضهم وجه الحاجة الى التغير وكان مما نقله : « ان القرآن انما نزل بلسان عربى في زمن أفصح العرب ، وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه ، أما دقائق باطنة ، فانما كان يظهر لهم بعد البحث والتأمل مع سؤالهم النبي صلى الله عليه وسلم في الأكثر ، كسؤالهم لما نزل قوله : « لم يلبسوا ، أيمانهم بظلم » (٢٥) فقالوا : وأينما لم يظلم نفسه ففسره النبي صلى الله عليه وسلم ، واستدل عليه بقوله : « ان الشرك لظلم عظيم » (٢٦) ، وكسؤال عائشة عن الحساب اليسير ، فقال : « ذلك العرض » ، وكقصيدة ندى بن حاتم في الخيط الأبيض والأسود وغير ذلك مما سألوا عن أحاد منه ، ونحن محتاجون الى ما كانوا يحتاجون اليه وزيادة على ذلك مما لم يحتاجوا اليه من أحكام الظواهر ، لقصورنا عن مدارك أحكام

(٢٣) انظر : الاتقان ج ٤ / ١٧٥ .

(٢٤) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣ / ١٦٧ .

(٢٥) الآية ٨٢ / الانعام .

(٢٦) الآية ١٣ / لقمان .

اللغة بغير تعلم ، فنحن أشد الناس احتياجا الى التفسير ، ومعلوم أن تفسيره بعضه يكون من قبل بسط الألفاظ الوجيزة ، وكشف معانيها ، وبعضه من قبل ترجيح بعض الاحتمالات على بعض » (٢٧) •

وما ذكر في هذا النص بشأن ظاهر القرآن وباطنه يجربنا الى الحديث الذي ذكره اخوان الصفا — كما نقلناه آنفا — وهو « لكل آية ظاهر وباطن » والى الحديث الذي أخرجه الديلمي عبد عبد الله بن عوف مرفوعا : « القرآن تحت العرش له ظهر وبطن يحاج العباد » (٢٨) •

وقد ذكر السيوطي خمسة أوجه في معنى الظهر والبطن : أحدها : « أنك إذا بحثت عن باطنها وقستة على ظاهرها وقفت على معناها » •

ثانيها : أن ما من آية الا عمل بها قوم ، ولها قوم سيعملون بها. كما قال ابن مسعود فيما أخرجه عن ابن أبي حاتم •

ثالثها : أن ظاهرها افظها ، وباطنها تأويلها •

رابعها : قال أبو عبيد — وهو أشبهها بالصواب : ان القصص التي قصها الله تعالى عن الأمم الماضية وما عاقبهم به ، ظاهرها الاخبار بهلاك الأولين ، إنما حديث حدث به قوم ، وباطنها وعظ الآخرين وتحذيرهم أن يفعلوا كفعالهم ، فيجل بهم مثل ما حل بهم •

خامسها : كما حكاه ابن النقيب : أن ظهورها ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر ، وبطنها ما تضمنته من الأسرار التي أطلع الله عليها أرباب الحقائق (٢٩) •

-
- (٢٧) انظر : السيوطي : الاتقان ج ٤/ ١٧٠ - ١٧١
 - (٢٨) انظر : المرجع السابق ج ٤/ ١٩٦
 - (٢٩) انظر : المرجع السابق ج ٤/ ١٩٦

كما نقل السيوطي عن بعض العلماء أن الظاهر التلاوة ، والباطن الفهم ، ثم قال : ويؤيد هذا ما أعرجه ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس قال : أن القرآن ذو سجون وفنون : وظهور وباطن ، لا تنقضي عجائبه ، ولا تبلغ غايته ، فمن أوغل فيه برفق نجأ ، ومن أوغله فيه بعنف هوى ، أخبار وأمثال وحلال وحرام ، وناسخ ومنسوخ ، ومحكم ومتشابه ، وظهور وباطن ، فظهره التلاوة وبطنه التأويل ، فجالسوا العلماء ، وجانبوا به السفهاء (٣٠) .

وقد تعرض الراجعي لهذا الحديث ، وذكر أن أفصح العرب صلى الله عليه وسلم أنسار به إلى حقيقة أعجاز القرآن ، ورأى « أن ظاهر القرآن على أي لغة قرئ بها من لغات العرب إنما هو ظاهر تلك اللغة بدينها ، ولكن باطنه صورة السماء في الماء ، ومسميات إلهية لا تنال وإن نيلت الأسماء » (٣١) . وقال : « ولو أن هذا الحديث قد جاء تأويله نص عن النبي صلى الله عليه وسلم يعين إيراد منه لما اختلفت أقوال العلماء فيه ، وما داموا قد اختلفوا فمدعنا نختلف معهم ، ونأخذ بالأسببه والأمثال مما يوافق القرآن نفسه ، وقد أنزله الله الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم : فإن ذهبت مذهبنا ، والا فخذ بما أحببت أو دع » (٣٢) .

وهنا نتساءل : هل يقصد الأخوان هذه الوجوه أو بعضها في فهمهم معنى الباطن ؟ أو تنتهمهم بالالحاد ليعيهم الفتنة وبعيهم الناس بليهم وخداعهم ، وادعائهم أن النصوص ليست على ظاهرها بل لها معان باطنية لا يعرفها إلى المعلم ، وقصدهم بذلك نفى الشريعة بالكليّة

(٣٠) انظر : المرجع السابق ج ٤ / ١٩٧ .

(٣١) انظر : أعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٦٩ ط بيروت .

(٣٢) انظر : المرجع السابق ٧٠ .

تكذآب الملاحدة الباطنية ؟ أو نحسن الظن بهم ، ونجعلهم من هؤلاء المحققين الذين يذهبون الى أن النصوص على ظواهرها ، ومع ذلك فيها اشارات خفية الى حقائق تنكشف على أرباب السلوك يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة ، فهو من كمال الايمان ومحض العرفان ، كما ذكر السيوطى نقلا عن التفتازانى (٣٣) ؟

وفى رأى أن قصدهم لا يتبين الا من خلال معرفة تصورهم لدلالة ألفاظ القرآن والأحاديث واللغة العربية بشكل عام ، التى سجلوها فى رسائلهم . والوقوف على هذا التصور ومعرفة التأويل العلقى عندهم بشكل عام ليس من هدفنا فى هذا الكتاب ، فذلك يحتاج الى بحث آخر ، آمل فى المستقبل أن يوفقه الله اليه .

ب) القلب والابدال :

لقد أشار اليهما الاخوان اسارة موجزة جدا فى أثناء تدليلهم على أنه لا حيوان الا من نكاح ، ولا صوت عرض من جوهر .

ومن خلال المثال القرآنى الذى ساقوه نرى أنهم لا يعنون بالقلب ذلك القلب اللغوى أو الاشتقاقى المسمى بالاشتقاق الكبير المعروف بتقلبات المادة ، كما لا يعنون بالابدال ذلك الابدال اللغوى أو المسمى بالاشتقاق الأكبر الذى هو جعل حرف مكان آخر مطلقا ، وإنما يعنون بالقلب القلب المكنى الذى هو تقديم بعض حروف على بعض مع الاتحاد فى الحروف وفى المعنى ، كما يعنون بالابدال الابدال الضرفى الذى هو جعل حرف من حروف « هذآب موطيا » أو « طال يوم أنجده » مكان آخر .

وقد اجتمعا بهذا المفهوم في «لواقح» من قوله تعالى « وأرسلنا الرياح لواقح » (٣٤) ، حيث يقول الاخوان :

« الرياح ههنا فاعلة ، والأصل في هذه الكلمة موضوعها في اللغة العربية على ما أجمع عليه النحويون « ملاقح » فيصير ههنا على القلب والتبديل . والعرب تقلب الشيء الى الشيء ، وتبدل وتقدم اذا كان المعنى مفهوماً ، وكان المخاطب به يفهم من المخاطب (بكسر الطاء) . والدليل على أنها « ملاقح » قولهم في اللغة لقيحت الأرض والنخلة فهي لاقحة ، والجمع لواقح ، فجعل لفظة الفاعل ههنا لفظة المفعول على القلب ، كما قال تعالى : « ماء دافق » وإنما هو مدفوق ، لأن الرباعي الذي اسم الفاعل منه مفعول (بضم الميم وكسر العين) ، والثلاثي الذي اسم المفعول منه فاعل ، وقد يكون الفاعل مرة للفاعل ومرة للمفعول ، والمعنى يدل عليه ، تقولك : قتيل وجريح وصرع ، اذا أردت المفعول ، وكريم ورحيم وعظيم ، اذا أردت الفاعل . وكذلك تجدها في حكم الطبيعة أن الرياح هي الملقحة للشجر وغيرها » (٣٥) .

وقد تعرض ابن منظور لهذه الآية ونقل أقوال عدد من العلماء في «لواقح» (٣٦) ، فقد قال ابن سيده نقلاً عن ابن جني : « قياسه ملاقح ، لأن الريح تلقح السحاب ، وقد يجوز أن يكون على لقيحت فهي لاقح ، فاذا لقيحت فزكت لقيحت السحاب ، فيكون هذا مما اكتفى فيه بالسبب من المسبب » .

-
- (٣٤) الآية الحجر ، واللواقح من الرياح : التي تحمل الندى ثم تمجه في السحاب ، فاذا اجتمع في السحاب صار مطراً .
 النظر : ابن منظور : لسان العرب (لفتح) .
 (٣٥) انظر : رسائل اخوان الصفا ج. ٣ / ١٠٠ - ١٠١ .
 (٣٦) انظر : لسان العرب (لفتح) .

وقال الأزهري « يقال : انما الريح ملقحة (بضم الميم وكسر القاف) تلقح الشجر ، فقيل : كيف لواقع ؟ ففى ذلك معنيان : أحدهما أن تجعل الريح هى التى تلقح (بفتح التاء والقاف) بهوررها على التراب والماء فيكون فيها اللقاح ، فيقال : ريح لاقح كما يقال ناقة لاقح ، ويشهد على ذلك أنه وصف ريح العذاب بالعقيم فجعلها عقيما اذا لم تلقح (بضم التاء وكسر القاف) . والوجه الآخر . وصفها باللقح وان كانت تلقح (بضم التاء وكسر القاف) ، كما قيل ليل نائم ، والفوم فيه ، وسر كاتم ، وثنا قيل المبروز والمختوم فجعله مبروزا ولم يقل مبرزا ، فجاز مفعول لمفعول ، كما جاز فاعل لمفعول ، اذا لم يزد البناء على الفعل ، كما قال ماء دافق » .

كما يذكر الأزهري فى معنى « لواقع » أنها بمعنى ، حوامل « جعل الريح لاقحا لأنها تحمل الماء والسحاب وتقلبه وتصرفه ثم تستدره ، فالرياح لواقع أى حوامل على هذا المعنى » ، وقال « ومما يحقق ذلك قوله تعالى : « هو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى اذا أقلت سحابا ثقالا » أى حملت ، فعلى هذا المعنى لا يحتاج أن يكون لاقح بمعنى ذى لاقح ولكنها تحمل السحاب فى الماء » .

يقول الجوهري : « رياح لواقع ولا يقال ملاقيح وهو من النوادر » وهذا نرى أنه لم يتفق على أن لواقع أصلها « ملاقيح » .
(ج) بلاغة الكلام :

لقد ألقى اخوان الصفا الضوء على البلاغة فى اللغة وفى عرفهم . وعرف البعض فى تلك الفترة المبكرة قبل أن تستقر علوم البلاغة وتأخذ دلائلها التى أرسى قواعد علماء البلاغة المتأخرون والمعروفة لنا الآن . كما أوضحوا أهمية الإصياغة اللفظية والمعنى الشريف لبلاغة الكلام ، وأثرهما فى النفوس .

أما البلاغة في اللغة فهي — كما يقولون — : « والبلاغة في اللغة من بلغت في كذا وكذا ، وهي مشتقة من المبالغة ، يقال : بلغت أبلغ ، بلوغا ، فالمصدر منه بلاغة ، فأنا بالغ ، وتقول : أبلغت الكلام وبلغتته ، الى فلان أى أديته اليه » (٣٧) .

وقال ابن منظور « بالغ فلان في أمرى اذا لم يقصر فيه » (٣٨) .
وأما في عرفهم فيرون أنها « هي النوصل الى افهام المعنى بأوجز مقال ، وأبلغ كلام ، ليعرف به المراد بأسهل المسالك وأقرب الطرق .
بواضح البيان وصادق المقال . والايجاز في ذلك ما بلغت غاياته بيسر اللفظ ، والإطناب ما بلغت غاياته بالتطويل ، فصارت البلاغة حينئذ التوسيط بين الحالتين ، والتوصل الى إثراك الغاية من أقرب الطرق » (٣٩) .

ونظروهم الى البلاغة على أنها توسط بين ايجاز واطذاب منبثقة من نظرتهم الى العدل الذي هو توسط بين هذين : أحدهما يتطرق دونه الى بخس ونقصان ، والآخر يقترق فوقه الى اقراط وعدوان . ومن ثم ، نظروا من بين ما نظروا الى العدل في البلاغة قائلين : « والعدل في البلاغة ما لم يقصر عن إدراك البيغية ، وإصابة المعنى وقصد الغرض ، ألا ترى أن الهذر في المنطق بعد بلوغ الغاية لا يحتاج اليه ، ولو كانت البلاغة هي البلوغ الى غايات المعانى لكان العالم كلهم بلغاء ، خاصهم وعامهم ، لأنه ما من أحد الا وهو اذا عبر عما في نفسه بلغ غرضه في افهام السامع عنه ما يريد منه على حسب استطاعته وما تساعده عليه آتته » (٤٠) .

-
- (٣٧) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١٢١/٣ .
(٣٨) انظر : لسان العرب (بلغ) .
(٣٩) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١٢١/٣ .
(٤٠) انظر : المرجع السابق .

والبلاغة في عرف بعض الناس كما ذكر اخوان الصفا « معرفة مواضع المفاصل المطلوبة بالفاظ مفهومة ، والبليغ هو الذي لا يؤتى سامعه من سوء افهامه ، والفهم الذي لا يأتي بسوء من يريد افهامه بتقصير عن البلاغة في خطابه أو كتابة ، فيخرق بفهم وصفاء ذهنه تلك الحجب الحائلة بينه وبين المعنى الذي يقدر على الفهم ، لأنه يجرده من تلك الشوائب المعوقة له عن البيان والايضاح » (٤١) .

وسواء أكانت البلاغة هي الايجاز أم التوسط بين الايجاز والاطذاب أم توصيل المعنى الى السامع في صورة واضحة بينه وبالفاظ مفهومة ، فإنها لم تأخذ دلالتها الاصطلاحية الدقيقة المشهورة ، وهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، الا على يد البلاغيين المتأخرين مثل النساكي (ت ٦٢٦ هـ) ، والخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ) وغيرهما .

ونجد تلك الدلالة الواسعة للبلاغة التي أشار اليها اخوان الصفا مسجلة في كتب المتقدمين أيضا مثل البيان والتبيين للجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) ، وعيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري (٢٧٦ هـ) ، وغيرهما .

فقد نقل الجاحظ عن كثوم بن عمرو العنابي (ت ٢٢٠ هـ) قوله عن البليغ : « كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ » (٤٢) .

كما نقل الجاحظ عن الأصمعي (ت ٢١٦ هـ) قوله عن البليغ « من طبق الفصل وأغناك عن المفسر » (٤٣) .

(٤١) انظر : المرجع السابق .

(٤٢) انظر : البيان والتبيين ج ١/١٠٦ تحقيق : عبد السلام حارون . القاهرة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م

(٤٣) انظر : المرجع السابق .

وقد سأل معاوية بن أبي سفيان صحارا بن عياشى — كلما ذكر الجاحظ — : « ما تعدون البلاغة فيكم ؟ » قال : « الایجاز » ، قال له معاوية « وما الایجاز ؟ » قال : « أن تجيب فلا تبطئ ، وتقول فلا تخطئ » (٤٤) •

وقد فسر عمرو بن عبید (ت ١٤٤ هـ) البلاغة حين سألها سائل عنها — كلما ذكر الجاحظ — بقوله : « فكأنك إنما تريد تخير اللفظ في حسن الفهم » ثم قال السائلة : « أنك قد أوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلفين وتخفيف المؤونة على المستمعين وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدین بالالفاظ المستحسنة في الآذان ، المقبولة عند الأذهان رغبة في سرعة استجابتهم ، ونفى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة ، كنت قد أوتيت فصل الخطاب واستحققت على الله جزيل الثواب » (٤٥) •

وقد رأى اخوان الصفا أهمية المعنى والالفاظ في بلاغة الكلام : فمن المحال أن يكون اللفظ وحده مؤديا الهدف ، أو المعنى وحده محققا الغاية •

أما أهمية الصياغة اللفظية في التعبير البليغ فتظهر في قولهم : « اعلم أن المعاني تنطق بها أفواه السوقة والعوام في الأسواق والطرق ، ولكن قل من يحسن العبارة عنها ، وربما أراد المعنى فعبّر عن غيره وهو يظن أنه قد عبر عنه » (٤٦) •

(٤٤) انظر : المرجع السابق ج ١/٩٦ •

(٤٥) انظر : المرجع السابق ج ١/١١٤ ، وابن قتيبة ، عيون •

الاخبار ج ٢/١٧٠ ط دار الكتب المصرية •

(٤٦) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ٣/١٢١ - ١٢٢ •

كما تظهر أيضا في قولهم

« الألفاظ ان قبلت التأدية عن المعانى ببلاغة فهمت المعانى ولاحت دلائلها بغبر تطويل ولا اسباب ، وان عجزت الألفاظ عن تلك التأدية احتاجت الى التطويل ، والتطويل ذهاب البلاغة ، والتقصير هو ضعف الدلالة والحجة ، وفي الناس من يحول في قابه المعنى الصحيح فيعبر عنه باللفظ الركيك ، فيحيله عن معناه وان لم يرد الاحالة ولكنه عجز في اللفظ ، فيصير اللفظ غير مؤد عن المعنى ، لا لعجز المعنى ولكن العجز اللفظ » (٤٧) •

وقد أشار الجادظ الى أهمية الصياغة اللفظية حين قال « والمعانى مطروحة في الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى والمدينى ، وانما الشأن في اقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك ، فانما الشعر صناعة ضرب من النسيج وجنس من التصوير » (٤٨) •

ولذلك رأى اخوان الصفا أن أحكم الكلام الانسانى وأبينه وأبلغه وأتقنه وأفصح ما كان موزونا مقفى متفق التأليف غير منزحف ، اذ يقولون في فصل عنوانه « احكام الكلام صنعة من الصنائع » :

« ومن المصنوعات المحكمة المتقنة أيضا صنعة الكلام والأقوال ، وذلك أن أحكم الكلام ما كان أبين وأبلغ ، وأتقن البلاغات ما كان أفصح ، وأحسن الفصاحة ما كان موزونا مقفى ، وألذ الموزونات من الأشعار ما كان غير منزحف ، والذى غير منزحف من الأشعار هو

(٤٧) انظر : المرجع السابق ج ٣ / ١٢٢ •

(٤٨) انظر : الجاحظ : الحيوان ج ٣ / ١٣١ - ١٣٢ تحقيق

عبد السلام هارون ط القاهرة ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٨ م •

الذي حروفه الساخنة وأزمانها مناسبة لحروف متحركاتها، وأزمانها ،
والمثال في ذلك : الطويل والمديد والبسيط فان كل واحد منها مركب من
ثمانية مقاطع ، وهي هذه : فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن
مفاعيلن فعولن مفاعيلن (٤٩) . وهذه الثمانية مركبة من اثني عشر
سببا وثمانية أوتاد ، جعلتها ثمانية وأربعون حرفا ، عشرون منها سواكن ،
وثمانية وعشرون حرفا متحركات ، والمصراع منه أربعة وعشرون حرفا ،
عشرة سواكن ، وأربعة عشر متحركات ، ونصف المصراع الذي هو ربع
البيت اثنا عشر حرفا ، خمسة منها سواكن ، وسبعة متحركات .
ونسبة سواكن حروف ربعة الى متحركات كنسبة سواكن حروف نصفه
الى متحركاته ، وكنسبة سواكن حروفه كلها الى متحركاته كلها . وهكذا
تجد حكم الوافر والكامل ، فان كل واحد منهما مركب من ستة مقاطع ،
وهي هذه : مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن ست
مرات (٥٠) . ونسبة سواكن حروف ثلث البيت الى حروف متحركات
كنسبة حروف سواكن نصفه الى متحركاته ، وكنسبة سواكن كله الى
متحركاته كله . وعلى هذا المثال والنظم يوجد لكل بيت من الأشعار
إذا سلم من الزحاف منصف أو مربعا أو سدسا . وكذلك حكم الزمان
التي بينها ، وهذه صورتها : فعولن مفاعيلن « هـ/هـ/هـ/هـ/هـ »
الهاءات علامة المتحركات ، والإلفات علامة السواكن . فقد تبين بهذا

(٤٩) تفعيلات البحر الطويل : أما التفعيلات الثماني للمديد فهي
« فاعلاتن فاعلن » أربع مرات . وأما التفعيلات الثماني للبسيط فهي
« مستفعلن فاعلن » أربع مرات .
(٥٠) هذه تفعيلات البحر الوافر ، لكنه لم يرد صحيحا أبدا ، بل
لابد من قطف عروضه فتصير مفاعلتن مفاعلن ، وتحول الى فعولن . أما
التفعيلات الثماني للكامل فهي « متفاعلتن » ست مرات .

المثال أيضا أن أحكم المصنوعات وأتقن المركبات ما كان تأليف أجزائه
وأساس بنيته على النسبة الأفضل « (٥١) » .

ومع أن الاخوان قد ساقوا هذا النص للتحليل على بلاغة الكلام
الموزون المقفى المتفق التأليف فإن لى عليهم بعض الملاحظات ، منها :

١ - أنهم سموا التفاعيل العروضية مقاطع مع أن الأمر بخلاف
هذا فمما هو معلوم أن أجزاء الميزان الشعري أو التفاعيل هي التي
تتكون من مقاطع ، وقد يتكون المقطع من حرفين (متحرك وساكن)
يسمى سببا خفيفا ، أو « متحركين » ويسمى سببا ثقيلًا . وقد يتكون
المقطع من ثلاثة أحرف ، ويسمى وتدا مجهوعا ان كان الساكن بعد
المتحركين ، ويسمى وتدا مفروقا ان كان الساكن بين المتحركين .
ويسمى اجتماع السببين : الثقيل فالخفيف فاصلة صغرى ، واجتماع
السبب الثقيل فالوتد المجموع فاصلة كبرى .

وعلى هذا لا تحمل تسمية المقطع تفعيلة الا على المجاز من باب
إطلاق الجزء والمراد الكل .

٢ - أنهم عرفوا المنزحف من الأشعار بأنه « الذى حروفه
السواكن متحركة ، والمتحركة ساكنة » (٥٢) ، بينهما المتعارف عليه في
علم العروض أن الزحاف « كل تغيير يتناول ثوانى الأسباب ، ويكون

(٥١) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١/٢١٨ - ٢١٩ وأيضا
ج ٣/١٤٧ - ١٤٨ . ولهم حديث أيضا عن النسب الثمانية التي تجرى
عليها الحروف السواكن والمتحركات للبحر الطويل على مستوى البيت
ونصفه وربعه . انظر ج ١/٢٥٢ .
(٥٢) انظر : المرجع السابق ج ٣/١٤٧ .

بتسكين المتحرك أو حذفه أو حذف الساكن « (٥٣) • أما تحريك الساكن فلم يتعارف عليه •

٣ — أنهم لم يضمنوا النص في الموضعين — تفعيلات بحرى المديد والبسيط ، وقد أوضحتها في الهامش حتى ينكشف السياق ، ولا تلتبس بالتفعيلات المذكورة للبحر الطويل • وكذلك أوضحت تفعيلات البحر الكامل حتى لا تلتبس بالتفعيلات المذكورة للبحر الوافر •

٤ — أنهم ضمنوا النص خمسة أبحر (الطويل والمديد والبسيط والوافر والكامل) ، ويعد (الطويل والبسيط والكامل) ثلاثة أبحر كثر ورودها في أشعار العرب القدماء (٥٤) • ويعد الطويل في المرتبة الأولى ، يليه الكامل والبسيط في المرتبة الثانية (٥٥) ، وقد عد الوافر في المرتبة الثانية أيضا ، والمديد في الثالثة ، ومجزوء الكامل ومجزوء الوافر ، ومجزوء البسيط ومخلعه في المرتبة الرابعة (٥٦) • وقد شبه الأخوان بناء الغناء الألحان ببناء الأشعار والاقاويل بصفة عامة « وذلك أن الغناء مركب من الألحان ، واللحن مركب من النغمات ، والنغمات مركبة من النقرات والايقاعات ، وأصلها كلها حركات وسكون ، كما أن الأشعر مركبة من المصاريح ، والمصاريح مركبة من المفاعيل ، والمفاعيل مركبة من الأسباب والأوتاد والفواصل ، وأصلها كلها حروف متحركات وسواكن ، كما بينا ذلك في كتاب العروض

(٥٣) انظر : محمود مصطفي : أهدى سبيل الى علمي الخليل :
العروض والقافية ص ٢٠ ط ١٣٩٣/١٢ د ١٩٦٣ م •
(٥٤) انظر : المرجع السابق ٣٧ ، ٤٤ ، ٥٢ •
(٥٥/٥٦) انظر : د ابراهيم أنيس : موسيقى الشعر ٥٩ - ١٢٩
الطبعة الخامسة ١٩٨١ م •

وكذلك الأقاويل كلها مركبة من الكلمات ، والكلمات من الأسماء والأفعال والأحوال وكلها مركبة من الحروف المتحركات والسواكن » (٥٧) •
وقد شهد أيضا قوانين وأصول العروض بقوانين وأصول الغناء والألحان ، أرجعوا أصول كل من العروض والألحان الى ثلاثة : السبب والوئد والفاصلة ، يتضح هذا في قولهم :

« ان العروض هو ميزان الشعر يعرف به المستوى والمنزحف ،
وسمى ثمانية مقاطع في الأشعار العربية وهي هذه : فعولن ، متفاعيلن ،
متفاعلن ، ستنعلن ، فاع لاتن ، فاعلن ، مفعولات ، مفاعلتن • وهذه
الثمانية مركبة من ثلاثة أصول وهي : السبب ، والوئد ، والفاصلة ،
للسبب حرفان : واحد متحرك وآخر ساكن أو متحرك ، مثل قولك :
هل ، لم ، وما شاكلها • والوئد ثلاثة أحرف ، اثنان متحركان ، وواحد
ساكن ، مثل قولك : نعم ، وبلى ، وأجل ، وما شاكلها • والفاصلة
أربعة أحرف : ثلاثة متحركة ، وواحد ساكن ، مثل قولك : غلبت ،
شعلت ، وما شاكلها • وأصل هذه الثلاثة حرف ، ساكن وحرف متحرك •
فهذه قوانين العروض وأصوله • وأما قوانين الغناء والألحان فهي
أيضا ثلاثة أصول ، والسبب والوئد والفاصلة ، فأما السبب منغزة
متحركة يتلوها سكون مثل قولك تن تن تن تن ، ويكرر دائما ،
والوئد فقرتان متحركتان يتلوها سكون ، مثل قولك : تنن تنن تنن تنن ،
يكرر دائما والفاصلة ثلاث فقرات متحركة يتلوها سكون مثل قولك تننن
تننن تننن تننن • وهذه الثلاثة هي الأصل والثانون في جميع ما يركب منها
من النغمات ، وما يركب من النغمات في جميع اللغات من الألحان ،
وما يتركب منها من الغناء في جميع اللغات » (٥٨) •

(٥٧) انظر : رسائل اخوان الصفا ج ١/١٩٦ - ١٩٧ •

(٥٨) انظر : المرجع السابق ج ١/١٩٧ - ١٩٨ • ويرجع في

التفصيل قوانين الألحان العربية أيضا الى ج ١/١٩٨ - ١٩٩ ، ٢٢٧ ،
٢٢٨ •

وعلى هذا النص أيضا بعض الملاحظات ، منها :

١ — ذكر في النص أن التفعيلات — أو (المقاطع) أو (المفاعيل) على حد تعبير اخوان الصفا — ثمان • والحق أنها عشرة عند الكثرة من علماء العروض ، فلم يتضمن النص « فاعلاتن » ، « مستنفع لن » •

وبعض العروضيين أنكروا التفعيلتين : « مستنفع لن » و « فاع لاتن » وقصروا تفاعيل العروض على ثمان هي :

« فعولن ، فاعلن ، مستفعلن ، فاعلاتن ، مفاعيلن ، مفاعلتن ، مفعولات » • وأيدهم في هذا أحد المحدثين ، وأعتبر التفعيلتين السابقتين مصنوعتين (٥٩) •

٢ — تضمن النص تعريف السبب ، دون إشارة الى نوعية الخفيف : ان كان الثاني من حرفي المقطع ساكنا ، والثقل : ان كان الثاني متحركا) ، كما لم يتضمن النص تمثيلا للسبب الثقيل ، وهو مثل (مت) في مفعلاطن •

٣ — تضمن النص تعريف الوتد ، دون إشارة الى نوعية (المجموع : ان سكن ثالث المقطع الثلاثي بعد المتحركين ، والفروق : ان سكن ثاني المقطع الثلاثي بين المتحركين) • كلها لم يتضمن النص تمثيلا للوتد المفروق ، وهو مثل (لات) في مفعولات ، و (فاع) من فاع لن •

٤ — لا ينطبق تعريف الفاصلة في النص الا على أحد نوعيها وهو الفاصلة الصغرى ، وهي تتكون باجتماع السببين : الثقيل

(٥٩) انظر : د. ابراهيم انيس : موسيقى الشعر ٥٣ •

فالحفيف • ولم يشر في النص الى النوع الآخر وهو الفاصلة الكبرى ،
وهي تتكون باجتماع السبب الثقيل فالوتد المجموع ، مثل أن تصير
« مستعلن » بعد حذف سينها وفائها الى « متعلن » •

وقد جمع بعض العروضيين أمثلة (١) السبب الخفيف ، والثقيل ،
والوتين : المجموع والمفروق ، والفاصلتين : الصغرى والكبرى (٢) في
قوله : لم أر على ظهر جبل سمكة (٦٠) •

ونجد صدى هذه الفكرة — التي تربط بين بناء الألفان وبين بناء
الأشعار والأقوال — عند فلاسفة آخرين ، غير اخوان الصفا ، مثل
أبي نصر الفارابي (ت ٣٣٩ هـ) (٦١) •

وقد أوضح اخوان الصفا أثر الصياغة الشعرية الموزونة البليغة
في النفوس « فمن تلك التغمات والأصوات ما يحرك النفوس
نحو الأعمال الشاقة ، والصنائع المتعبة ، وينشطها ويقوى عزيماتها
على الأعمال الصعبة المتعبة للأبدان التي تبذل فيها مهج النفوس
وذخائر الأموال ، وهي الألفان المشجعة التي تستعمل في الحروب ،
وعند القتال في الهجاء ، ولاسيما اذا غنى معها بأبيات موزونة في وصف
الحروب ومديح الشجعان ، مثل قول القائل :

لو كنت من مازن لم تستبج ابلى
بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

(٦٠) انظر :

محمود مصطفى : أهدى سبيل الى علمي الخليل ١٨ •

(٦١) انظر : الموسيقى الكبير ٨٥ ، ١٢٠ ، ١٠٧٥ — ١٠٨٦

تحقيق وشرح : غطاس عبد الملك خشبة ، ومراجعة : د. محمود احمد
الحفنى • دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة •

ومثل قول البسوس بنت منقذ :

لعمري لو أصبحت في دار منقذ
لما ضيتم سعد وهو جار الأبياتي
ولكنني أصبحت في دار غريبة
متى يعد فيها الذئب يعد على شاتي
فيا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل
فانك في قوم عن الجار أموات

فان هذه الأبيات وأخواتها يقال انها كانت سببا لاثارة أقوام الى
الحرب والقتال بين قبائل العرب سنين متواترة .

ومن الأبيات الموزونة أيضا ما يثير أيضا الأحقاد الكامنة ،
ويحرك النفوس الساكنة ويلهب نيران الغضب مثل قول القائل :

واذكروا مصرع الحسين وزيد وقتيلا بجانب المهراس
فان هذه الأبيات وأخواتها أيضا أثارت أحقادا بين أقوام ،
وحركت نفوسهم ، والتهبت فيها نيران الغضب ، وحثتهم على قتل
أبناء الأعمام والأقرباء والعشائر ، حتى قتلوهم بذنوب آبائهم ووزر
أجدادهم ، ولم يرحموا منهم أحدا « (٦٢) » .

أما حاجة الكلام البليغ الى المعنى المفيد المرشد الى منفعة والذي
يصير الكلام يفقده تصويته وهذيانا فقد أوضحها الاخوان في فصل
عقدوه لذلك قائلين :

« فأما افهام المعانى فانها تفهم من الكل من اللكن والفصحاء ،
وانما يتفاضل الناس في البلاغة ، وهو عند الحشوية والعام والنساء
والصبيان حسن الصوت وحلاوة المنطق وصفاء الكلام • وليس كل من
حسن صوته وصفا كلامه كان بليغا في ابانة المعنى وإقامة الدليل والحجة
في ازالة الشبهة عن النفس الساهية ، وانتباه الجاهل عن رقدته ، واصحاء
السكران من سكرته بالتذكيرة والموعظة ، فان صاحب النعمة الطيبة
والكلام الصافي ربما استعمل ذلك في الأغاني والملاهي • وسبب كل ذلك
محبة للذات الدنية والنسوات الحسية ، وما يتضمن الكلام من السخف
والمجون وأمثاله ، فان معانيها لا حقيقة لها ، والكلام بها انما هو
تصويت وهذيان لاحق بأصوات الحيوان والمجانين والسكران والصبيان
والنسون ومن لا عقل لهم • وأصل المعانى في أنها المقالات المدلول
بصحتها في الاخبار بها عن معرفة حقائقها ومقاصد طرائقها • وحد
المعنى أنه هو كلمة دلت على حقيقة وأرشدت الى منفعة ويكون وجودها
في الاخبار بها صدقا ، والقول عليها حقا • والاخبار على أربعة أقسام
خبر واستخبار وأمر ونهى ، وقد جعلها قوم ستة ، وآخرون عشرة ،
وأصلها هذه الأربعة ، فثلاثة منها ما لا يدخله الصدق والكذب ،
وواحد منها يدخله الصدق والكذب وهو الخبر ، ويوجد في ذلك السالبة
والوجبة والممكن والممتنع » (٦٣) •

وقد تطرق الاخوان — كما يظهر من النص — الى موضوع الخبر
والانشاء ، وحصر الأول في الصادق والكاذب ، وهو يعاد أحد
الموضوعات التي أدخلها المتأخرون في علم المعانى الذي ينطوي تحت
علوم البلاغة التي استقرت وأخذت دلالتها الاصطلاحية الدقيقة في
عهد السكاكي ومن جاء بعده من الشراح والمختصين •

ومن المعلوم أن الجاحظ يعتبر أيضا من الأوائل الذين بحثوا
موضوع الخبر وانحصاره في الصادق والكاذب (٦٤) •

وقد أنكر القزويني وشرح تلخيصه انحصار الخبر في قسمين •
وحصره في ثلاثة : صادق ، وكاذب ، وغير صادق ولا كاذب :

فالحكم يكون صادقا إذا كان مطابقا للواقع مع اعتقاد المخبر له ،
ويكون كاذبا إذا كان غير مطابق مع الاعتقاد ، ولا يكون صادقا ولا
كاذبا إذا كان مطابقا للواقع مع عدم الاعتقاد ، أو كان غير مطابق مع
عدم الاعتقاد •

وقد أحتجوا بقوله تعالى: « افترى على الله كذبا أم به جنة » (٦٥)،
فإن المشركين حصروا دعوى النبي ﷺ الرسالة في الافتراء والأخبار
حال الجنون بمعنى امتناع الخلو ، وليس أخباره حال الجنون كذبا ،
لجملهم الافتراء في مقابلته ، ولا صدقا ، لأنهم لم يعتقدوا صدقه ،
فثبت أن من الخبر ما ليس بصادق ولا كاذب (٦٦) •

ومعذراً نرى أن اخوان الصفا والجاحظ وغيرهما من المتكلمين
كانوا من الأوائل الذين اعتمد عليهم البلاغيون المتأخرون في تقسيم

(٦٤) انظر : د • احمد معلوب : البلاغة عند الجاحظ ٧٥ ط
العراق ١٩٨٣ م •
(٦٥) الآية ٢ / سسبأ •

(٦٦) انظر : الخطيب القزويني : الايضاح ص ١٤ • تحقيق لجنة
من أساتذة كلية اللغة العربية ط القاهرة • والتلخيص : ص ٣٩ •
تحقيق : عبد الرحمن البرقوقي • الطبعة الثانية في القاهرة ١٣٥٦ هـ
— ١٩٣٨ ، وشرح التلخيص ج ١ / ١٨١ ط القسامة ١٩٣٧ م •
والفتاوى : الشرح المطول ص ٤٠ ط تزكية ١٣٣٠ هـ •

الكلام الى خبر وانشاء وما يتفرع منهما على النحو المعروف في علم المعاني •

كما نرى أن اخوان الصفا — وهم فلاسفة وينظرون الى المنطق على أنه أداة الفيلسوف — ينوعون الخبر الى ايجاب وسلب ويمكن وممتنع على النحو المعروف في علم المنطق (٦٧) ، وذلك في ضوء نظرتهم العقلية الى المعنى كما سبق •

ونعود لنكمل حديث الاخوان عن المعنى المفيد المتطلب للكلام البليغ ، فنراهم يمدحون الصياغة البليغة المتضمنة وصف نعيم عالم الأرواح واذات أهله وسرورهم ، ومن الأمثلة التي ساقوها في هذا السياق قولهم :

« كما يقرأ غزاة المسلمين عند النكير آيات من القرآن أنزلت في هذا المعنى لترقق القلوب ، وتشوق النفوس الى عالم الأرواح ونعيم الجنان ، مثل قوله تعالى : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستشروا ببيعكم الذي بايعتم به » • وأخوات هذه الآيات من القرآن •

« وكما ينشد غزاة المسلمين عند اللقاء أيضا أو الحملة على الهيجاء ما قيل من أبيات الشعر في وصف الحور العين ونعيم الجنان مما يشوق النفوس الى هناك ، أو يشجع على الاقدام ، بالعربية والفارسية ، نحو قول الشاعر :

(٦٧) انظر تفصيل ذلك في رسائل اخوان الصفا ج ١/٤١٤

أثبت لى عفتى وأبى بلاتى وأخذى الحمد بالثمن الربيع
واقدامى على المكروه نفسى وضربى هامة البطل المسيح (٦٨)
وقولى كلما جشأت وجأشت: مكانك تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صالحات وأحمى بعد عن عرض صحيح «

ويذكرون أيضا بيتين لشاعر فارسى (٦٩) •

كما يذكرون معانى الأنسعار التى كان الحكماء الإلاهيون — على
حد تعبيرهم — يلحنونها عند استعمالهم الموسيقى فى الهياكل وبيوت
العبادات لترقيق القلوب القاسية وتشويقها الى عالمها الروحانى قائلين:

« يأيتهما النفوس الغائصة فى بحر الأجسام الملهمة ، ويأيتهما
الأرواح الغريقة فى ظلمات الأجرام ذوات الثلاثة الابعاد ، الساهية
عن ذكر المعاد ، المنحرفة عن سبيل الرشاد ، اذكروا عهد الميثاق ، اذ
قال لكم الحق « ألسن بربكم ؟ قلتم : بلى تسعدنا ، أن تقولوا يوم
القيمة انا كنا عن هذا غافلين « أو تقولوا : انما أشرك آبائنا
الجسمانيون من قبل وكنا ذرية من بعدهم جرمانيين فى دار الغرور ،
وضنك القبور • اذكروا عالمكم الروحانى وداركم الحيوانية ومحلكم
النورانى وتشوقوا الى آباءكم وأمهاتكم وإخوانكم الروحانيين الذين
هم فى أعلى عليين ، الذين هم من أوساخ الأجرام مبرؤون ، وعن
ملابسة الأجسام الطبيعية منزهون ، بادروا وارحلوا من دار الفناء

(٦٨) المسيح : المقبل عليك والمانع لما وراء ظهره •

(٦٩) انظر : المرجع السابق ج ١/٢٠٩ •

الى دار البقاء قبل أن يبادر بكم الى هناك مكرهين مجبورين ، غير مستعدين ، نادمين ، خاسرين » (٧٠) •

كما نرى اخوان الصفا يذمون الموسيقى والصياغة الشعرية التي تحت على اللهو واللعب ، والترغيب في شهوات لذات الدنيا ، والغرور بآمانيتها ، قائلين :

« وأما علة تحريم الموسيقى في بعض شرائع الأنبياء عليهم السلام فهو من أجل استعمال الناس لها على غير السبيل التي استعملها الحكماء ، بل على سبيل اللهو واللعب ، والترغيب في شهوات لذات الدنيا والغرور بآمانيتها ، والأبيات التي تنشد مشاكلة لها مثل قول القائل :

خذوا بنصيب من نعيم ولذة فكل وان طال المدى ينصرم
وقول القائل :

ما جاءنا أحد يخبر أنه في جنة مذ مات أو في نار
واعلم بأن مثل هذه الأبيات اذا سمعها أكثر الناس ظنوا وتوهموا أنه ليست لذة ولا نعيم ولا فرح ولا سرور غير هذه المحسوسات التي يشاهدونها ، وأن الذي أخبر به الأنبياء عليهم السلام من نعيم الجنات والذات أهلها باطل ، والذي أخبر به الحكماء من سرور عالم الأرواح وفضله وشرفه كذب وزور ليست له حقيقة فيقعون في شكوك وحيرة • واعلم مياأخي أيديك الله وإيانا بروح منه أنك ان لم تؤمن

٢٩٩

للأنبياء عليهم السلام بما أخبروك عنه من نعيم الجنان ولذات أهلها ،
ولم تصدق الحكماء بما عرفوك من سرور عالم الأرواح ورضيت بما
تخيل لك الأوهام الكاذبة والظنون الفاسدة بقيت متحيرا شاكاً ضالاً
مضلاً » (٧١) •

(٧١) انظر : المرجع السابق ج ١ / ٢١٠ - ٢١١ •
وهذا النص وأمثاله يؤيد القول بأن اخوان الصفا يهدفون الى
التوفيق بين الدين والفلسفة ، ولذلك ساقوا أقوال الاشياء والحكماء
على أنها مؤيدة لاحكام منسوبة ، ونظروا الى الانبياء نظرهم الى الحكماء
في محاولة منهم - كما قيل - في إعادة الوحدة الى الاسلام والجمع بين
المسلم والنصراني والمجوس واليهودي والافلاطوني والمثبائي والغيناثغوري •
وتوجيه الجميع الى غاية واحدة هي الحقيقة المطلقة •
انظر : د • جهور عبد النور : اخوان الصفا ١٧ ، ورسائل اخوان
الصفا ج ٤ / ٤٢ وأبو حيان التوحيدى : الامتاع والمؤانسة ٦ - ٢٣ •

خاتمة

وبعد :

فهل نستطيع بعد هذه الجولة مع اخوان الصفا أن نقول اننا قد وقفنا على الفكر اللغوي ، ووفينا بما قد وعدنا باظهاره والكشف عنه في المقدمة ؟ وأننا قد طرحنا بعض التساؤلات أجبنا على بعضها ، ومنتظر بعضها الآخر من يتولى الاجابة عنها ؟

اننا نترك الاجابة عن هذا للقاريء الواعي والمطلع المدقق ، مكثفين هنا بذكر أهم ما كشف عنه هذا العمل المتواضع في فكر أصحاب رسائل اخوان الصفا :

١ — اللغة تعبير ومعبر عنه ، ويرتبط كل منهما بالآخر ارتباطا وثيقا وهذا التصور لا يختلف عن تصور عدد من اللغويين المحدثين العربيين .

٢ — اللغة المنطوقة تلقين وانها من الله ، ألهمها الله آدم عليه السلام ولقنه اياها . وهذا التصور لم يسلم به علماء كثيرون . وعلى الرغم من كثرة النظريات التي حاولت الكشف عن مصدر تلك اللغة فانها لم تصل الى نتيجة حاسمة ، وأقصى ما يقال في هذا الموضوع أن اللغة نشأت وتكونت عن كل النظريات التي قيلت بهذا الصدد دون التعصب لرأى بعينه .

٣ — نظرة الاخوان الى آدم عليه السلام وأنه خلق ناطقا متكلما فصيحاً مميّزا ، فيها رد على النظريات الخاطئة التي يؤمن أصحابها بتطور الكائنات الحية جسمانيا وعقليا وفكريا ، وبأن آدم ظل فترة صامتا قبل أن تنشأ لغته. وينطق بأصوات راقية .

٣٠١

٤ — اللغة المكتوبة نشأت سدا لحاجة البشر الى تواصل الخلف
بالسلف بعد ما رأى قصر اللغة المنطوقة واضمحلالها • وهذا التصور
قرره المحدثون في كثير من كتبهم •

أما أن تلك اللغة كانت الهاما وتوفيقا فامر لم يتفق عليه
العلماء قديما وحديثا •

٥ — خطوط اللغات كلها ترجع الى الخطين : المستقيم والمقوس •
وهذا التصور الذى يبنى عليه جودة الخطوط وهندستها أرجعه علماء
الاجتماع العرب — وعلى رأسهم ابن خلدون — الى الاجتماع وكثرة
العمران •

٦ — اللغة تتغير وتتطور نتيجة اجتهاد الفرد وما تنتجه
قريحته • وهذا التصور قد ساد فترة طويلة — بالنسبة للغة المنطوقة —
الى أن ظهر اتجاه في القرن التاسع عشر عند المستغلين بالبحوث اللغوية
ينفى اختيار الانسان في اللغة وتطورها، يؤكد جبرية الظواهر اللغوية •
ومع ذلك ظل لتصور الاخوان أنصار في الغرب يدافعون عنه الى وقت
قريب •

أما بالنسبة لتطور اللغة المكتوبة نتيجة الاجتهاد الفردى فقد
أقره المحدثون ورأوا أن الرسم يبدو في صورة أمور مقصودة تسيرها
الارادة الانسانية •

٧ — اللغة تتطور نتيجة صراعها واحتكاكها بغيرها • وهذا
التصور أقره المحدثون •

٨ — اللغة تنتشر وتتفرع الى لهجات ولغات نتيجة عوامل اجتماعية
وجغرافية وفسيولوجية • وهذا التصور أقره المحدثون •

٩ - كل صوت مسموع يستلزم وجود جسم يهتز ، ولا ينتقل الان عبر وسط ناقل يتسم بالطواعية والمرونة وسرعة الاستجابة كالهواء . ومعدل سرعة الصوت في الهواء أدنى من معدل سرعة الضوء . والأذن تعجز عن سماع الأصوات العالية القوة كصوت الصاعقة ، وعن سماع الأصوات الخفية كدبيب النملة . والأذن تقدر على سماع الأصوات المتوسطة بين هاتين الحالتين . وسماع الصوت غير ادراكه . كل هذا يتفق تماما مع تصور المحدثين للصوت بمفهومه العام .

١٠ - الأفراد والتركيب هـستويان لتقطيع الصوت اللغوى . وهذه النظرة أقرها القدماء من عامائنا قبل المحدثين .

١١ - ايجاد تيار هولتى شرط لايجاد الصوت . ومكونات آلة النطق الرئيسية الرئة والصدر والحجاب واللقوم والمنخران والفم وما يشتمل عليه من لسان وأسنان وشفتين . وانسياب الأصوات وسهولة اخراجها يتوقف على صلاحية أعضاء النطق ومرونتها الحركية والعصبية نتيجة عوامل جغرافية وفسيولوجية ونفسية .

وفساد الكلام من اختلاف تقطيع الأصوات فى القوة والضعف . وكل هذا يتفق تماما مع ما هو مقرر فى الدراسة الصوتية ، غير أن الاخوان لم ينصوا على الحنجرة مثل معظم علماء العربية ، وان كان أقصى الحلق يمكن أن يشملها ، ولذلك اعتبروا أقصى الحلق أبعد الخارج .

١٢ - مدى الصوت وانتشاره وشدته وحدته وجوارته واختلاف أنواعه وفنون نغماته ووضوحه فى السمع يتفق مع ما هو مقرر حديثا .

١٣ — الدماغ بأكمله هو المسئول عن عمليتي الإدراك والتواصل اللغوي، بعامة • وهذا التصور ساد فترة طويلة الى أن تغير ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر على يد بعض الغربيين من أمثال «بروكا»، و «فيرنيك» وغيرهما حيث رأوا أن الشق الأيسر من الدماغ هو المسئول عن معظم الوظائف اللغوية ، وان كنا لا نعدم من يتمسك بنظرة الاخوان في هذه الآونة مثل العالم اللغوي «فندريس» •

١٤ — الدماغ في نظر الاخوان مقسم — فسيولوجيا — الى ثلاثة أقسام تتشابه بوساطة مجموعة من الأعصاب : مقدم الدماغ ، ووسطه ، ومؤخره ، ومع أنهم لم يثيروا الى انشطار المخ الى أيمن وأيسر فان هذا التقسيم في مجمله يتفق الى حد ما مع ما يراه علماء التشريح حين قرروا أن في كل شق من شقي الدماغ أربعة فصوص : أمامي ، وخلفي ، وصدغي ، وقفوي •

وقد رأى الاخوان أن أجزاء الدماغ تتعاون لتؤدي ثلاث وظائف: استقبال رسوم المعلومات بوساطة الحواس ، ويختص به مقدم الدماغ الذي يرتبط بتركيب الحواس ارتباطاً عصبياً وللتمييز والنظر في تلك المعلومات واصدار الأوامر ، ويختص به وسط الدماغ • وحفظ المعلومات وتخزينها ، ويختص به مؤخر الدماغ •

وهذا يتفق في مجمله مع ما يراه المحدثون حين رأوا استقبال الدماغ على مراكز عديدة للاحساس والحركة ، واختصاص كل مركز في المخ بوظيفة معينة ، غير أن تحديد مركز السمع لا يتفق الى حد ما مع ما قرره «بروكا» و «فيرنيك» ، ولم يحدد الاخوان مركزي الكلام والكتابة بينما حددتهما بدقة الدراسة الحديثة •

١٥ — حركات الانسان نوعان : ارادية وغير ارادية ، وتعد

الحركات المتصلة بعملية الكلام — والمتمركزة في مقدم الدماغ — من.
النوع الأول •

وهذا متفق مع ما يراه المحدثون ، وان كان بعضهم يرى أن تلك.
الحركات في النصف الأيسر من مقدم الدماغ • .

١٦ — وظيفة المراكز المترابطة للادراك تتوقف على سلامة
الحواس من الآفات ، وبخاصة حاستا السمع والبصر اللتان يتوقف
عليهما الادراك اللغوي بصفة خاصة ، حيث يتوقف على الحاسة الأولى.
عمل الدماغ في ادراك اللغة المنطوقة ، وعلى الثانية اللغة المكتوبة •
وهذه النظرة التي تنظر الى التوافق الوظيفي بين مراكز الاحساس
والحركة في الدماغ كى يتم الكلام بالشكل الطبيعى ، قد أقرتها الدراسة.
الحديثة •

١٧ — القلب حاسة مهمة في الادراك ، ولولا قوتها لبطلت بقية.
الحواس • وهذه النظرة مؤيدة بشكل واسع في الدراسات الاسلامية ،
سواء الفلسفية منها أو الصوفية ، وان كان اللغويون يرون أن القلب.
قد يطلق على العقل ، والعقل على القلب •

١٨ — اكتساب اللغة يعنى فهم الحركات والتعبير عنها ، وذلك
بالفاعل بين الصبى وبيئته بالإضافة الى القوة الغريزية المزود بها •
والاكتساب لا يتأتى دفعة واحدة ، وانما بالتدريج وعلى مراحل ،
ويتوقف على مدى قوة الفكر ونضجه وسلامة حواسه من الآفات ،
وبخاصة حاستا السمع والبصر اللتان يتوقف على تفاوتهما تفاوت
الناس في اكتساب اللغة التي تعد من خصائص البشر •

وكل هذا يتردد صداه في الدراسة الحديثة •

٣٠٥

١٩ — المعاني المعبر عنها بالألفاظ إنما هي صور وأفكار مختزنة في الأذهان ، مكتسبة بطريق الحواس • والألفاظ موضوعة بازاء تلك المعاني والصور الذهنية •

وهذا يتفق مع علماء كثيرين في القديم ومنهم فخر الدين البرازي «وقى الحديث وعلى رأسهم عالم النفس «أوجدن» و «رينشارد» ، بينما المتعارف عليه عند اللغويين أن المعنى لا يتأتى الا بحراسة الكلمة والتركيب صوتيا وصرفيا ونحويا ومعجميا واجتماعيا •

٢٠ — اللغة العربية أتم اللغات الانسانية ، وذلك يرجع الى تشريف الله العربية حين أنزل بها القرآن الذي هو أشرف كتاب أحكمه الله ، والذي تمجذ الأمم عن ترجمته ونقله الى لغاتها على ما هو به من الاختصار والإيجاز •

وهذا القول ينال اجماع الباحثين من علماء العربية الا الذين في قلوبهم مرض •

٣١ — أصل العربية يرجع الى يعرب بن سمام • وهذا قول لم يتفق عليه المؤرخون والعلماء •

٢٢ — عدد أصوات العربية الرئيسية ورموزها ثمانية وعشرون ، وهذا لا يتفق مع ما أحس به كثيرا من علماء العربية في القديم ، ومع ما هو مقرر في الحديث • وهذا يرجع الى أن الاخوان لم يدرجوا في العدد أصوات ورموز الحركات عدا الألف التي ذكروها في الألفبائية ، ولم يستخدموا بها •

٢٣ — للسان دور مهم في اخراج الأصوات ، ويتدخل في تقطيع واخراج أربعة عشر حرفا • وهذا لا يتمشى مع الواقع ، ومع النظرتين ..

(٢٠ - إخوان الصفا)

القديمة والحديثة الى أصوات العربية ، اذ يتدخل اللسان في واحد وعشرين صوتا .

٢٤ - اختلاف محارج الحروف في قوتها وضعفها يترتب عليه اضطرابات في التكلم ، ويكون من مظهرها ما سموه بالحبسة والفاقة والتمتمة والعقلة ، والجكلة والرتة واللثغة . وقد صال المحدثون من اللغويين وعلماء النفس وأمراض الكلام ، وجالوا في تفسير تلك الاضطرابات وتصنيفها وتعليلها وعلاجها .

٢٥ - الألفبائية العربية تستوعب كل ألفبائيات اللغات المختلفة وقد أكدت الدراسات الحديثة المقارنة صحة هذه النظرة .

٢٦ - الخط العربي مأخوذ من الخط الحميري ، وعلى بن أبي طالب هو الذي نقل شكل هذا الخط الى ما هو عليه الآن .

وهذا تصور لم يتفق عليه المؤرخون للخط العربي ، بل زعمهم أن لعلي رضي الله عنه دور في اصلاح الخط ليس له سند من التاريخ الصحيح .

٢٧ - الهدف من تجويد الخط العربي يرجع الى صون القرآن عن التصحيف والخطأ واللحن ، والى الحفاظ على لغة القرآن . وهذا تصور مقبول .

٢٨ - تقسيم الألفاويل المختلفة من جهة اللفظ أو المعنى الى الاشتراك اللفظي ، والترادف والتباين والتواطؤ والاشتقاق تابع من النظرة العقلية للاخوان الى المعنى ، ولم يحدثوا عنها بطريقة اللغويين . وحديثهم عن حاجة المفسرين الى الامام بتلك الألفاظ أمر أكده علماء التفسير .

٢٩ — المفهوم الاصطلاحي ، المتداول بيننا الآن للبلاغة لم يمكن قد استقر في عهد الاخوان ، ولذلك أتت بالمفهوم الواسع الذي كان شائعا في تلك الآونة ، وهو التوصل الى افهام المعنى بأوجز مقال ليعرف به المراد بواضح البيان ، أو هو التوسط بين الايجاز والاطناب ، وذلك بناء على نظرتهم الى العدل الذي هو التوسط بين النقصان والافراط ، والبخس والعدوان •

٣٠ — التعبير البليغ ينبغي أن يتوافر فيه الصياغة اللفظية المتقنة الموزونة ، المتفقة التأليف ، المؤثرة في النفوس ، بجانب المعنى المفيد المرشد الى منفعة •

كما نخرج من نظر الاخوان في اللغة الى نتيجة حاسمة ، لا نقرها ولا نعترف بها ، وهي ارجاع معظم قضايا اللغة وظواهر الى تأثير الكواكب والنجوم ، فهم يعتقدون في الكواكب ويؤمنون بتأثيرها في أصحاب اللغة والناطقين بها ، شأنهم في ذلك شأن كل المخلوقات والكائنات فيما دون فلك القمر ، وأنها مربوطة بحركات الأشخاص الفلكية • وقد عرفنا أن الاعتقاد في الكواكب والايمان بتأثيرها اعتقاد باطل وزعم مرفوض •

ومن المسائل اللغوية التي أرجعها الاخوان بشكل رئيسي الى هذا العامل الفلكي :

(أ) ظهور الكتابة انما هو نتيجة تشكل الفلك بشكل أوجب التغير والاستحالة •

(ب) صورة الخط الكتابي المستقيم تشبه عالم الكواكب وسكن الأملاك التي أشكالها مستقيمة • بينما صورة الخط المعوج تشبه ما دون تلك القمر •

(ج) تطور اللغة وتفرعها انما هو بحسب ما اتفق للاقوام في اصول مواليدهم ، حيث تستولى الكواكب عليهم •

(د) عدد حروف اللغة الاولى تسعة ، وهذا العدد مناسب لافلاك التسعة الحاوية لجميع الموجودات بأسرها •

(هـ) عدد حروف اللغة العربية ثمانية وعشرون • وهذا العدد مناسب لعدد منازل القمر •

(و) أصوات عالم الألبان انما هي محاكية لحركات الأشخاص الفلكية •

(ز) خفة اللغات وسهولة التصرف في مخارج الكلام انما هو بحسب ما أوجبت للناس دلائل مواليدهم •

(ح) سريان القوى الحساسة للنفس في مفاصل الجسد كسريان هوى أجناس الملائكة في أطباق السموات •

(ط) اطلاق لسان المولود بالعبارة ، وفهم اللغة والتعبير عنها انما يرجع الى دفع القمر التدبير الى عطارده صاحب المنطق والتشيز •

* * *

هذا واسأل الله مغفرة ما زلت فيه ، وارجو القارئ العفو عما غفلت عنه ، واصلاح ما ندر من خطأ الفكر أو القلم ••

« وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين » ••

أهم المراجع

- ١ - إبراهيم اليبس : (دكتور) :
 • دلالة الألفاظ • الطبعة الثالثة ١٩٧٦ م
 • من أسرار اللغة • الطبعة السادسة ١٩٧٨ م
 • موسيقى الشعر • الطبعة الخامسة ١٩٨١ م
- ٢ - إبراهيم جمعة :
 قصة الكتابة العربية • الطبعة الرابعة • دار المعارف •
- ٣ - ابن جني ٣٩٥ هـ (أبو الفتح عثمان) :
 • الخصائص • تحقيق الشيخ محمد علي النجار • الطبعة
 الثالثة بيروت ١٩٧٠
 • من صناعة الاعراب تحقيق : مصطفى السقا وآخرين •
 الطبعة الأولى ٣٧٤ هـ / ١٩٥٤ م •
- ٤ - ابن الخطيب :
 الفرقان • الطبعة الأولى دار الكتب المصرية ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م
 (محكوم بمصادره في مصر) •
- ٥ - ابن خلدون :
 المقدمة • الطبعة الرابعة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م •
- ٦ - ابن سينا (٤٢٨ هـ) أبو علي الحسن :
 أسباب حدوث الحروف • ط القاهرة ١٣٣٢ هـ •
- ٧ - ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) :
 الصحاح • تحقيق : السيد أحمد صقر • طبعة عيسى البابي
 الحلبي •
- ٨ - ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) :
 عيون الأخبار • ط دار الكتب المصرية •

- ٩ - ابن منظور :
لسان العرب . ط دار المعارف .
- ١٠ - ابن النديم (٣٨٥ هـ) : محمد بن أبي يعقوب اسحاق الوراق :
الفهرست . تحقيق : رضا تجدد . ط طهران .
- ١١ - أبو حيان التوحيدى (ت ٤١٤ هـ) :
الامتناع والموانسة . تصحيح وشرح : أحمد أمين ، أحمد الزين .
ط القاهرة سنة ١٩٤٢ .
- ١٢ - أبو السعود الفخرانى (دكتور) :
التجويد القرآنى فى ضوء علم الصوتيات الحديث . رسالة دكتوراه
بمكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة :
- ١٣ - أحمد مطلوب (دكتور) :
البلاغة عند الجاحظ . ط العراق ١٩٨٣ م .
- ١٤ - انطوان الصفا :
جامعة الجامعة . تحقيق : عارف تامر . دار النشر للجامعيين
١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩ م .
- رسائل اخوان الصفا . ط دار صادر . بيروت .
- الرسالة الجامعة . تحقيق : جميل صليبي ط المجمع العلمي
العربي ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ -
- ١٥ - الاشبيلي (ت ٦٥٤ هـ) ابراهيم بن وثيق ، أبو اسحاق
كتاب فى تجويد التلاوة ومخارج الحروف . تحقيق ودراسة :
د . أبو السعود أحمد الفخرانى . الطبعة الاولى ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م
- ١٦ - أمين محمد فاخر (دكتور) :
دراسات لغوية فى الصحاح والخصائص والمزهر . الطبعة
الثالثة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب : تحقيق
- ١٧ - الترمذى : أبو عبد الله محمد بن علي (ت ٣٢٠ هـ) .

- ٥٠ نقولا هير • دار احباء الكتب العربية ١٩٥٨م •
- علم الاولياء : تحقيق : د. سامى نصر • ط القاهرة ١٩٨٣م
- ١٨ - تغريد عنبر (دكتور) :
دراسات صوتية • ط القاهرة ١٤٠١هـ / ١٩٨٠م •
- ١٩ - التفتازانى :
الشرح المطول • ط تركيا ١٣٣٠هـ •
- ٢٠ - تمام حسان : (دكتور) :
اللغة بين المعيارية والوصفية • ط المغرب •
- ٢١ - التهانوى :
كشاف اصطلاحات الفنون • تحقيق : د. لطفى عبد البديع •
الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٦٩م •
- ٢٢ - الثعالبي (ت ٤٣٠هـ) : أبو منصور :
فقه اللغة وسم العربية • تحقيق : مصطفى السقا وآخرين
الطبعة الأخيرة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م •
- ٢٣ - الجاحظ (ت ٣٦٠هـ) : أبو عثمان :
● البيان والتمثيل • تحقيق عبد السلام هارون • ط ٤ الخانجي
وطبعة أخرى ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م •
- الحيوان : تحقيق : عبد السلام هارون ط القاهرة ١٣٥٦هـ /
١٩٣٨م •
- ٢٤ - جبور عبد النور (دكتور) :
اخوان الصفا • سلسلة نوايغ الفكر العربى (رقم ٧) الطبعة
الرابعة دار المعارف ١٩٨٣م •
- ٢٥ - الجرجاني (ت ٨١٦هـ) : السيد الشريف على بن محمد :
التعريفات : ط مصطفى البابى الحلبي • ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م •

- ٢٦ - جرجى زيدان :
الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية • مراجعة وتعليق : د. مراء
كامل • ط دار الهلال
- ٢٧ - جمعة سيد يوسف (دكتور) :
سيكولوجية اللغة والمرض العقلي • سلسلة عالم المعرفة • العدد
(١٤٥) ط الكويت
- ٢٨ - حاجى خليفة : كشف الظنون • ط القاهرة ١٩٤١
- ٢٩ - حسن ظاظا (دكتور) :
اللسان والالسان • ط دار المعارف ١٩٧١ م
- ٣٠ - حسنى أحمد السيد حماد :
الحضارة العربية • ط وزارة الثقافة ١٩٦٧ م
- ٣١ - حسنى ناصف :
تاريخ الادب أو حياة اللغة العربية • الكتاب الاول ١٩٠٦ م
- ٣٢ - الخطيب القزوينى (٧٣٩ هـ) :
● الايضاح • تحقيق لجنة من اساتذة كلية اللغة العربية • ط
القاهرة
- التلخيص • تحقيق : عبد الرحمن البرقوثى • ط ٢ -
١٣٥٦ هـ / ١٩٣٨ م
- ٣٣ - الدالى (٤٤٤ هـ) :
كتاب النقط (مطبوع فى ذيل كتابه المنع فى رسم مصاحف
الانصار) تحقيق محمد الصادق قبحاوى ١٩٧٨ م
- ٣٤ - دى سوسر (عالم سويسرى) :
فصول فى علم اللغة العام • ترجمة د. أحمد نعيم الكراعين • ط
الاسكندرية ١٩٨٥ م

٣١٣

- ٣١٥ - المراتبي : أحمد بن محمد بن المظفر بن المختار (ت ١٢٠١ هـ) :
حروف المعجم • تحقيق : د. رشيد العبيدي • مجلة معهد
المخطوطات العربية • المجلد ٢٠ ط ربيع الآخر ١٣٩٤ هـ / مايو ١٩٧٤
- ٣١٦ - رشاد سالم (دكتور) :
الاصوليون والنظريات اللغوية • رسالة دكتوراه بمكتبة كلية
اللغة العربية :
- ٣١٧ - رمضان عبد العواب (دكتور) :
① التطور اللغوي : مظاهره وعلله وقوانينه • المطبعة الأولى
١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م
② فصول في فقه اللغة العربية • الطبعة الأولى ١٩٧٣ • القاهرة
- ٣١٨ - زكي نجيب محمود (دكتور) :
حصار السنين • مقال رقم ١١ بعنوان رؤية واضحة • جريدة
الأهرام العدد ٣٧٦٣٢ • السنة ١١٤ • الثلاثاء ٢٠ جنادى الأولى
١٤٢٠ هـ / ديسمبر ١٩٨٩ م
- ٣٩ - ستيفن أولمان :
دور الكلمة في اللغة • ترجمة : د. كمال بشر • ط القاهرة ١٩٧٥
- ٤٠ - السجستاني (ت ٣١٦) عبد الله بن أبي داود :
كتاب المصاحف ط دار الكتب •
- ٤١ - سعله مصلوح (دكتور) :
دراسة السمع والكلام • ط عالم الكتب ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ •
- ٤٢ - سيد غنيم (دكتور) :
اللغة والفكر عند الطفل • بحث في مجلة عالم الفكر - للمجلة
الثاني • العدد الأول •
- ٤٣ - السيوطي (٩١١ هـ) : جلال الدين :
① الاثنان في علوم القرآن تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم
الطبعة الأولى سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

- الأزهر فى علوم اللغة وأنواعها • تحقيق : محمد جاد الحوالى
وآخرين • ط عيسى البابى الحلبي •

٤٤ - عارف نامر :

- حقيقة اخوان الصفا • ط بيروت ١٩٥٧ •

٤٥ - عباس محمود العقاد :

- الأبجدية العربية أكمل الأبجديات • مقال بمجلة الأزهر ج ٤
السنة ٣٤ جمادى الآخرة ١٣٨٢ هـ / نوفمبر ١٩٦٢ م •
- أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب • الطبعة الخامسة • داف
المعارف ١٩٨٢ •

- الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونانيين والعبريين • الهيئة
المصرية العامة للكتاب •

- اللغة الشاعرة الطبعة الأولى ١٩٧٧ •

- اللغة العربية بين لغات الحضارة المصرية • مقال بمجلة
الأزهر • المجلد ٣٢ شوال ١٣٨٠ هـ / مارس ١٩٦١ م •

٤٦ - عبد الحميد أبو سكينة (دكتور) :

- دراسات فى التجويد والأصوات اللغوية • مطبعة الأمانة
١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م •

٤٧ - عبد الرحمن بدوى (دكتور) :

- الصلة بين المنطق واللغة • بحث فى مجلة عالم الفكر • م ٢
العدد ١ •

٤٨ - عبد العزيز أحمد علام (دكتور) :

- علم الصوتيات (بالاشتراك مع د • عبد الله ربيع محمود) •
- فى فقه اللغة (بالاشتراك مع د • عبد الله ربيع محمود) •
- من التزمين فى نطق العربية الفصحى بمصر المعاصرة : رسالة
دكتوراه بمكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة •

٤٩ - عبد الغفار حامد هلال (دكتور) :

- أصوات اللغة العربية ١٣٩٩ هـ .
- علم اللغة بين القديم والحديث . الطبعة الأولى ١٩٧٩ م .
- اللغة العربية : خصائصها وسماتها . الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .

٥٠ - عبد الله ربيع محمود (دكتور) :

- علم الصوتيات . (بالاشتراك مع د. عبد العزيز علام) .
- المكتبة التوفيقية .
- في فقه اللغة . (بالاشتراك مع د. عبد العزيز علام) الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .
- من ملامح المنهج العلمي عند علماء العربية . ط ١٤٠٤ هـ .
- الملامح الأدائية عند الجاحظ في البيان والتبيين . الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

٥١ - عبد الواحد وافي (دكتور) :

- علم اللغة . الطبعة السابعة . دار نهضة مصر .
- اللغة والمجتمع . ط دار نهضة مصر ١٩٧١ م .

٥٢ - عبد الوهاب ربيع محمود (دكتور) :

- النحو الشارد في مشارق الأنوار للقاضي عياض . مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية . العدد السادس ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

٥٣ - عثمان أمين (دكتور) :

- في اللغة والفكر . ط معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٧ م .

٥٤ - علي الحديدي (دكتور) :

- مشكلة تعليم اللغة العربية لغير العرب . دار الكتاب العربي .

٥٥ - علي سامي النشار :

- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام . ط دار المعارف .

٣١٦

- ٥٦ - الغزالي ٥٠٧ هـ (حجة الاسلام ، الامام) :
مقدمة تهافت الفلاسفة ، المسماة : مقاصد الفلاسفة • تحقيق •
د. سليمان دنيا ط ٢ دار المعارف
- ٥٧ - الفارابي (٣٣٩) أبو نصر :
الموسيقى الكبير • تحقيق وشرح : غطاس عبد الملك خشبة ،
مراجعة : د. محمود أحمد الجفني • دار الكتاب العربي •
- ٥٨ - فندريس :
اللغة • تعريب : عبد الحميد الدواخل ، ومحمد القصاص •
القاهرة ١٩٥٠ •
- ٥٩ - القلقشندي (٨٢١ هـ) : أحمد بن علي :
صبح الأعيان • المطبعة الأميرية ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ م •
- ٦٠ - كمال بشر (دكتور) :
• دراسات في علم اللغة • ط دار المعارف ١٩٧٣ •
• علم اللغة العام : الأصوات ط ٥ دار المعارف ١٩٧٩ •
- ٦١ - كمال يوسف الحاج :
في فلسفة اللغة • ط بيروت ١٩٦٧ م •
- ٦٢ - كندراتوف (عالم روسي) :
الأصوات والإشارات • ترجمة : شوقي جلال • ط الهيئة المصرية
العامة للكتاب ١٩٧٢ م •
- ٦٣ - لويس (عالم بريطاني) :
اللغة في المجتمع • ترجمة : د. تمام حسان ، د. إبراهيم أنيس
ط دار احياء الكتب العربية ١٩٥٩ م •
- ٦٤ - ماريوباي : (عالم ايطالي) :
لغات البشر : أصولها وطبيعتها وتطورها • ترجمة : د. صلاح
العربي • نشر الجامعة الأمريكية بالقاهرة • نوفمبر ١٩٧٠ م •

- ٦٥ - المبرد (ت ٢٨٥ هـ) :
المقضب : تحقيق عبد الخالق عضية • المجلس الاعلى للشئون
الاسلامية ١٣٩٩ هـ .
- ٦٦ - مجمع اللغة العربية بالقاهرة :
المعجم الوسيط • الطبعة الثانية • دار المعارف ١٣٩٣ هـ /
١٩٧٣ م .
- ٦٧ - محمد حسن جبل (دكتور) :
• أصوات اللغة العربية : دراسة نظرية وتطبيقية • (طباعة
أولست بطنطا) .
• المعنى اللغوي : دراسة نظرية وتطبيقية • الطبعة الأولى
١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- ٦٨ - محمد حسن عبد العزيز (دكتور) :
مدخل الى اللغة • ط القاهرة ١٩٨٢ هـ .
- ٦٩ - محمد حسنين مخلوف العلوي (الشيخ) :
• حكم ترجمة القرآن وكتابته وقراءته بغیر العربية شوال ١٣٤٣ هـ
عنوان البيان في علوم التبيان • الطبعة الثانية ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤
٧٠ - محمد صالح بن عمر (دكتور) :
الثورة التكنولوجية واللغة • الطبعة الأولى • بغداد ١٩٨٦ م .
- ٧١ - محمد عبد العظيم الزرقاني (الشيخ) :
مناهل العرفان في علوم القرآن • ط دار احياء الكنب العربية
١٩٨٠ م .
- ٧٢ - محمد فريد حجاب :
الفلسفة السياسية عند أخوان الصفا • الهيئة المصرية العامة
للكتاب سنة ١٩٨٢ م .
- ٧٣ - محمد المبارك :
فقه اللغة وخصائص العربية • الطبعة الثالثة ١٩٦٨ بيروت .

٣١٨٠

- ٧٤ - محمد متولى الشعراوى (الشيخ) :
أنت تسأل والاسلام يجيب • الجزء الثالث ط دار المسلم
١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م •
- ٧٥ - محمود حلمي :
الخط العربى بين الفن والتاريخ • بحث فى مجلة عالم الفكر
المجلد ١٣ العدد ٤ سنة ١٩٨٣ م •
- ٧٦ - محمود السعمران (دكتور) :
علم اللغة مقدمة للقارئ العربى • ط دار المعارف ١٩٦٢ م •
- ٧٧ - محمود مصطفى :
أهدى سبيل إلى علمى الخليل : العروض والقافية • ط ٩٢
١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م •
- ٧٨ - مصطفى صادق الرافعى :
اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ط بيروت •
- ٧٩ - مصطفى فهمى (دكتور) :
أمراض الكلام • الطبعة الرابعة • مكتبة مصر •
- ٨٠ - موفق الحمدانى (دكتور) :
اللغة وعلم النفس ط بغداد ١٩٨٢ م •
- ٨١ - ميلسنت ٢٠٠٢ سلسنام (عالم أمريكى) :
لغة الجوان • ترجمة : د. كامل منصور • دار نهضة مصر •
- ٨٢ - نايف خرما (دكتور) :
اللغات الأجنبية : تعليمها وتعلمها • (بالاشتراك مع د. على حجاج)
سلسلة عالم المعرفة • العدد ١٢٦ شوال ١٤٠٨ هـ / يونيو ١٩٨٨ م •
- ٨٣ - نورى جعفر (دكتور) :
آراء ومواقف تربوية ونفسية صائبة فى التراث العربى الاسلامى
وزارة الثقافة والاعلام العراقية ١٩٨٢ • من سلسلة دراسات
رقم ٣٣٤ •

المراجع الأجنبية

John Laver : Phonetic description voice quality, 1980

Heffner : General phonotics madison

The University of Wisconsin Press 1960

محتويات الكتاب

٣٣٣

٣

تقديم

٧

بين يدي الموضوع

١٣

الرسائل الرياضية التعليمية والفلسفية

١٤

الرسائل الجسمانية الطبيعية

١٥

الرسائل النفسية العقلية

١٦

الرسائل الناهوسية الاحقية والشرعية الدينية

الباب الأول

القضاء الخيرية امامة

الفصل الأول

٢١

اللغة والفكر

اتجاهات حديثة :

٢٦

الاتجاه الأول

٢٧

الاتجاه الثاني

٢٨

الاتجاه الثالث

٣١

الاتجاه الرابع

الفصل الثاني

٣٦

نشأة اللغة

٣٧

نشأة اللغة المنطوقة

٤٢

اللغة المكتوبة

٤٩

أصل الخطوط

٥٠

مقياس الخط الجيد

٥٢

مضائل الكتابة وخطوطها

الفصل الثالث

تطور اللغة

- ٥٦ أسباب نشر اللغة
- ٥٦ نفوق اللغة وسيادتها
- ٦٠ نفع اللغة الى لهجاتها ولهجاتها
- ٧٨

الفصل الرابع

الصوت العام

- ٨٢ أنواع الصوت
- ٨٢ نشأته والمراحل التي يمر بها
- ٨٣ سماع الصوت
- ٩٤ ادراك الصوت
- ١٠٥

الفصل الخامس

الصوت اللغوي

- ١١٠ مفهوم الصوت اللغوي
- ١١١ المستويات الأدائية للصوت اللغوي
- ١١٥ المراحل التي يمر بها الصوت اللغوي
- ١١٧ بقاء الصوت وخفته
- ١٢٨ وحدة الصوت وغلظته
- ١٣٤ كبر الصوت وصفره
- ١٣٤ سرعة الصوت وبطؤه
- ١٦٢ مقارنة بين نظريتي اخوان الصفا والمحدثين

الفصل السادس

الاكتساب اللغوي

١٧٢	معنى اكتساب اللغة
١٧٣	طرق اكتساب اللغة
١٧٦	مراحل الاكتساب
١٧٤	مستويات اكتساب اللغة
١٨٢	عوامل اكتساب اللغة
١٨٣	تفاوت الناس في اكتساب اللغة واجتيازه
١٨٤	الاكتساب اللغوي من خصائص العصر
١٨٨	

الفصل السابع

اللفظ والمعنى

١٩٥	ماهية كل من اللفظ والمعنى
١٩٥	أهمية اللفظ والمعنى
٢٠٧	

الباب الثاني

٢١١	اللغة العربية
	الفصل الأول

٢١٣	أفضلية العربية
-----	----------------

الفصل الثاني

٢١٤	أصل العربية وتطورها
-----	---------------------

الفصل الثالث

٢٢٤	أصوات اللغة العربية
٢٢٤	عدها
٢٢٥	مخارجها
٢٢٩	العيوب الصوتية
٢٤٣	بين الألفبائية العربية وغيرها

الفصل الرابع

٢٤٩	الخط العسري
٢٤٩	مصدر الخط العسري
٢٥٥	صورة الخط العسري
٢٥٧	معايير جودة الخط
٢٦٣	أسباب الخروج عن معايير الخط
٢٦٥	دوافع تجويد الخط العسري

الفصل الخامس

٢٦٨	من قضايا اللفظ والمعنى
٢٦٨	الاشتراك اللفظي والترادف
٢٨٠	القلب والابدال
٣٠٠	خاتمة
	المراجع



General Organization Of the Alexan-
dria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

رقم الإيداع: ٢٨٧٨/١٩٩١

